



مذاهب وشخصيات

عشرة رجال من افريقية

حياتهم
أعمالهم
أهدافهم



بقلم الكاتب الألمانى
رولف إيتا ليندر
ترجمة
الحمد عبد الفتادر
تقديم ومراجعة
الدكتور أحمد موسى



اهداءات ٢٠٠١

. محمود دياب

ع بالمستشفى الملكي المصري

مذاهب وشخصيات

عشيرة رجال من أفريقيته حياتهم . أعمالهم . أهدافهم

الكاتب الأمازيغي
بمستلم : رولف إيتاليندر
ترجمة : احمد عبد القادر
تقديم : الدكتور احمد موسى
ومراجعة :

مقدمة

تعتبر افريقية من أهم القارات الخمس : فموقعها الذي يتوسط الكرة الأرضية بالنسبة الى خط جرينتش وثوراتها الهائلة وأراضيها البكر الواسعة الشاسعة الاطراف التي جذبت العالم اليها .

وجاء اسمها كما أورده الرومان منسوباً الى أهلها الذين كانوا يسمون « أفري » أو « أفريكان » وهي مع قارة أوربا التي يفصل بينهما البحر الأبيض المتوسط وآسيا التي يفصلها عنها البحر الأحمر تكون جميعاً ما عرفوه باسم العالم القديم .

وتمتد افريقية من خط عرض ٢٠ - ٣٧ درجة شمالاً الى خط عرض ٥١ - ٣٤ درجة جنوباً ، ويكاد خط الاستواء يقسمها قسمين متساويين ، ويبلغ طولها من ساحلها الشمالي الى قمتها السفلى نحو ثمانية آلاف كيلو متر ، وعرضها من الشرق الى الغرب نحو سبعة آلاف وستمئة كيلو متر ، ولهذا فهي تعتبر ثالثة القارات المتماسكة الاطراف ومساحتها تبلغ ثلاثة أضعاف مساحة أوربا كلها ، كما تعادل خمس مساحة اليابسة مجتمعة .

والعجيب في هذه القارة أنها تكاد لا تحيط بها جزر كثيرة من أية ناحية من نواحيها ، اللهم الا جزيرة مدغشقر وبضع جزر صغيرة بالقرب منها ، بالإضافة الى مجموعة ضئيلة في شمالها الغربي .

وشكل القارة عموما اشبه شيء بالكثيرى نصفها الأعلى على هيئة شكل رباعى هائل ونصفها الاسفل مثلث كبير يمتد رأسه الى الجنوب ، ولا تسمح معظم سواحلها بالسفر عليها ، ذلك لأنها حيناً ذات انحدار وعرة ، وحيناً مسطحة رملية ، وحيناً جبلية ، أما شمالها الطويل وجنوبها الضئيل فإن سواحلها رخوة عامرة فى معظم مناطقها بالحيوانات البحرية ، الى جانب المرجان الذى يكثر فى ساحلها الشرقى .

ولا يتسع المجال لوصف أراضيها الواسعة ولا ما عليها من حيوان ونبات ولا ما فى باطنها من كنوز طبيعية هائلة قلما توافرت فى قارة أخرى وكذلك لا يتسع المكان لبيان جوها وسكانها بعقائدهم وعاداتهم ولغتهم ، كما لا يمكن بحال وصف وسائل المواصلات فيها ، التى تؤدى الى حد ما الى بقاء ذات اقتصاديات تجل عن الوصف والحصر .

ولهذه القارة تاريخ عجيب لا يخرج فى أول أمره عن اقصيص وروايات ، حتى قام المصريون بأسفارهم الكشفية فى حوالى عام ألفين قبل الميلاد ، فساروا جنوباً وعبروا البحر الأحمر حتى بلغوا « أرض البخور » فى جنوبى الجزيرة العربية ، وجاب الفينيقيون القارة من شمالها متجهين نحو الجنوب ، حتى بلغوا غينيا العليا ، وفى رواية لهيرودوت المؤرخ الاغريقى أنهم قاموا برحلتهم حول ساحل القارة مبتدئين من البحر الأحمر .

أما بطليموس فقد عرف أن النيل لا بد أن من بحيرات كبيرة تمتد النهر العظيم بالماء الجارى ، وفى عصر نيرون قامت بعثة كشفية فى نهر النيل حتى بلغت بحر الفزال . أما يوليوس ماتيرنوس فقد استطاع الوصول الى تشاد وكان ذلك فى أواخر القرن الأول بعد الميلاد .

أما البحث العلمى السليم فى شئون هذه القارة فقد بدا على أيدي العرب ويليهم الايطاليون والبرتغاليون ، وقد بلغت جهود علماء العرب فى بحوثهم الكشفية جنوبى السودان ، وانتشرت معالم الحضارة الاسلامية بانتشار الاسلام تدريجياً فى جزء كبير منه . وما زالت رحلات ابن بطوطة فى كتابه « تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار » الذى ألفه فى القرن الرابع عشر موضع الإعجاب والتقدير من علماء الغرب ، فهو الذى جاب شمالى افريقية مبتدئاً من المغرب الى مصر فالساحل الشرقى حتى مومباسا وكيلوا ، واخترق الصحراء حتى وصل الى تيمبوكتوكو . وكان ذلك بعد أربعة قرون منذ ظهور البلخى وكتابه « صور الأقاليم » والاصطخرى وكتابه « المسالك والممالك » وابن حوقل وكتابه « المسالك والممالك والمفاوز والممالك » وكلهم من جغرافيين القرن العاشر والادريسي

صاحب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » وخريطته المشهورة لما جابه من البلدان ، وهو أول من حقق منابع النيل في القرن الثاني عشر . اشتغل هؤلاء جميعا بجغرافية أفريقية وتاريخها على وجه الخصوص ، الى جانب غيرهم من علماء العرب ممن اشتغل بجغرافية اقطار وقارات أخرى وتاريخهما مما يدعو في هذا المجال الى اهمال ذكرهم .

أما ليوا فريكانوس فقد قام برحلة في أوائل القرن السادس عشر على اعتباره سفيرا لبلاده مبتدئا من المغرب الى تيمبوكتو وبورنو ، وكتب كتابا يعد مرجعا وصف فيه السودان .

ويعتبر شمالي افريقية أهم جزء تناوله الرحالة والباحثون بالدراسة والكشف لجملة أسباب : من أهمها قرب هذا الشاطئ من قارة أوروبا وانبساط شواطئه وقيام اقدم الحضارات على جزء منه ، فقام جغرافيون ورسامون للخرائط أمثال انجلينود الوردو ، في القرن الرابع عشر ، وفرامورو في القرن الخامس عشر بالكتابة الوصفية المزودة بالخرائط الايضاحية التي مازالت لها قيمتها العلمية الى اليوم ، واكتشف غيرها بعض الجزر مما لا داعي للافاضة فيه .

ولم تصل البحوث الخاصة بالقارة كلها مبلغ النضج الا في القرن الخامس عشر ، حيث استطاع برتولى دياتس الوصول الى رأس الرجاء الصالح ، وأعقب ذلك رحلة فاسكودي جاما في أواخر ذلك القرن الى شرقى الهند ، وعرج في طريق عودته على مصوع بالبحر الاحمر حتى بلغ السويس في عام ١٥٤١ .

وتلت هذه الرحلات كشوف أخرى عقب الكشف عن الهند والقارة الأمريكية فبدأت حركة الكشف الافريقية في القرن السابع عشر على نطاق واسع وبنشيط واهتمام ملحوظ :

فنزل الفرنسيون في السنغال في سنة ١٦٢٦ ، كما وصل الهولنديون الى رأس الرجاء الصالح في سنة ١٦٥٠ ، والألمان الى ساحل الذهب في سنة ١٦٨٢ ، أما الانجليز فقد جاءوا الى افريقية بشركة تجارية اسموها « الشركة الانجليزية الافريقية للتجارة » في سنة ١٦٧٢ . ولم يقتصر عملها على مدلول اسمها ، بل كانت هي الأساس الأول لتوطيد أقدامهم في بقاع شتى من القارة .

وقد وسع البرتغاليون ممتلكاتهم في انجولا وموزمبيق . أما الفرنسيون فقد كانت أسفارهم الكشفية على مستوى عال من حب

الامتلاك ، فبلغوا سينيجامبيا وتيمبوكتو وبايس ولوبو في منطقة منابع النيل الأزرق ، وبانسيه في اثيوبيا ، هذا الى جانب محاولات عدة في القرن الثامن عشر للوصول الى قلب القارة ، قام بها أصحابها حيناً من سينيجامبيا (وساحل) غينيا وحيناً آخر من منطقة الكاب .

وكانت أولى البحوث العلمية الممهدة للاستعمار مبتدئة في سينيجامبيا بواسطة رجل انجليزى اسمه آدنسون ، كما قام بروس روبان بين عامى ١٧٦٩ ، ١٧٧٢ بعمل البحوث في بلاد اثيوبيا وحول مجرى النيل الأزرق .

أما بلاد هونتوتون عند الكاب فقد قام كل من سبارمان وتوتبرج للبحث والتنقيب فيها من سنة ١٧٧٢ الى ١٧٧٦ ، وأكمل بحوثهم نحو الشمال ليفابلان من سنة ١٧٨٠ الى سنة ١٨٧٥ . واكتشف غوردون نهر الأورانج في عام ١٧٧٧ ، وجاء كاستين نيبور الألماني الى مصر في عام ١٧٦١ وقام بعمل أول خريطة صحيحة عن البحر الأحمر ، أما أولى الخرائط ذات القيمة الجغرافية لمصر فكانت من عمل يوهان ماتياس هازه في سنة ١٧٢٧ ، أى بعد أول خريطة طبوغرافية لمناجم الذهب بمصر وهى مرسومة على ورق البردى من نحو ثلاثة آلاف وسبعمائة سنة ومحفوظة بمتحف تورينو .

وكانت الرحلات التى أسموها كشفية حيناً وعلمية جغرافية حيناً آخر منذ أواخر القرن الثامن عشر الى الربع الأول من القرن العشرين لم تكن حقيقتها الا الافادة من كنوز هذه القارة العظيمة ، وتوطيد أركان الاستعمار فيها بكل الوسائل ومنها التبشير ، الذى دفع بالأوروبيين الى الاستشراق ودراسة اللغات المنتشرة في القارة ، وكانت من أولها ولاشك اللغة العربية . وللإستشراق والمستشرقين قصتهم وتاريخهم مما لا يمكن فى هذا المجال ذكره ، ولكنه من أوثق الأسباب التى جعلت هؤلاء الأوروبيين يتمكنون من القارة ومن أهلها .

ولعل من الأدلة الظاهرة على ذلك تأسيس الانجليز لما أطلقوا عليه « افريكا اسوسييشن » الذى مهد السبيل الى جانب الوسائل الأخرى ، الى الطمع فى نهر النيل العظيم بمنابعه وبحيراته التى أطلقوا عليها اسم ملوكهم وملكاتهم ، على نقيض الجغرافى العربى الذى وصل الى هذه المنابع وأطلق على البحيرات أسماءها المحلية ، فجاءت فى خريطة الإدريسي خالية من كل لون من ألوان الأنانية أو الاستعمار . وكان الطمع فى نهر النيجر لا يقل عن الطمع فى نهر النيل ، وعندئذ بدأت الأطماع السافرة تظهر رويدا رويدا فى وسط افريقية بطريقة واسلوب لانظير لهما فى أية قارة أخرى .

فاذا كانت مصر قد عرفت البحث في افريقية وبلغت اثيوبيا في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وعرفها العرب وسافروا حول شاطئها الشرقى في القرن العاشر بعد الميلاد وقام الادريسي برحلته المشهورة وابن بطوطة بسياحته المعروفة في مصر والساحل الشرقى للقسارة حتى بلغ جنوبيها ووصل الى تيمبوكو كما سبق القول ، فان كل هذا قد تم خاليا من اى لون من ألوان السيادة او حب الاستقلال او الاستعمار ، وهذا كله أمر يدعو اليوم الى وجوب اتحاد أبناء هذه القارة جميعا كما جاء في مناسبات عدة في خطب الرئيس جمال عبد الناصر الذى درس وفحص وتأمل في أحوال هذه القارة على أرفع مستوى من سعة الاطلاع كما سيجيء واضحا في ترجمته التى كتبها مؤلف هذا الكتاب .

لقد رأينا كيف كان اهتمام أبناء الغرب بهذه القارة وكيف نشأ ولوعهم بالسيطرة عليها واستنفاد ما فيها من كنوز ، بعد ما قرعوا ما كتبه هيرودوت المؤرخ اليونانى في القرن الخامس قبل الميلاد ، وما تبع مجيء البطالة الى مصر وهم الذين جابوا النيل حتى منابعه ، وكذلك تقارير بعثات نيرون التى تناولت البلاد بالوصف الزاخر حتى بحر الفزال ، وذلك في النصف الاول من القرن الاول الميلادى ، بالاضافة الى ما سبق ذكره عن البرتغاليين وليو افريكانوس .

نذكر كل هذا تمهيدا للقارىء لى يعرف شيئا بسيطا عن ماهية افريقية وهى القارة التى نعيش على أرضها ، ولايمكننا ان نظل بمعزل عما يجرى فيها ، فقد قال الرئيس عبد الناصر : « اننا لانستطيع اليوم ان نقف بأية حال بمعزل عن الصراع الدامى المخيف الذى يدور اليوم في أعماق القارة بين خمسة ملايين من البيض ومائتى مليون من الافريقين أصحاب القارة ، ذلك لاننا نحن من أهل افريقية ، وبلادنا في هذه القارة وأهلها جميعا يتطلعون الينا على اعتبارنا حراس بابها الشمالى الشرقى ، الذى يوصل أوروبا بالشرق الاقصى كله » .

ويقول ايضا : « اننا لانستطيع بحال ان نتخلص من مسئولياتنا في المعاونة بكل مانستطيع لنشر النور والحضارة حتى أعماق الغابة العذراء والمؤكد هو ان افريقية الآن مسرح لقوران عجيب مثير ، وان الرجل الأبيض الذى يمثل عدة دول أوربية يحاول الآن إعادة تقسيم خريطتها ولن نستطيع بحال ان نقف أمام الذى يجرى في افريقية ، ونتصور انه لايمسنا ولا يعنيننا ، كل هذا كلام نابع من القلب صادر عن عقل راجح وبصيرة نفاذة تنظر الى المستقبل البعيد بالعناية التى تنظر بها الى الحاضر » هذا هو نص مقالته الرئيس في مناسبات عدة وفي « فلسفة

الثورة » ، وهو كلام ولاشك يحدد مكاننا من خريطة العالم ، ويوضح الرسالة التي يملها هذا المكان .

ولقد مرت سنوات مملوءة بالعمل المتواصل ، منذ كتب الرئيس فلسفته ، وقد أثبتت النتائج الواقعية لهذا العمل المتواصل أننا قمنا بدورنا ، ومازلنا نقوم به ازاء القارة الافريقية ، وليس هذا الدور دور زعامة ، وانما هو تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل يكون من شأنه تفجير الطاقة الكامنة في كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بنا ، ويكون من شأنه خلق قوة كبيرة في هذه المنطقة ترفع من شأن نفسها ، وتقوم بدور ايجابي في بناء مستقبل البشر . فاذا جاء اليوم الكاتب الالماني ر . ايتاليندر المولود في اوائل سنة ١٩١٣ بمدينة لايبج و اقام بمدينةنتي فالفيك وهامبورج ورحل مرات الى افريقية وسبق له تأليف كتاب « شمالي افريقية اليوم » سنة ١٩٥٢ وكتاب « أرض التباين اللوني : البيض والسود » سنة ١٩٥٣ وكتاب « في بلاد ألبرت شفايتير » سنة ١٩٥٤ ، وكتاب « متى الرحيل أيها الرجل الابيض » سنة ١٩٥٤ وكتاب « من مجاهل الغابة الى قلب الصحراء » سنة ١٩٥٥ ، أقول اذا جاء الينا اليوم هذا المؤلف بكتابه عن « رجالات افريقية » الذي اقتطفنا منه اعظم عشرة من رجالها ، في مقدمتهم رئيسنا جمال عبد الناصر ، فاننا ننشره بما ذكره فيه من بيان عن التيارات السياسية في افريقية الجديدة وهي التيارات التي تتمثل في زعماء هذه القارة . واذا كان الكتاب في مجموعه يمثل وجهة نظر مؤلفه ر . ايتاليندر ، فانه لا يخلو من فوائد جمة لقراء العربية ، ذلك لانه كان بارعا وموضوعيا في الكثير مما كتب ، ولو انه لم يقرر وجهة نظره تقريراً مباشراً صريحاً .

اما الشخصيات التي اشتمل عليها هذا الكتاب فهي شخصية الرئيس جمال عبد الناصر ، والرؤساء سيكوتوري ، ونكروما ، وهيلاسلاسي ، وادريس السنوسي ، ومحمد الخامس ، والحبيب بورقيبة ، وابراهيم عبود ، وتوم مبيويا ، ويوليوس نيريري ، وهي الشخصيات التي تضع السياسة لافريقية الجديدة اليوم ، وتلقى أضواء قوية للقارئ العربي على ما يدور في القارة من خلال منظار يطل به كاتب أوربي .

قال الرئيس عبد الناصر في فلسفة الثورة : « ولسوف اظل أحلم باليوم الذي أجد فيه في القاهرة معهداً ضخماً لافريقية ، يسعى لكشف القارة امام أعيننا ويخلق من عقولنا وعيا افريقيا مستنيراً ، ويشارك مع كل العاملين في كل انحاء الأرض على تقدم شعوب افريقية ورفاهيتها .

وأعتقد أن ماجاء بين دفتى هذا الكتاب من خير مايعبر عن وجهة
النظر الأوروبية وطريقة تفكير الأوربيين فى سبيل العثور على مفاتيح
افريقية الجديدة .

ولهذا كله أرجو أن يحظى الكتاب باهتمام القارئ لما جاء به من
بيان لاغنى عنه .

القاهرة فى إبريل سنة ١٩٦٣

الدكتور أحمد موسى

رجالہ جدد
فے عالم ہدیہ

ان كل شىء يتغير اليوم سريعا ويجب علينا أن نلاحق خط السير
خالقاطرات والطائرات قد فتحت آفاقا جديدة لم يكن الأجداد ليحلموا بها .

« بووى • ت • موى »

ان المرء يتخيل انسان القرن الثامن عشر ينقل الخطى بعد ثباته غير
العادى فى يقظة غير عادية فى أرجاء عالمنا الجديد ، فهل سيجد أنه يعيش
فى الحقيقة ؟ وهل سيكون مصدقا ؟ ربما يحدث ذلك • وربما يفقد
عقله أمام هذا التجديد الشامل ، وربما أيضا يفقد الرغبة فى الحياة تماما ،
ولا يشوقه أكثر من أن يستغرق فى سبات عميق لا يستيقظ منه أبدا •

ان أناسا فى افريقية يقفون مثل هذا الموقف ، ينقلون الخطى عبر
القرون ، فبالأمس القريب كان مجال حياتهم منحصرا فى الصحارى أو
الأحراج أو أعماق الغابات العذراء ، وليست تقاليدهم وعاداتهم سوى
عادات الانسان البدائى ، أما اليوم فان مجال حياتهم قد أصبح فجأة فى
المدينة الكبيرة الحديثة بجميع وسائلها الفنية والتنظيمية •

حقا لابد للمرء أن يتعجب دائما عن كيفية تمكن الأفريقيين من اتخاذ
خطوة غير طبيعية كهذه من عصر لآخر دون ارشاد محطمين جميع الحواجز
دون مراعاة لآى شىء يمكن أن يقف فى الطريق لتعويقهم عن بلوغ أهدافهم
المنشودة فى بناء قارة جديدة تقوم على مبدأ التعاون المشترك بين
جميع أقطارها وشعوبها الحديثة المتحررة من ربقة الاستعمار الاوروبى •

حزب وزارى فى غينيا

كانت قد انقضت بضعة أسابيع بعد أن اختارت غينيا الاستقلال عن فرنسا بوساطة «سيكوتورى» ، وقد توقفت فى العاصمة «كوناكرى» وفى مساء يوم أحد دعيت الى أولى حفلات الاستقبال الليلية لمجلس الوزراء الجديد ، وكانت درجة الحرارة عالية والرطوبة كثيفة . واقتربت من وزير الداخلية «كيثا فوديبا» الذى كنت أعرفه من قبل كشاعر وأستاذ للباليه ، واستفسرت منه : هل يجوز للمرء أن يحضر فى حلة عادية خفيفة ؟ فنقل الى سكرتيره تحيات الوزير ، وأبلغنى أنه قد دعانى ولم يدع حلتى ، فكل يستطيع الحضور مرتديا ما يحلو له .

وبعد انحسار الظلام استدعانى وزير الاشغال العمومية ورأى بعض البيض فى حديث مع الوزير ، ومن تصفح وجوههم أدركت ما يجسول بخواطهم : « أن يكون هذا خائنا للجنس الابيض ؟ » .

انه لشيء مفزع بل أليم أن يفقد المرء فى افريقية أفراحه فى هذا اليوم بهذه البساطة ، لقد دفعنى عملى ككاتب أن أحضر الى افريقية من جديد ، ولا أقصد عقد معاهدات ، كما لم أبغ بيعا أو شراء لاي شيء ، وكذلك لم يدفع لى أحد شيئا ، وكنت آمل أن يتركنى الناس فى هدوء مع شكوكى وأفكارى .

لقد سافرنا الى طرف المدينة ، و «كوناكرى» هذه مدينة على احدى الجزر التى كانت ملتحمة باليابسة منذ سنوات بخط حديدى وطريق للسيارات ، وقد مررنا بصف من المنازل الريفية (الفيلات) التى تبهج النظر بحداثتها المنسقة . وكانت هذه منازل للوزراء جميعا مما شاهده الفرنسيون . هذا ما علمته ، وقد أبطأنا فى سيرنا أمام واحدة من هذه البنايات وسرنا فى الحديقة الامامية حيث تنتظر عدة عربات وسيارات .

كانت الليلة بمناخها المدارى مظلمة والسماء زاخرة بالنجوم، وجسنا خلال الفيلا التى امتلأت حجراتها بأثاث ضخم كثير الزخارف ، ومر علينا خدم يرتدون زيا أبيض حاملين المشروبات ، وفى الحديقة وقف الضيوف والوزراء وبعض كبار موظفى الحكومة الجديدة . كان كل منهم يرتدى زيا داكنا ، وقد بدا لى حينئذ أنه من غير اللائق حقا ارتداء حلة عادية فاتحة اللون ولاسيما أن معظم المدعوين اصطحبوا زوجاتهم اللاتى كانت بعضهن يرتدين ملابس أوربية وبعضهن الملابس الافريقية .

وجاء وزير الداخلية واصطحبني ممسكا بذراعى وقدمنى الى مجموعة من الضيوف ، وقد شملنى الرئيس «سيكوتورى» بود خاص ، وتعرفت على زوجته التى كان ينبغى على أن أقابلها كثيرا ، والتى كانت تقابل بعبارات المديح سواء من البيض أو السود فى كل مكان تظهر فيه ، لقد اكتسبت

السكرتيرة السابقة وسيدة غينيا الأولى لونا من الجمال والرشاقة العجيبين .
وبدا العشاء بعد وصولي بوقت قصير . رأيت على البعد « خروفا »
معلقا بحامل حديدى فوق نار فى العراء ، وقد ناولنى وزير الداخلية طبقا .
وهو يقول « انك بين الأفريقيين صديق عزيز ، واليك أقدم مثلا طيبا يريك
مدى براءتنا وصفائنا أليس كذلك ؟ ففى أوربا عندكم يقولون اقطع اللحم
بالسكين والشوكة ، أما عندنا فلا داعى لاستعمالهما ، حقا اننا مزعجون نحن
السود ! فقلت : « ان هذه العادة ليست معروفة لى برغم أنى قد سبق أن
دعيت فى شمالى افريقية الى ولائم خاصة غالبا ، وكذلك فى الصحارى ،
فأجاب الوزير : « آه . اذن فانت افريقى أبيض » .

ونزعنا معا قطعة كبيرة من اللحم بعظامها من الخروف ، وعند انتهاء
الطعام دارت أطباق فيها ماء ساخن تطفو فوقه أنصاف من الليمون الى
جانب المناشف .

وتطرقت فكرة بدائية الى راسى « يا للعجب ! ان هناك مجتمعات
قوم سود يعامل فيها المرء الأبيض كأنه غريب ، أما هنا فلم يكن الامر كذلك .
لقد كان شعورى دائما اننى لست الأبيض الوحيد كما أشعر بأننى لست
غريبا .

لقد كانت ذروة أحلامى الباطنية لا تحتوى سوى بعض التمنيات .
البسيطة للاستمتاع بجو شاعرى تظله أنغام الموسيقى ، فبعد العشاء
وتناول الشمبانيا ظهر فتيان زنجيان حسنا المنظر ، أحدهما يرتدى بلوجين
وقميص بحار مخططا بخطوط بيض وسود . والآخر يرتدى سترة أوربية ،
وبدا أحدهما يعزف على قيثارته على حين شرع الآخر فى الغناء . وكان الفتيان
فنانين من فريق الباليه الذى كونه وزير الداخلية المضيف فى الخارج ،
وبعد انتهاء الأغنية الأولى غنيا معا أغنيتين من أغاني الحرب : أحدهما
تنساب أنينا وشكوى ، والاخرى أغنية أيقنت أنها واحدة من أغاني الحب .
القليلة فى الموسيقى الشعبية الغينية ، وقد أصغيت اليها شارد الفكر فى
حين كان بقية الضيوف يتابعون الأنغام بأصواتهم .

لم يكن هناك حديث عن السياسة أو مشروعات المستقبل ، وربما
كانوا فخورين جميعا لاستطاعتهم تقديم موسيقى الوطن الممتعة لاحد .
البيض .

وما ان انتهى الفنانان من الغناء حتى توجهت الى رئيس الجمهورية .
لتقديم عبارات الشكر لانه أتاح لى فرصة الاستمتاع الفنى هذه ، ثم توجهت
الى الفنانين ومدحت مهارتهما الفنية ، وقدا بعد ذلك مفاجأة أخرى ، فقد
عزفا الحاننا فرنسية أخرى أثارت ذكريات قديمة فى نفسى ، اذ منذ سنوات .

قلائل منع مجلس المدينة في إحدى مدن منطقة الرور الألمانية أحد الزوجين من أن يغنى أغاني عيد الميلاد الألمانية ، فتدفقت حمرة الخجل الى وجهي ، وسألت نفسي : « هل ينبغي لنا أن نتعلم الصبر من الأفريقيين » .

ونفضت وحدي أسرى عن نفسي بالسير في الحديقة ، ومن ركني المظلم أخذت أرقب مجتمع الوزراء الأفريقيين للجمهورية الغينية الذي اكتسب حلة من السرور ، وفي عودتي اعترضني وزير الداخلية مستفسرا : هل هناك شيء لا يسير على ما يرام بالنسبة لي ؟ فأجبت : ان كل شيء طيب جدا ولكنني ازددت يقينا من المدى الواسع الذي يفصل أنموذجا انسانيا عن آخر .

وفي الفندق أمضيت الليل في شرفة حجرتي ساهرا ، أتأمل انعكاس الهلال على صفحة المستنقع وتمايل النخيل على حفيف رياح منتصف الليل الناعمة ، ودار برأسي خاطر جميل : حقا ان هناك أشياء لانهاية لها تستحق أن نعلمها ، وهنا في أفريقية تبدو جميع الاحتمالات في صيرورة جميع البشر طبيين ، جائزة التحقيق ، الاحتمالات في أن يصيروا بشرا لا شيئا آخر سوى بشر !

من الصعب اكتشاف الأفريقيين

ان كل شيء لا يسير دائما في خط متلاحق ، فالمرء يستطيع أن يجرب المفاجآت الانسانية وخيبة الآمال في أفريقية ، كالحال في كل مكان آخر في العالم ، فقد صدمت بعدمقابلي لرئيس وزراء غانا دكتور «كوامي نكروما» وحتى لا يكون هناك أي مجال لسوء الفهم فسأروني ما حدث بالتفصيل : كان من المفروض أنني سأشاهد (نيكروما) على أنه واحد من الرؤوس الذكية في أفريقية اليوم .

وللحق أن الرجل كانت لديه مظاهر العظمة ، فعندما استطعت الوصول اليه كان على جانب ظاهر من الاحترام دائما ، وخاطبني باسمي ، وبعد محادثاتنا حضني على التجاوز عن جميع قواعد البروتوكول . وقد خصني نيكروما بالكثير من الاحاديث الصادقة ، وأحستست لديه بعطف في أثناء اقامتي الاخيرة ، وسرعان ما عرفت أنه من المستحيل أن يوزع المرء عطفه في كل مكان . فقد أعطاني درسا غير سار في قسم التصوير بمصلحة الاستعلامات الحكومية أستطيع أن أتذكر : ذلك أن رئيس الوزراء أصدر أمره بإجراء عملية تجميع جميع أفلامني في مصلحة الاستعلامات هذا بالإضافة الى أن واحدا من الموظفين أفهمني في بساطة أن رئيس الوزراء

لا يفكر في مساعدتي بتحريضه أفلامى فى المصلحة ، وانما لانه لا يحب البيض ولذا فنحن نحبه كثيرا .

وقد استطعت أن أتحدث مع بعض رجال ونساء المعارضة الذين أوضحوا لى أن (نيكروما) يطالب بالسلطة العليا لحزبه الخاص ، ولذا كان على الدكتور (بوزى) أبرز أعضاء المعارضة أن يهرب الى هولندا مع عائلته فى هذه الاثناء على حين أودع بعض زعماء المعارضة الآخرين السجن . وحدثت اقامة البعض الآخر ، حيث تقام عليهم الحراسة ليلا ونهارا ، ولقد أخبرنى بعض أعضاء المعارضة وبعض الاوربيين والامريكيين أن « نكروما » يقول لكل فرد ما يود أن يسمعه .

اذن ما الوجه الحقيقى لهذا الرجل الذى اخبر فى هذه الاثناء كأول زنجى فى مجلس التاج للملكة اليزابيث الثانية ؟

انه من الصعب الاجابة عن هذا السؤال حاليا ، بل من المؤكد هنا أنه من المستحيل بالنسبة لرجل أبيض أن يقيم الحجة على ما فى نفس زنجى ، وعلى الخصوص اذا كان زنجيا نابها . وفى نهاية مؤتمر الشعوب الافريقية فى (أكرا) طلب (كوامى نكروما) الكلمة أمام الوفود والمراقبين . وهنا عرفت (نكروما) آخر يختلف عن ذلك الذى رأيته حتى الآن فى مقابلات خاصة ، حيث لم يكن واحد من الافريقيين أو الاوربيين حاضرا آنذاك . ولو لم أكن قد عرفته قبلا وأجريت معه محادثات كثيرة ما استطعت أن أعرفه فى صورته الجديدة : ذلك أن الذى كان يتحاشى ذكره فى أحاديثه الشخصية والذى بدا الآن واضحا ، هو التعصب والكراهية العمية والحدة فى عجمه على كل البشر الذين ليسوا افريقيين أصلا ، وحين أخبرت أحد الدبلوماسيين الانجليز بذلك قال لى : « اذن فقد عرفت «نكروما» الحقيقى ، وهكذا جميع الافريقيين فى الحقيقة ، فانهم لا يعرفون المثل العليا ، وعندما يتحدثون عنها ، فليس حديثهم هذا الا قناعا مسرحيا فقط ! »

ان الفرد منهم لهذا السبب يريد أن نقيم له جوا طيبا لدينا نحن البيض . فلماذا ببساطة ؟ لانه ما زال فى حاجة الينا ، ولكن عندما تنتهى حاجته الينا يصبح أكثر عداوة عما كنا عليه نحن البيض فى افريقية دائما . اننى أوافق (نكروما) فى قوله : « ارفعوا أيديكم عن افريقية » . ولكننى كانبليزى لى بالتأكيد نظرة أخرى مختلفة عن (نكروما) ، اننى أقول : انكم لم تكسبوا شيئا بمساعدتكم لهم ، فان أية مساعدة سترقد ضدنا فى يوم ما ، انزلوا عن مصيركم ، انكم لا تكسبون أى شيء !

حقا ان كل من يتتبع المناقشات فى مختلف لجان هذا المؤتمر التاريخى

لا بد أن ينزعج كأوربي ، فقد همس لي أحد الفرنسيين الأحرار الذي كرس نفسه لمعارضة الاستعمار والاحتلال في أثناء إحدى الجلسات بصوت منفعل قائلاً : أتعلم أنني أحياناً أسأل نفسي أفلم يكن « البرت شفيترز » ، وحزبه مع تطرفهما تجاه الوطنيين على جانب من الصواب ؟ .

بين التجاذب والنفور الروحي

ان الذي يجهد نفسه لتفهم افريقية الجديدة سيكون غالباً موزعاً بين العطف وبين النفور الروحي ، ولكنه اذا راقب الامور في هدوء فانه لابد أن يصل الى نتيجة محدودة المعالم .

سيعرف أن رجالاً منهم نكروما ربما يجب أن يكونوا على ما هم عليه في مثل هذا الوقت : ذلك لانه ليس في افريقية أى هدوء أساسى متناسق ، بل نمة ثورة عارمة ظلت افريقية تحلم بها طوال قرون سكوتها ، والآن أيقظها بعض الزعماء الثوريين ، ومن المسلم به أنه حين يتيقظ المرء فلا بد أن يتدرج في اليقظة ، فهو يحك عينيه بيديه أولاً طارداً النوم ، ثم يبدأ في الاتعاش ويأخذ في التفكير في عمل يومه .

واذا نظرنا الى الشعوب الافريقية فسنجد الامر في يقظتها لا يسير وفقاً لهذا المنطق التدريجي ، فقد استيقظت هذا الشعوب من العصور الوسطى لتأخذ مكانها في العصر الحديث ، وقد أورثت هذا اليقظة المفاجئة كثيراً منهم صدمة عنيفة ، ذلك لانهم فوجئوا بانتزاعهم من أحلامهم .

ولم يعد هناك مجال للشك في أن كثيراً منهم عاد ينظر الى العصر القديم للواقع الافريقي متأملاً فيه مراراً ، ولكن أمثال نكروما أوتوبمان رئيس ليبيريا ، أو جميع الوطنيين الآخرين ، أمثال يقومون بعملية نفسية واسعة النطاق ، انهم يلهبون الجموع الشعبية في حال من الثورة المستمرة .

هذا ، واذا تتبعنا الديمقراطية عند أغلب الشعوب الافريقية الفتية فسنجد أنها ليست قادرة على تحقيق الديمقراطية التي نتمناها للعالم كله : ذلك لان أنظمة السيادة التي خبروها تحت سلطة الاحتلال الأبيض كانت غير ديمقراطية ، بل كانت هذه الأنظمة قريبة الشبه بنظامهم الملكي أو الرياسي الاقطاعي القديم انى حد كبير .

ومن المنطق اذن أن زعماءهم سيتخبطون بين الأنظمة الديمقراطية وبين الأنظمة المطلقة حتى يعلموا عن طريق تجاربهم الخاصة أى الطرق أصوب ؟ وأى شكل للدولة أكثر ملاءمة لهم ؟ .

ولقد كشف لى نكروما عن مثله الرئيسية قبل الحصول على الاستقلال حيث قال : « ان العزف على الجيتار شيء بسيط للغاية ، ولكن أفضل طريقة لتعلمه هو أن يفض النظر عن الامساك الحاطيء بالآلة وعن النغمات الحاطئة المنبغثة منها مهما استقرت » .

ان الطريق الممتد أمام الشعوب الافريقية صخري وعر ، ولذلك فان علينا نحن البيض واجبا جديرا بالاداء تجاههم ، فلنبذل المساعدة بالرغم من نعصبهم وبرغم أنهم لا يحوزون اعجابنا ولا يحبوننا ، وهم يضعون العقبات فى طريقنا ونعتقد وجوب رفض معتقداتهم ذلك لاننا اذا تركناهم وحدهم فان نعصبهم يزد نمو وتصبح أعمالهم مفرعة للبشرية وذلك لانهم على استعداد دائم نادر المثال للتضحيات الضخمة ، أكثر من أغلب رجال الغرب القادرين . وفى امكانهم أن يكونوا جنودا شجعانا مسلمين كانوا أو مسيحيين ، فان مبادئهم فى المقام الاول تدعو الى تحرير افريقية كلها من أى اضطهاد أو استعمار ، وكذا تنادى بوحدة افريقية ، وهذا هو الدافع الحق وراء استعدادهم الفدائى العجيب للتضحية .

ولذا فانه من الاهمية بمكان للرجل الابيض أن يخط طريقا سياسيا جديدا فى افريقية اليوم قبل الغد ، مهما كانت التضحيات ، ومهما بلغت قيمتها .

وأعتقد أننا يجب أن ندين بالفضل للمؤرخ البلجيكي «م . أ . أ . ج . فان بلزن بروليس » لانه قد أكد دائما أن جميع أنظمتنا السياسية الحالية فى افريقية ليست من السياسة فى شيء ، وما هى الا حلول مؤقتة عرجاء تخطر لواحد فيدعو لها بلا حياء على أنها سياسة هامة مركزة .

ان الاستعمار فى طريقه الى الزوال بالتأكيد ، ومن ثم فانه يلزمنا وضع خطة تعد بدقة زمنية حقيقية والتزامها والارتباط بها ارتباطا شديدا لكسب ثقة الصفوة الوطنية .

درس تلقيته على خادم فندق

واذا كان ينبغي لنا أن نتفهم جانب الشعور بالشخصية ، فسأعرض التجربة التالية ، انها لا ترتبط بأى من قادة افريقية ، بل انها ترتبط بخادم فندق بسيط ، الا أن العبرة التى خرجت بها من هذه التجربة ربما توضح بجلاء ما يعتمل فى نفوس زعماء سياسيين الساعة فى افريقية .

فقد حدث عند وصولى الاخير الى « أكرا » أن علمت بعدم وصول

برقيتي التي أرسلتها من تمبكتو لحجز حجرة لي بأحد الفنادق، وعلى هذا لم تكن لي به حجرة محجوزة ، بل وبدا مستحيلا الحصول على أية حجرة نتيجة لوجوه أعضاء المؤتمر ، وقد تابرت على الرغم من ذلك على البحث عن حجرة في واحد من الفنادق المعروفة لي من قبل، وما ان رأني صاحبه حتى تذكرني وعمل على تيسير حصولي على حجرة أبيت فيها .

وحين استسلمت لقيادة شاب يعمل كخادم في الفندق في طريقي الى الحجرة وكنت قد عرفت في المرة الاولى ، قلت له : « طاب مساؤك أيها الفتى ، (يا ولد) انه لجميل أن تكون هنا دائما . ولكنني لم أتلق منه ردا، وكان الفتى بجموده هذا أول أبناء غانا الذين صادفتهم على جانب ينافي حسن اللقاء .

وعندما انتهى من ترتيب حقائبي سألته : لماذا هذا الاعراض ، وفد كنا على جانب من المودة قبلا ؟ فأغلق الشاب باب الحجرة ، واتخذ مكانا مناسباً ثم تكلم بصراحة : « سيدي : ربما يسرنى أن أراك ثانية في أتم صحة . ولكن هذا السرور قد تكدر صفائه ، لانك يا سيدي برغم اعتبارنا لك الصديق الوحيد للافريقيين ، لم تستطع تطوير تصرفك ، لتراعى الحقائق الجديدة في بلادنا » .

وظللت صامتا أفكر فيما يعنيه هذا الفتى ، على حين استمر هو في حديثه : « عندما توقفت هنا ياسيدي في آخر مرة كنا شعبا مستعمرا ، أما الآن يا سيدي فاننا أحرار مستقلون ، كنت فيما مضى لا أعترض على صيغة نداءك . أما الآن يا سيدي فلا أريدك أن تدعوني « ولدا » بل الذي أريده هو أن تدعوني باسمي ، باسمي الشخصي وهو بيوس ، نعم ان الذي أرغبه هو أن أنادى بهذا الاسم دون سواه ، وصدقني يا سيدي اذا قلت لك : ان هذا امتياز اختصاصتك به، أما عند الآخرين الذين لا يعرفونني ولا ينظرون الى مثلك كصديق ، فانني بالطبع « السيد بيوس » . ثم استدار « السيد بيوس » بانحناء صغيرة وانصرف !

والحق أشهد ، لقد شكرت له هذه الموعظة وهذا الدرس ، فقد جنبني الوقوع في خطأ كبير هنا وهناك .

ولذا فقد كنت أوصي دائما بعد نورة يناير الدامية في عام ١٩٥٩ في الكونغو البلجيكي ، باستبعاد لفظة « الولد » مستقبلا ، ولكن الكثير من البلجيكين ظاوا يقولون من باب السخرية « السيد ولد » غير مقدرين الى أي حد قد أهانوا شخصية الافراد بذلك ؟

أخطار الثقافة النصفية

لابد من أبداء ملاحظة صغيرة على نموذج أولئك الافريقيين الذين يسافرون من آن الى آخر الى أوروبا وأمريكا ، للقيام بمهام خاصة بالأحزاب أو النقابات أو الارتباطات الاقتصادية أو لاجراء مشاورات حكومية ، ذلك لأن المرء اذا تعرفهم في افريقية نفسها لا يستطيع أن يضع لهم مفايس طبيعية تختلف في مجملها عن تلك التي يمكن أن نضعها في أوروبا، قالوا احد من هؤلاء في افريقية انسان يختلف عنه تماما في أوروبا .

ولكى يكون الامر أكثر وضوحا ، نستطيع أن نقرأ معا فقرات من التقرير الشخصى الذى كتبه أحد مديري المجلات الاوربية العمومية حيث يقول : « اذا أتى الافريقيون فاني أرى أنه من الافضل لى أن أستقبل ، لأن تصرفات هؤلاء السادة تذهب بأعصابى فمنذ فترة وجيزة كان لدينا الرئيس (. . . .) وعلمنا أنه يشرب الويسكى بشراهة ويدخن نوعا معيننا من السيجار ، فأحضرنا له ثمانية أصناف من الويسكى لكى يختار من بينها ما يشاء ، وعشرين صنفا من السيجار ، الا أنه رفضها جميعا ، ورأيت واجبا على شخصيا من أجل اكرام الضيف الكبير أن أدور فى المدينة باحثا عن الاصناف التى يشتهاها ، وعندما قدم له ما يروقه لم يتفوه حتى بكلمة شكر وانما قال بعجرفة « آه ! أخيرا » .

واذا كانت هذه الصورة قد أصبحت واضحة المعالم ، فاني أود أن أضيف اليها شيئا: فغالبا ما يأتى افريقيون لزيارتى مرتدين أفخر الكياب، وهم دون استثناء مؤدبون ، ولكن فى الحق أن أى واحد منهم يحدث ضوضاء عندما يرتشف الحساء فيمصه مصا ، ولا شك عندى فى وجود أوربيين وافريقيين لا يعرفون الاصول السليمة لتناول الاطعمة وآداب اللياقة للمائدة ، ولكنه يصبح واضحا أن استعمال الملاعق والشوك والسكاكين على مائدة الطعام يعد شيئا جديدا للأغلب الافريقيين !

لقد أبدى أحد ضيوفى عجبه ودهشته عندما تلقى منشفة من الورق الرفيع بدلا من منشفة من قماش التيل ، ولا بد للمرء أن يضيق ذرعا بذلك مثلما حدث من الرئيس الذى أراد بلا قيد ولا شرط نوعه المفضل من الويسكى .

ان السمعة الواضحة فى حديث الاوربيين عن الافريقيين الذين يسافرون فى أية مهمة ، هو التعجب من ثقافتهم النصفية .

جمال عبد الناصر
ضابط بساطة الفريسة
يصنع قاتل العالم

« اننا جميعا نتمتع بالثقة فى مستقبل مشرق سعيد كريم ، نسعى اليه معتمدين على القومية العربية التى نعلنها ، والتى طالما دعونا اليها منذ وقت طويل ، والتى كانت آمالنا معلقة بها ، وسنعمل بعون الله على تدعيم أهدافها وأسسها وسنتعاون مع القوميين العرب والشعوب العربية أينما كانوا ، راجين الله العلى القدير الهداية والتوفيق ، »

جمال عبد الناصر

من خطبته بمناسبة اعلان دستور الجمهورية العربية المتحدة

لقد كان هذا فى يناير من عام ١٩٥٦ بالقاهرة ، عندما أراد الرئيس جمال عبد الناصر اعلان دستور جمهورية مصر الفتية : ففى الصباح حصلت على تصريح لمشاهدة قصر عابدين ، المقر الرسمى والمسكن الخاص للملك المخلوع المنفى فاروق ، المولود بالقاهرة فى ١١/٢/١٩٢٠ ، والذي سمعت عن وصفه من بعض معارفى ما لم أكن أستطيع تصديقه ، مما جعلنى مشوقا لمشاهدته ،

فماذا رأيت بنفسى فى ذلك القصر الملكى ؟ رأيت ركاما بغیضا من منتجات الفن الرخيص ، ومجموعات من التماثيل والحلى العديمة الذوق ، الوضيعة القدر الفنى ، البدائية الطابع ، لا تربط بينها رابطة فنية ، وعلى الاثاث الاملس نقشت رسوم فارغة اللون كثيفة .

أما مكتبته الخاصة فهى مجموعة كبيرة من كتب الجنس والادب الاباحى الرخيص فضلا عما اشتملت عليه من صور تأبأها أبسط قواعد الادب

واللياقة ، ولعل كتب جون جونترو وما يشبهها خير دليل على ما كانت تنطوى عليه نفس ذلك الرجل : فمجموعة كتب ناروق تناول موضوعا واحدا انحصر فى الحلاعة والجنس ، انغمس فى قراءتها رجل بلغ الثانية والثلاثين عندما نزل عن العرش ، بعدما انطبعت حياته بطابع الرجل المستهتر الذى لم يستطع أن يبقى سيرة حياته الداعرة سرا ، والذى لم يكن يستحق أن يكون ملكا على شعب له تاريخه وحضارته ، ولذا فان مصر لم تفقد شيئا بطرد الملك الذى اختفى هو وحاشيته التى عاشت معه على الفساد ، وقد أوضح أنور السادات فى كتابه « مذكرات الثورة المصرية » الكثير عن هذا فى وضوح وجلاء ، فقال : « ان فاروقا قد حصل على الجزء الذى يستحقه ، ولم يكن أى عهد سابق أقرب تعرضا للانقياد من عهد فاروق ، وبرغم تغيير رجال حكومته مرارا ، فان عيشته ظلت قائمة على الفساد ، اذ لم يجرؤ واحد منهم على توجيهه أو حتى التلميح بما يعتمل فى نفس الشعب نحوه من علائم الكراهية والغضب ! »

من خلال العدسة المقربة

حصلت فى الصباح على هذه الانطباعات العينية السلبية ، وكنت بعد الظهر ضيفا على الرئيس عند اعلان الدستور ، حيث اقيم سرادق ضخم بجوار قصر عابدين ، وكان فسيحا ضم آلافا من البشر ، وقد أحيط بالعسكريين ، فلا يدخله الا من يحملون بطاقة معينة ، ولما كان الرئيس جمال عبد الناصر لا يستطيع دعوة شعبه البالغ ٢٣ مليون نسمة للحضور ، فقد دعا وفودا من جميع الطوائف المهنية ، وحصلت أنا بمحض المصادفة الزمنية لانى حضرت مبكرا على مقعد مناسب فى مقصورة ضيوف الشرف ، وكان يجلس الى جوارى مراسل وكالة تاس السوفيتية الذى كان يقطع خطاب الرئيس بصيحات الابتهاج والاعجاب بين آن وآخر . وقد ظهر الرئيس ووزرائه من ممر جانبي ، وكانت الساعة قد بلغت الخامسة مساء ، وهو موعد صلاة المغرب ، ورأيت ناصرا ورفاقه يخلعون الاحذية يصطفون للصلاة ، واستغرق آلاف الناس الذين شهدوا ذلك فى سكون وجلال ، أما أولئك الذين وجدوا مكانا للصلاة على الرغم من ازدحام السرادق ، فقد اشتركوا فى أداء هذه الفريضة .

حقا لقد حركت هذه الصلاة مشاعرى ، ولم أكن أبعد عن ناصر أكثر من أمتار خمسة تقريبا ، وقد تفحصت وجه هذا الانسان المصلى بدقة تامة فكان خاليا من تأثيرات استعراضه للجماهير المجتمعة ، وانما كان معبرا عن ايمانه الخالص فى أثناء أداء صلاة خاشعة خالصة ، واقفا بين يدي الله فى خشوع ، قبل أن يعلن الى شعبه الدستور الجديد .

وفد عقب الرئيس على الدستور بنفسه فاستعرض الماضي ، وألقى نظرة على المستقبل ، وتحدث عما يمكن أن تجنيه مصر اذا سارت على أسس هذا الدستور الثورى والمعروف أن البلاد التى تبلغ مليوناً من الكيلومترات المربعة ، لا يزرع منها سوى خمسة وثلاثين ألف كيلومتر فقط .

وحين رأيت جارى السوفيتى قد وقف بضع مرات لالتقاط بعض الصور الفوتوغرافية لناصر وهو يتحدث من فوق المنصة عن قرب ، فعلت الشيء نفسه بعدما زودت آلة التصوير بالعدسة المقربة ، تيسيراً لالتقاط صور أقرب وضوحاً ، وقد قربت العدسة الوجه من عيني تماماً ، كما لو كنت أنظر اليه من خلال منظار البحرية المقرب وقد أدهشنى ما رأيته فى تلك اللحظات ، فوجه ناصر يعبر أمام عيني الآن عن الصرامة .

فلاح وتاجر وجندى

ان «جمال عبد الناصر» فى حياته الشخصية رجل ودود ، جذاب وعطوف ، وعلى أدب جم، وكثيراً ما يضحك من قلبه فى الاجتماعات العامة، فتتلاً أسنانه البيضاء الجميلة ، ويبدو عندئذ وكأنه نجم سينمائى، وينطوى كيانه على طاقة هائلة من الحيوية ، وقسط كبير من المرونة ، وجانب أكثر من المؤلف من النشاط، ويقولون عنه فى القاهرة: انه « مصبوب من الثلج والنار معا » .

وقد التقيت بالرئيس عبد الناصر فى أثناء حفل استقبال القاهرة ، ودارت بيننا أحاديث قصيرة ، وعلى الرغم من قصر هذه الاحاديث ، فقد استطعت أن أستشف منها عدم ثقته الكاملة بالاوربيين ، وظهر لى جلياً أنه لن يتخلص من عدم ثقته هذه، فبرنامج السياسى كان وما يزال منطلقاً عكس ذلك فهو يبنى دائماً عقد اتفاقات غير مشروطة مع الغرب شأن اتفاقاته مع الشرق تماماً .

ولقد كتبت الصحفية الكاتبة الالمانية « جيزلا بون » فى كتابها « عالم جديد على ضفاف النيل » تقول : « انه من العسير الحكم على هذه الشخصية الفذة » .

وقد حلل شخصيته الكاتب الصحفى بيتر جروبه قائلاً : « انه مزيج من الفلاح والتاجر والجندى ، وأضاف قائلاً : « قبل جمال عبد الناصر كانت الناس تستنكر أغلب الاساليب الحزبية والمبادئ السياسية ، فما عساها أن تقول اليوم؟ انه ليس شيوعياً ولكن الرجل يمكن أن يوثق به، انه مصرى . وبما انه مصرى فهو عربى » .

وهو مزيج من الشخصية والموضوعية ، ولزيادة الايضاح اذكر أن الموضوعية والبرنامج من سمات التاجر في الغالب ، أما الشخصية فعلى النقيض ، لها تأثير مغناطيسى ساحر ، ينبثق من رأس ذكى متوقد ، قال جون جونتير ، الذى امتدح ناصرا وثورته ، والذى وزعت كتبه بكميات ضخمة فى مصر :

« نعم ، ان رئيس هذه الدولة الافريقية الهامة المتقدمة خليط من الفلاح والتاجر والجندي ، ذلك لان أجداده لأبيه كانوا من الفلاحين ، وكان أجداده لأمه يشتغلون بالتجارة ، أما بحرى حياته فقد خلق منه رجلا عسكريا ، وهو شخصا قد أصبح جنديا بكل معانى الكلمة عن اقتناع ذاتى من جانبه كما أوضح ذلك فى كتابه « فلسفة الثورة »

ابن موظف بالبريد

ولد جمال عبد الناصر فى اليوم الخامس عشر من يناير عام ١٩١٨ بمدينة الاسكندرية ، وهو يشير الى أفراد عائلته وأجداده فيقول : انهم أبناء هذه الارض أو أنهم ثمار الارض الطيبة . عاشوا جميعا فى الريف ، وكان معظمهم فلاحين من صغار الزارعين والملاك ، فى محيط قرية « بنى مر » ووالده عبد الناصر حسين ، المولود فى سنة ١٨٨٨ ممن يحسنون القراءة والكتابة ، وكان هذا الوالد شاذًا بالنسبة لأفراد عائلته انفلاحين ، اذ كان موظفا صغيرا بالبريد، بدأ وظيفته فى القاهرة أولا، ثم فى مدينة الاسكندرية؛ وهى أول ميناء للتصدير والاستيراد فى الاقليم المصرى ، ويبلغ عدد سكانها اليوم مليوناً ومائة ألف نسمة ، وقد تزوج فى أثناء عمله بالاسكندرية من ابنة رجل أعمال اسمه محمد حامد وتوفيت الزوجة بعد تسع سنوات من زواجها ، تاركة وراءها ثلاثة أبناء أكبرهم جمال عبد الناصر .

وقد تلقى « جمال عبد الناصر » تعليمه الأول فى الكتاب ، ثم فى مدرسة الاسكندرية الابتدائية ، ثم فى القاهرة حيث انتحق بمدرسة النهضة المصرية الثانوية ، وما زال جمال عبد الناصر فخورا حتى اليوم بأنه « فتى الريف » قد تخرج فى هذه المدرسة بامتياز فى عام ١٩٣٦ ، على الرغم من أنه قد ساهم بقسط فى الآراء والاعمال المعادية لنظام الدولة آن ذاك ، مما كان يمكن أن يعرقل دراسته .

وقد أراد عبد الناصر بعد انتهاء دراسته بالمدرسة الثانوية الالتحاق

بالكلية الحربية ، ولما كان ابن فلاح ولا واسطة له ، علاوة على انه يحمل أفكارا تحررية ثورية ، فقد رفض طلبه بالكلية الحربية فى المرة الأولى ، ولذا فقد درس القانون فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة ، الى ان عرف فجأة حاجة الكلية الحربية الى طلبة جدد ، مما دفع به الى بذل الجهود واعادة المحاولة للالتحاق بها ، ونجحت جهوده ومحاولاته فى هذه المرة ، ودخل الكلية الحربية فى عام ١٩٣٧ وكان عمره وقتئذ تسعة عشرة عاما . وفى سنة ١٩٣٨ أصبح ملازما فى سلاح المشاة .

وبعد اتمام دراسته فى الكلية الحربية ، نقل الى اللواء الثالث « فرسان » بمدينة منقباد بالقرب من مدينة أسيوط ، وفى عام ١٩٣٩ عند اندلاع الحرب العالمية الثانية ، نقلت وحدته الى الإسكندرية ثم الى العلمين ، وأخيرا خدم سنتين فى السودان .

وقد كان عبد الناصر سعيدا عند نقله فى عام ١٩٤٢ الى الكلية الحربية برتبة نقيب . وقد التحق أيضا بكلية أركان الحرب حيث حصل على عدة امتيازات نظرا لتفوقه ، وأخيرا ، من أجل ازاحته عن الطريق ، أعادوه ثانية الى الكلية الحربية ليعمل مدرسا بها .

يمثل دور « قيصر » وهو طالب

وهنا أود أن أقف قليلاً لألقى بعض الضوء على ثقافة عبد الناصر الفكرية ، وأقول : انى لست أول من حاول ذلك ، اذ سبقنى اليه آخرون كما أود البدء بملاحظة عابرة ، هى أنه غالبا مايحدث فى أوروبا وأمريكا أن ننطرق الى السمع معلومات أو ملاحظات غير مهذبة جارحة عن الشرفيين فتسمع مثلا قول البعض ، ألا فلنذهب بعيدا عن تجار السجاد وقائدى الجمال ، وأنا أعد مثل هذه الأقوال أكثر من مجرد الاهانة ، انى اعتبرها افتراء صريحا ، ومهما يكن من الأمر ، فان تفكير أى فرد فى شخصية هذا الابن المنتمى الى عائلة الفلاحين ، وهى العائلة التى جاءت من صعيد مصر يؤدى به الايمان الى أن عبد الناصر قد أعد نفسه لمسئوليات المستقبل بجد ونشاط وطموح، وهذه صفات تنطبق كذلك على كثير من الشخصيات الأخرى التى تناولتها أبواب هذا الكتاب ، وان لم تكن تظهر واضحة كظهورها فى شخصية عبد الناصر .

ولكن نلمس مدى هذا الاستعداد الحارق فى وضوح وجلاء ، يكفى أن نذكر أن جورج فوشيه مؤلف كتاب «عبد الناصر وصحبه» قد لقي عناء كبيرا فى سبيل التيقن من نوع الكتب التى قرأها ناصر ، عندما كان طالبا فى الدراسات العليا ، وعضوا فى هيئة التدريس بالكلية الحربية ، فقد

اتضح له أن ناصرا قد قرأ فى أثناء دراساته معظم الكلاسيكيات العربية والمصرية ، كما قرأ المؤلفات اللازمة لتكوين الثروة الفكرية لطالب أرفع كثيرا بمستواه العقلى عن الطالب المصرى العادى .

هذا بالإضافة الى ماقرأه باللغة الانجليزية فى أثناء دراسته بالكلية الحربية ، مثل مذكرات ونستون تشرشل ، وكتاب أوربا لجون جونتير ، ومؤلفات العلوم العسكرية للبيدل هارد ، وتاريخ حياة أميل لودفيج مؤلف كتاب «النيل» وتاريخ «حياة مصطفى كامل» وجنرال جوردون ونابليون ، والاسنكدر الأكبر ، وبسمارك ، وفوش ، وغاريبا لدى ؛ وهندنبرج ، ولورنس ، ومالبرو ، ومارابورد .

وكذلك قرأ حينما كان نقيبا فى الكلية الحربية بين سنة ١٩٤٣ وسنة ١٩٤٦ كل مجلدات دائرة المعارف البريطانية الاربعة والعشرين تقريبا ، وغيرها من المؤلفات الخاصة برجال الحربين العالميتين الأولى والثانية وكذلك تاريخ حياة كتشنر ، وموسولينى ، وهتلر (لكونراد هايدن) ، ودرس جميع مؤلفات ك . بفنسى ، وقرأ كتباً سياسية لا حصر لها عن مشاكل مصر وافريقية ، وكذلك عن الحرب فى الشرق الاقصى ، وأخيرا مؤلفات أمثال « دال كارنيجى » فى كتابه (كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر فى الناس) .

هذا وقد كان ناصر فى شبابه مولعا بالشعر والمسرح ، وشارك وهو فى السابعة عشرة من عمره بالتمثيل فى احدى المسرحيات المدرسية على مسرح برنتانيا فى يناير سنة ١٩٣٥ بالقاهرة ، فقام فيها بتمثيل الدور الوحيد فى حياته على المسرح ، وهو دور « يوليوس قيصر » .

والآن أعود الى متابعة تاريخ حياة ناصر ، فقد عقد قرانه فى عام ١٩٤٤ بمدينة القاهرة ، وهو أب لبنتين (هدى المولودة فى عام ١٩٤٦ ، ومنى المولودة فى عام ١٩٤٧) ولثلاثة أولاد هم : (خالد المولود فى عام ١٩٤٩ وعبد الحميد المولود فى عام ١٩٥١ ، وعبد الحكيم المولود فى عام ١٩٥٥) ويحب ناصر صوره الفوتوغرافية مع أولاده ولكن من النادر أن تظهر السيدة زوجته فى المجتمع ، كما أنه لا يتحدث عنها مطلقا ، حتى فى دائرة أصدقائه المقربين .

وقد اشترك ناصر فى حرب فلسطين وهو برتبة رائد (١٤ من مايو سنة ١٩٤٨) يوم أعلنت دولة اسرائيل ، ودخلت الجيوش العربية فلسطين فى اليوم التالى للحيلولة دون تقسيم البلاد ، وقد حاولت الأمم المتحدة عبثا أن تضع هدنة ، ذلك لأن روح العداء قد وقفت حائلا دون ذلك ، حتى استطاعت عقد اتفاقية بالهدنة فى أوائل عام ١٩٤٩ بين كل من مصر ولبنان وسورية ، وبين اسرائيل ، وقد جرح ناصر عام ١٩٤٨ فى كتفه

فى أثناء قيامه بحركات استطلاعية ، وأرسل الى مستشفى غزة لمدة شهر .
ولكنه غادره بعد أيام ليلتحق بالقوات المقاتلة فى الفالوجا .

قيام حركة تنظيم الضباط الاحرار

فى أثناء اقامة ناصر فى منقباد معسكرام مع الكتيبة الثالثة «فرسان»
تناقش مع زملائه وتلقى بأفكار صحبه السياسية ، وقد قوى هذا الشعور
المشترك وتزايد باستمرار فى الكلية الحربية وفى جبهة فلسطين . وكتب
أنور السادات فى كتابه « مذكرات الثورة المصرية » يقول : ان نجاحنا
على ما اعتقد تركز فى موقفنا المحدود ، وخاصة فى تضامننا القوى القائم
على أساس من الاخلاص والصدقة ، ولولا هذا التضامن الحالى من وجود أى
خائن أو متردد فى صفوفنا ، ما انبعثت « ثورة ٢٣ يوليه » .

وقد زاد عدد أفراد تنظيماته على ألف ضابط ، ولم يضع اللبنة
الأولى سوى قليل من هؤلاء الضباط ، وقد أطلق هانز بلوهر على الثورة
المصرية « رابطة الرجال » وكان جمال عبد الناصر نفسه هو الذى أسس
رابطة الرجال هذه ، ونظمها وطورها حتى أوصلها الى « تنظيم الضباط
الأحرار » وهى التسمية الواردة فى المؤلفات المصرية الرسمية والتى
يتلخص هدفها فى القضاء على السياسة القديمة ونظام الاقطاع والفساد
فى صفوف الجيش والحكومة ، وكانت تقف موقفا صلبا ضد الاحتلال
الأجنبى وسيطرة رأس المال ، وبعد أن أصبح ناصر مدرسا فى الكلية
الحربية فى عام ١٩٥٠ ، وعقيدا فى مايو عام ١٩٥١ ، اختاره صحبه
رئيسا للضباط الأحرار ، وكان عمره وقتئذ ثلاثة وثلاثين عاما ، ثم أعيد
انتخابه رئيسا بعد ذلك واستمر رئيسا للضباط الأحرار حتى اشتعال
الثورة .

ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢

كان جمال عبد الناصر ولا شك هو الرجل الذى رسم ودبر الثورة،
البيضاء المفاجئة ، « ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ » وكذلك هو الذى طوح
بفاروق الى المنفى وقضى على أسرة محمد على ، وهو الذى أعلن الجمهورية
بعدئذ فى ١٨ من يونيه عام ١٩٥٣ .

وفى البداية كان الثوار قد قدموا مطالب الجيش الى الملك عن طريق

رئيس الوزراء على ماهر ، وكانت هذه المطالب متضمنة الوثيقة التاريخية التي كانت ايدانا ببداية عهد جديد وهي بالنص :

« انه نظرا لما لاقتة البلاد في العهد الأخير من فوضى شاملة عمت جميع مرافق البلاد ، نتيجة سوء تصرفكم وعينكم بالدستور وامتهانكم لازادة الشعب حتى أصبح كل فرد من أفرادة لا يطمئن على حيانه أو ماله أو كرامته » .

ونظرا لأن سمعة مصر بين الشعوب في العالم قد ساءت من نماديكُم في هذا المسلك ، حتى أصبح الخونة والمرشون يجدون في ظلكم الحماية والأمن والثراء الفاحش على حساب الشعب الجائع الفقير .

وقد نجلت آية ذلك في حرب فلسطين وما تبعها من فضائح الأسلحة وما ترنّب عليها من محاكمات ، تعرضت لتدخلكم السافر ، مما أفسد الحقائق وزعزع الثقة في العدالة وساعد الخونة على ترسم هذه الخطى ، فأثرى من أثرى وفجر من فجر ، كيف لا والناس على دين ملوكهم ؟ .

لذلك فقد فوضنى الجيش الممثل لفوة الشعب أن أطلب من جلالتكُم النزول عن العرش لولى عهدكم أحمد نؤاد اليوم السبت السادس والعشرين من يولييه سنة ١٩٥٢ وتغادروا البلاد فى الساعة السادسة من اليوم نفسه . وسيحملكم الجيش كل النتائج المترتبة على رفضكم ارادة الشعب » .

القائد العام للقوات المسلحة

أصبح ناصر بصفته رئيسا للضباط الأحرار سكرتيرا عاما لمجلس النورة ثم نائبا لرئيس الوزراء ، وأخيرا فى ١٧ من أبريل عام ١٩٥٤ رئيسا للوزراء . وكان عمره وقتئذ ستة وثلاثين عاما ، ولذلك كان أصغر رئيس وزراء فى العالم . وفى يونيه عام ١٩٥٦ انتخبه المصريون الذين لهم حق التصويت بنسبة ٩٩ر٩٩ ٪ ، كما جاء فى البلاغ الرسمى رئيسا للجمهورية الجديدة .

ولم يمض شهر على ذلك حتى أعلن ناصر تأميم قناة السويس العالمية شركة مساهمة مصرية ، الأمر الذى أدى الى حرب السويس فى شهرى أكتوبر ونوفمبر من سنة ١٩٥٦ التى كتبت عنها كتيبات التاريخ المصرى الرسمية ، مقررّة أن عبد الناصر ظل منتصرا على الرغم من هجوم القوات الفرنسية والانجليزية والاسرائيلية برا وبحرا وجوا .

وفى أوائل فبراير من عام ١٩٥٨ أعلنت الجمهورية العربية المتحدة عن مصر وسورية ، وفى ٢١ من فبراير من العام نفسه ، انتخب ناصر

رئيسا للجمهورية بنسبة بلغت ٩٩ر٩٩٪ في مصر و ٩٩ر٩٨٪ في سورية من بين مجموع الأصوات ، كما ورد ذلك بالكتيبات التاريخية الرسمية ، وفي ٨ من مارس من سنة ١٩٥٨ انضمت المملكة اليمنية الى الجمهورية العربية المتحدة ، وكونت الدول الثلاث الاتحاد العربي الذي كان مقره « الحديدية » أهم ميناء يمتد على البحر الأحمر .

« فلسفة الثورة »

يرى عبد الناصر في نفسه تجميعا للقومية العربية ، فهو الذي بعثه الله لتحرير جميع الشعوب العربية ، وانه لمن العسير على أي انسان من أبناء الغرب ، أن يفهم أيديولوجية جمال عبد الناصر الذي تركز سياسته العامة في الحياد الايجابي ، ولكنها في الوقت نفسه قائمة على التعاون مع الشرق والغرب .

وقد وضع الرئيس جمال عبد الناصر كتيباً بعنوان « فلسفة الثورة » يعد صورة لشخصية مؤلفه ، ويلقى أضواء قوية على الأسس المختلفة لسياسته .

هذا وقد ذكر عبد الناصر في بداية الكتيب أنه أشبه ما يكون بدورية كشف . « دورية كشف في الميدان الذي نحارب فيه معركتنا الكبرى من أجل تحرير الوطن من كل الأغلال » .

ثم يعود « ناصر » متسائلاً : لماذا كان أمراً حتمياً على الجيش وليس على أية قوة أخرى القيام بالثورة ؟ ويجيب : « لقد آمنت بالجندية طوال حياتي ، وعلى الجندي واجب واحد ، هو أن يذود عن حدود وطنه ويموت في سبيل الدفاع عنه » فلماذا وجد جيشنا نفسه مضطراً للعمل في عاصمة وطنه ، وليس على حدوده .

لم تكن النتائج التي أسفرت عنها حرب فلسطين ، ولا الأسلحة الفاسدة ولا أزمة انتخابات نادي ضباط الجيش ، هي الينابيع الحقيقية التي تفجرت منها الثورة ، فقد كانت هذه كلها أسباباً عارضة كان لها أكبر الأثر في السير قدماً نحو اشعال الثورة ، وقد ساءلنا أنفسنا اذا لم يقوم الجيش بهذا العمل الحاسم فمن ذا الذي يقوم به اذن ؟

لقد كنا نحن الشبيح الذي يبذل به الطاغية أحلام الشعب ، وقد آن الوقت لان يدير هذا الشبيح وجهه الى الطاغية نفسه ، ويبذل أحلامه ويمحو كيانه ، اننا كنا نشعر شعوراً يمتد الى أعماق الروح ، بأن واجبنا « الوحيد » هو أن نقوم نحن بهذا العمل .

وبعد صفحات قليلة يعلن ناصر على أساس هذه الحقائق شعارات الثورة الثلاثة : الاتحاد والنظام والعمل . وقد اتخذ جمال عبد الناصر هذه الشعارات لتكون رائدا للرجل المصرى الجديد ، بل وللرجل العربى أينما وجد .

ثم يعود جمال عبد الناصر ليقول مؤكدا : اننا الآن لانعيش فى ثورة واحدة ، بل فى ثورتين ، لانه لا بد لكل شعب من شعوب الارض أن ينفذ من خلال ثورتين : الأولى ثورة سياسية ، يسترد بها حقه فى حكم نفسه من يد طاغية فرض عليه ، أو من جيش محتل أقام فى أرضه دون رضا منه ، والاخرى ثورة اجتماعية تتصارع فيها الطبقات ثم يستقر الامر فيها على أن يحقق العدالة لابناء الوطن جميعا .

ثورتان

قال جمال عبد الناصر ، عن كل من الثورتين : يتطلب نجاح الثورة السياسية تذويب جميع عناصر الأمة ، وخلق عنصر واحد مترابط متساند ، يدين بنكران الذات فى سبيل وطنه ، وعن الثورة الاجتماعية : ان من أول ظاهراتها زلزلة القيم وتخلخل العقائد ، وتصارع المواطنين مع انفسهم ، أفرادا وطبقات ، وتحكم الفساد والشك . وبين شقى الرحى هذين قدر لنا أن نعيش فى ثورتين : الأولى تحتم علينا أن نتحد ونتحاب ونتفانى فى سبيل الوصول الى الهدف ، والاخرى تفرض علينا ضد ارادتنا ان نتفرق ، وتسودنا البغضاء ولايفكر كل منا الا فى نفسه .

وقد رأى ناصر أن امكانية تحاشي الصراع تركز فى الجيش وحده ، كان الموقف يتطلب أن تتقدم قوة يحيط بأفرادها اطار واحد ، يبعد عنهم الى حد ما صراع الأفراد والطبقات وأن تجمع الثقة الكاملة بينهم ، وأن تكون فى يدها من عناصر القوة المادية ما يكفل لها عملا سريعا حاسما ، ولم تكن هذه الشروط تنطبق الا على الجيش وحده .

وفى الفصل الثالث من كتابه « فاسفة الثورة » يقول عن « عناصر قوته » : ان أول مصادرها يرتكز فى اننا مجموعة من الشعوب المتجاورة المرتبطة بكل رباط مادى ومعنوى وروحى ، يمكن أن يربط بين مجموعة من الشعوب ، ذلك لأن لشعوبنا خصائص ومقومات وحضارة : اتبعث فى بيئتنا الأديان السماوية الثلاثة ، ولا يمكن بحال اغفالها فى بناء عالم حر سليم يسوده الاستقرار .

أما المصدر الثانى لقوتنا فهو أرضنا نفسها وموقعها على خريطة العالم ، ذلك الموقع الاستراتيجى الهام الذى يعتبر بحق ملتقى طرق العالم التجارية والمدنية وممر جيوشه .

يبقى مصدر القوة الثالث ، وهو البترول الذى يعتبر عصب الحياة المادية للمدنية ، والذى بدونهُ يستحيل توافر أدواتها ، فالمصالح الكبرى الهائلة لجميع أنواع الانتاج ، وكذلك وسائل المواصلات فى البر والبحر والجو ، الى جانب أسلحة الحرب سواء فى ذلك الطائرات المحلقة فوق السحب أو الغواصات المستترة تحت طبقات أمواج البحار ، تصبح هذه كلها هياكل من حديد يعاوها الصدا مجردة من الحركة والحياة بدونهُ .

هذا وقد قرر المجلس الاقتصادى لجامعة الدول العربية فى مايو سنة ١٩٦٠ بالقاهرة انشاء سوق عربية مشتركة بضغط من ناصر . وقد شكلت لجنة خاصة من دول الجامعة . لاتخاذ اجراءات على مراحل لتحقيق الغاية من انشاء هذه السوق العربية المشتركة .

ناصر الافريقى

لا يمكن أن ننظر فى جمود ودون اهتمام الى خريطة العالم ، ذلك لأننا ملزمون بادراك حقيقة موقعنا على هذه الخريطة ، والدور الذى خصنا به هذا المكان ، كما اننا لا يمكننا أن نتغاضى مثلاً عن حقيقة واضحة ، هى أننا محاطون بدائرة عربية ، هى جزء منا ونحن جزء منها ، امتزج تاريخنا بتاريخها واندمجت مصالحنا بمصالحها ، وهذه حقائق راسخة وأيسر مجرد كلام أجوف .

هذا الى جانب أننا لا يمكن أن نتجاهل وجود قارة افريقية شاء القدر أن وضعنا فيها ، كما شاء لها أن تكون اليوم فى صراع مروع من أجل مستقبلها ، وهو صراع يمس كياننا سواء أردنا أم لم نرد ، فهل من سبيل الى تجاهل هذه الحقائق ؟

وهل من سبيل الى غض النظر عن وجود عالم اسلامى تربطنا به روابط العقيدة الدينية كما تربطنا به حقائق التاريخ وأحداثه ؟

وإذا وجهنا انتباهنا الى القارة الافريقية ، فانى أريد القول فى وضوح ودون اسهاب : اننا لن نستطيع بحال حتى اذا شئنا أن نقف بمعزل عن الصراع الدامى الرهيب الذى يجرى اليوم فى هذه القارة

بين خمسة ملايين من البيض ومائتي مليون من الافريقيين ، لن نستطيع الوقوف بمعزل عن هذا الصراع ، لسبب هام بسيط هو اننا في افريقية ، وستظل شعوب هذه القارة جميعا تتطلع اليها نحن حارسى مدخلها الشمالى وعصب اتصالها بالعالم الخارجى كله ، ولن نستطيع بحال التخلّى عن مسئولياتنا فى المعاونة بكن ما نستطيع من الوسائل ، على نشر انور والمدنية حتى اعماق الغابة العذراء .

الملايين تؤمن بناصر

وهنا نتساءل : هل اسم « جمال عبد الناصر » قد انطلق من مصر الى افريقية ؟ . وهل شعوب اخرى فى هذه القارة ترى فيه الزعيم المنتظر ؟

عائنا ان نجيب فى وضوح ودقة : ففى الحق اننا لا نرى صورته فى الأسواق الليبية والواحات والمدن المراكشية بجوار صور ملوكها فحسب ، بل نراها كذلك فى السنغال وغانا والكونغو ، وقد وجدت صورته فى احدى سيارات الاجرة بمدينة « داکار » وحينما سألت سائق السيارة عن صاحب هذه الصورة اجابنى بقوله : انها صورة « جمال عبد الناصر » رئيسنا نحن ايضا !

وحدث فى اثناء زيارة « ناصر » الرسمية للهند فى مارس سنة ١٩٦٠ ان دعا الرئيس الهندى « براساد » الضيف المصرى على اعتباره رمز احياء العانم العربى ، ولا يعتبر « ناصر » فى الحقيقة معقد آمان ملايين العرب فحسب بل انه معقد آمال ملايين الافريقيين ، فضلا عن انه حاز اعجاب المسلمين الذين يتطلعون اليه اليوم كزعيم للعالم الاسلامى كله بلا منازع .

وقد اصدر « ناصر » امره بالاسراع فى تنظيم مؤتمر الشعوب الاسلامية ، ومن الجدير بالذكر ان هذه الفكرة سبق ان نوقشت اول مرة فى الدوائر الدينية السورية ، حوالى عام ١٩٤٧ . وذلك انه ينبغى على الحجاج المسافرين سنويا الى مكة اصدار تصريحات سياسية باسم جميع مسلمى العالم ، يؤيدون فيها حق الشعوب التى ما زالت مستعمرة فى الاستقلال .

وقد وضعت الحكومة السعودية عدة مشروعات لاعادة بناء الاحياء السكنية المحيطة بالكعبة المقدسة فى مكة ، على اعتبارها مكان مولد الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) والمركز الدينى للاسلام ، وذلك

لكى يتمكن أكثر من نصف مليون حاج من الاجتماع فى وقت واحد للصلاة الجامعة .

وقد بدأت الاعمال التمهيدية فى سنة ١٩٥٦ على أن تنتهى فى سنة ١٩٦٢ ، ونفقات البناء التى قدرت مبدئيا بما يقرب من مائة مليون مارك ، لم تدفعها الملكة السعودية وحدها ، بل ساهمت معها فيها البلدان الاسلامية الأخرى .

وأصدر « ناصر » أمره بإنشاء وظيفة ملحق دينى فى جميع البعثات الدبلوماسية الخارجية للجمهورية العربية المتحدة ، تكون واجباته توثيق عقود الزواج ، كما يكون اماما وواعظا للمصلين فى الاماكن الاسلامية ، والرد على نشرات الدعاية المغرضة ضد الاسلام ، هذا وقد افتتحت مكاتب اسلامية فى ألمانيا وانجلترا والسويد وإيطاليا وسويسرا والولايات المتحدة الأمريكية .

وكتب « ناصر » فى الصفحات الأخيرة من كتابه « فلسفة الثورة » لقد زاد ايمانى بمدى الفاعلية الايجابية التى يمكن أن تترتب على تقوية الروابط الاسلامية بين جميع المسلمين ، أيام ذهبت الى المملكة السعودية مع بعثة الحج المصرية ، فما ان وقفت أمام الكعبة ، حتى أحسست بخواطرى تطوف بكل ناحية من نواحي العالم التى وصل اليها الاسلام ، وواتنى فكرة تغيير نظرتنا الى الحج ، فلا ينبغى اعتبار الحج الى بيت الله الحرام تصريرا بدخول الجنة بعد عمر مديد ، أو وسيلة لشراء الففران بعد حياة آثمة ، بل ينبغى أن يتمكن كل قادة الدول الاسلامية ورجال الراى فيها وعلمائها فى جميع نواحي المعرفة ، وكتابها وأرباب الصناعة فيها ، ورجال الأعمال والتجار واشباب من الحضور الى هذا المؤتمر ، ليضعوا فى هذا البرلمان الاسلامى العالمى خطوطا عريضة للسياسة الوطنية لبلادهم ، وتعاونها معا من سنة الى أخرى .

وهكذا ينبغى أن يلتقوا خاشعين ضعفاء بين يدى الله ، ولكنهم أقوياء متجردين من المطامع الشخصية ، أشداء فى نضالهم مع مشاكلهم ، وضد أعدائهم ، تواقين فى شغف الى حياة أفضل ، مؤمنين بأن لهم مكانا تحت الشمس يتعين عليهم شغله والتمسك به فى هذه الحياة .

وحين أجول بأفكارى فى أحوال الثمانين مليونا من المسلمين فى اندونيسيا ، والخمسين مليونا فى الصين ، وعدة الملايين فى الملايو وبورما ، وما يقرب من مائة المليون فى الباكستان ، وأكثر من مائة المليون فى منطقة الشرق الأوسط ، والأربعين مليونا داخل الاتحاد السوفيتى ، وكذا جميع المسلمين الآخرين المنتشرين فى أرض الله الواسعة ، أقول عند ما

أفكر في هذه المسات من الملايين الذين تربط بينهم عقيدة واحدة .
يستولى على احساس عميق بالامكانيات الهائلة التي يمكن أن يحققها
تعاون هؤلاء المسلمين جميعا .

القومية العربية والحياد الايجابي

كتب « ناصر » عن القومية العربية قائلا : انى عربى دخلت الثورة
المصرية بوصفى عربيا وطنيا مخلصا ، ان القومية العربية بالنسبة الى ،
تعنى أشياء كثيرة : منها الدافع الروحى ، ومنها التضامن انحر المنطلق
لجميع الشعوب العربية ، القائم على رباط مشترك من اللغة والحضارة
والتاريخ ، فهو شعور تابع من القلب ، تابع من الماضى العربى الذى
يمكن اليوم أن يجنب للعرب فوائد عملية جمة ، فالتضامن العسكرى
والتعاون المدنى والادارى فى الاقتصاد والثقافة والسياسة الخارجية ،
لا بد أن يدعم كيان الامة العربية .

وقال عن فكرة الحياد الايجابى : « ان بعض الناس يجدون صعوبة
فى فهم سياستنا الحيادية الايجابية . يحاول الآخرون تحطيمها عن
طريق المناورة والمداورة ، اننى أختى كل ارتباط بأية كتلة خارجية ،
ذلك لانى أعرف تاريخ العرب ونفسية الشعوب العربية . فقد اعتاد
العرب منذ عدة قرون أن ينظروا الى حكوماتهم فى خوف وريبة ، على
اعتبارهم عملاء للدول الاجنبية ، وكحكومات تتلقى توجيهاتها من السفراء
الاجانب .

هذا بالاضافة الى أنى أعلم أن المشاركة فى أى حلف خارجى تضعف
عناصر قوميتنا ، وتنتهى بدفع الشعب اما الى الشيوعية واما الى الجماعات
المتعصبة كالاخوان المسلمين مثلا ، واذا كان هناك لزوم لقيام أحلاف
دفاعية من العالم العربى يجب أن تشكل هذه الاحلاف الدفاعية من البلاد
العربية نفسها .

وهناك سبب اضطرارى آخر لمعارضتى ارتباط الدول العربية بأية
دولة من الدول الكبرى : ذلك لان مثل هذا الارتباط لو حدث ، فانه
يفتح الابواب أمام الدولة الكبيرة ، مما يترتب عليه تمكينها من فرض
سياستها وعودة الاستعمار والاحتلال الى البلاد العربية .

ان السبب فى فقدان الثقة فى الغرب يرجع الى العوامل المستمرة ،
التي خلفتها الحركات الكثيرة المعادية للاحتلال والاستعمار ، الى حد
أصبح معه الاحتلال والاستعمار صفة مرادفة للغرب ، ولذا فانه ينبغى

على المرء في الغرب أن يفهم ذلك وأن يقاوم هذه الفكرة مهما تكن الحال . أكثر تعصبا ، اذ أن الامر لا يدور حول مشكلة تخص الافريقيين من جانب ، والاوربيين والامريكيين من جانب آخر ، وانما هي مشكلة تفصل بين افريقية كلها وآسيا كلها والشرق الاوسط جميعه ، وبين الغرب .

وقد صرح رينيه حبشى وهو فيلسوف لبنانى فى بيروت فى أحد مؤلفاته بقوله :

« ان بيننا وبين الغرب هوة سحيقة أكثر عمقا مما تبدو نتيجة تصدع بين سياسيينا فى موقفهم وبين الغرب ، وليس هذا التصدع سياسيا فحسب بل انه حضارى وتاريخى » .

وهذه الاقوال تكمل تصريحات « عبد الناصر » فيما يتعلق بالقومية العربية والحياد الايجابى . ان كليهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به ، فالعرب يفكرون فى قيمهم التاريخية والحضارية ويؤمنون بأنه لا يوجد طريق آخر للخروج من مأزق الشك ، سوى الرجوع الى المنابع الفكرية التى منها انبعثت حضارتهم والتى استطاعوا أن يخلقوا منها شيئا جديدا .

وكل هذا الضوء الجلى يثبت أن « جمال عبد الناصر » ليس فرعون النيل الجديد كما يقولون وانما هو محقق لمهمة تاريخية أكبر .

الحبيب بورقايه
رئيس و مفسر و مقرر

لقد ارتوت أرض تونس بدماء المـعـارك التي اشتعلت هنا على مر
السنين والقرون حيث وقف الغرب الروماني والجرماني والشرق البوذي
والاسلامي وجها لوجه ثم اندمجوا في دولة جديدة ، واليوم في هذا
العالم الذي يبحث الناس فيه عن الوفاق ، تقدم تونس نفسها كأرض
للمصداقة والتوفيق بين الافراد والديانات والشعوب .

« الحبيب بورقيبة »

في المعبر الى وسط افريقية . في تونس توقفت في الثامن
والعشرين من يناير عام ١٩٥٦ ، وفي هذه المدينة أحسست بجو غيبي
غامض يحيط بي بضعة أيام . اذ ردا على استفساري عن امكانية التحدث
الى الرئيس الجديد لجمهورية تونس الفتية قيل لي : ان الرئيس مع
الاسف مثقل جدا في هذه اللحظة بأعمال ملحة ولذا واصلت المحاولات
المستمرة للاتصال بالرئيس عن طريق أصدقاء مشتركين .

سيارة جيب مسلحة

وأخيرا في صباح الثامن والعشرين من يناير أخبرت تليفونيا بأنه
ينبغي علي أن أكون على أهبة الاستعداد خلال نصف ساعة للسفر الى
الدكتور بورقيبة .

وبعد انقضاء نصف ساعة تماما من المخابرة التليفونية توقفت أمام
ممر الفندق عربية جيب قديمة قفز منها تونسى فى جلياب أسود واندفع
تجاهى سائلا اياى : هل أنا كذا وكذا ؟ وبعد لحظة كنا نجوس خلال
عدة شوارع الى الضاحية بلفيدير .

وأمام فيلا بيضاء اللون يحوم حولها رجال مسلحون هنا وهناك ،
بوقفنا ، وخلال حجرات مختلفة ينتشر فيها رجال مسلحون يحملون
البنادق أو المدافع السريعة الطلقات قادنى رجل ما ، وأخيرا وصلت الى
حجرة مزدانة جدرانها بالموزايكو ومؤبة بمقاعد ذات وسائد ، وفى
وسطها منضدة صغيرة وأمرت بالانتظار فيها ، وأمام الحواجز الحديدية
المنبثة على النوافذ انتابنى شعور غامض ، أحسست كما لو كنت
سجيناً ، وهنا دخل الرئيس الدكتور الحبيب بورقيبة مرتدياً حلة زرقاء
أنيقة ، فحيانى بحرارة ، وعقد معى محادثة طيبة وبدأنا الحديث كأصدقاء
قدامى ، وخلال الحديث عرف بورقيبة شيئاً عن رحلتى الطويلة فرجاني
أن أمدّه بدقائقها بقدر الامكان . عجباً! لقد أتيت لاستجوابه فاستجوبنى
هو !

انقضت نحو ساعات ثلاث تهيأت بعدها للانصراف ولكنه قال لى :
انه يجب أن نتناول معا وجبة خفيفة ، ثم صفق بيديه فظهر بعض الرجال
الذين امرهم باعداد الطعام ، وبعد لحظات تكومت أمامنا الفطائر
التونسية والكسكسى وازدحم جو الحجرة برائحة الفلفل والبهارات
الفواحة وعند الانتهاء من الطعام قدمت الفاكهة وبعدها القهوة .

وقد تشعب حديثنا فى موضوعات شتى ، وتكلمنا فى سياسة
أوربا وأحداث ما بعد الحرب وأحوال الشباب ومن خلال الحديث
المتشعب كان تحيزه للغرب ظاهراً ومناهضته للشيوعية نغمة واضحة ،

وما أن انتهينا من تناول القهوة حتى ظهرت سيدة أكثر منه
بياضاً ، ظننت لأول وهلة أنها امرأة فرنسية وأكد الرئيس بورقيبة ظنى
حين قال بالفرنسية هذه زوجتى ، ولم تمكث ماتيلدا بورقيبة سوى
وقت قصير ، فقصدت كانت تريد أن تعرف : كيف حال زوجها ، كما
قالت هى ؟

وفجأة ضحك الجميع

أحسست بالتعب بعض الشيء على اثر تلك المحادثة الطويلة مع هذه
الشخصية الديناميكية فنهضت شاكرًا له متأهبًا للانصراف وهنا ظهر

بعض الرجال المسلحين وبدعوا وكانهم ينقلون الى الرئيس خبرا هاما ،
وفجأة ضحك الجميع ، وبعدها وقف الحبيب بورقيبة وشد على يدي
بكلتا يديه وسكر لي زيارتي ، ثم سألني هل لدى نسخة من كتابه
« تونس وفرنسا » ؟ فأجبت بالنفي فأحضر الكتاب وكتب على أولى
صفحاته الاهداء التالي :

الى السيد / رولف اتاليندر تذكرا لقائنا في تونس مع عطى
وتمنياتي .

بورقيبة

وبينما كان يحرق تاريخ الاهداء (١٩٦٢/٢/٢٨) قال لي : « ان
هذا اليوم يوم تاريخي » وعند الباب حيث اصطحبني بورقيبة « قال وهو
يضحك وقد أمسك بذراعي في حماسة « حينما تكتب عني عليك أن
تذكر أنك قابلتني وأنا في أطيب صحة وأسعد حال .

وفي الفندق حينما أصبحت وحدي ، جلست محاولا التأليف بين
أجزاء هذه الزيارة التي كنت أنظر اليها نظرة أخرى ، وفي نسيج واحد
بغية تفهم الاسباب الكامنة وراء هذا المشهد الأخير ، الذي أثار ضحك
بورقيبة والذي عدته منفصلا عن مشاهد الزيارة ، ولكني لم أفجح الا في
المساء حيث علمت من مقابلتني مع المندوب السامي الفرنسي أن ثمة حالة
متوقدة ، وأخيرا سألت بعض معارفي من موظفي القوميسارية : هل
ثمة شيء في الجو ؟ وعندئذ تطلع الى الصديق كما لو كنت رجلا هبط من
القمر وبدا كما لو كان يشك في أنني ما زلت أجهل أن السكرتير العام
لحزب الرئيس (الحزب الدستوري الجديد) هو صالح بن يوسف الذي
أصدر حكمه بالموت على الرئيس بورقيبة ، كما شمل الحكم بعض
المحيطين به ، وان أسوأ ما في الامر أن « صالح بن يوسف » قد استطاع
الفرار (١) .

وسألت كيف حال الرئيس فأجابني الرجل : انه غاضب واثار ،
لا بد أنه يقاسي انهيارا عصبيا ، ان زيارتك له لا شيء فيها على الاطلاق ،

(١) فر صالح بن يوسف الى القاهرة حيث فضي مدة ثم اغتيل في ألمانيا . ويقال:
ان لبورقيبة ضلعا كبيرا في مقتله . فقد كانت العلاقات بينه وبين القاهرة حسنة في هذا
الوقت . على حين كان صالح بن يوسف حذر الزاوية في تكبرها . فانتهر هذه الفرصة
للتخلص منه حتى لا تتكلم القاهرة .

فقلت : لقد أمضيت معه معظم اليوم تقريبا ، وكان يبسود عليه الهدوء والارتياح ، وقد خضنا معا حديثا في موضوعات شتى .

وبعد ذلك بأيام اتضحت الامور أكثر ، فقد علمت أن الرئيس تعتمد احضار واحد من الاجانب المحايدين ليكون شاهدا محايدا يقر أن حالة الرئيس كانت طيبة في ذلك اليوم المعتكر .

الوالد كان ضابطا لدى الباي

يبلغ تعداد تونس أربعة ملايين نسمة يقتسمون ١٨٠ر١٢٥ كم وقد احتلها الفرنسيون طبقا لمعاهدة حماية قصر السيد في ١٢ من مارس عام ١٨٨١ ، وقد كرس الحبيب بورقيبة حياته لتحرير وطنه من هذه الحماية .

ولد الحبيب في ٣ من أغسطس سنة ١٩٠٣ في مونستر بتونس . وكان أصغر ثمانية أخوة منهم ستة من الذكور وفتاتان ، وكان أبوه ضابطا في جيش الباي الصغير ، وينتسب الرئيس بورقيبة الى الطبقة المتوسطة ، ويمتاز سكان منطقة الصـحراء حيث ينتمى بورقيبة بالجد والذكاء .

ونظرا لذكائه ومهنة أبيه فقد ارتقى سريعا الى الطبقة العليا ، ولكنه كان على اتصال شخصي بالفلاحين والعمال ، وقد قال لي بنفسه : « لقد كان هذا محمدا لمعالم حياتي ، ذلك لاني ركزت اهتمامي على جميع الطبقات ولم أترف على الاطلاق بأى فوارق طبقية » وتهمني أحوال الناس جميعا .

عاش أخوه الأكبر في تونس العاصمة (٤١٠٠٠ نسمة) وتزوج وأخذ معه الحبيب سنوات واهتم بتربيته ، فبعث به للالتحاق باحدى المدارس الثانوية ثم الـليسية وفي أثناء دراسته مرض مرضا شديدا أجبره على التخلف عن المدرسة بضع سنين وأرسل الى منطقة كيف للاستجمام ، واستطاع في سن الحادية والعشرين الحصول على شهادة البكالوريا في سنة ١٩٢٤ ، هذا بالإضافة الى حصوله على دبلوم في اللغة العربية وآدابها .

ووافق الوالد على ارسال الفتى الشاب الى باريس للدراسة في السوربون ، وهناك قرر الفتى دراسة القانون كما درس في كلية العلوم

السياسية وقد قال لي في هذا الصدد : « انها معجزة ، لقد درست العلوم السياسية ولكن ذلك لم يكن عبثا » .

وقد تزوج وهو ما يزال طالبا ، له من العمر ثلاثة وعشرون عاما ، ويمكن نعليل موقفه الودي من الفرنسيين بزواجه احدى الفرنسيات المسيحيات التي سرعان ما أنجبت له أبنا هو ذلك الذي عين في باريس مسقط رأسه كأول سفير لجمهورية تونس حيث أطلق عليه والده « سفير الوفاق » وقد اعتنق الزوجة الاسلام بعد اثنين وعشرين عاما من الزواج .

وعاد بورقيبة الى تونس في عام ١٩٢٧ حائزا لاجازة الدكتوراه بعد سنين نلات من الدراسة في باريس ، وفيد نفسه في سجل المحامين ، وسرعان ما كون له عملاء ولكنه لم يستمر في الاستغال بالمحاماة ، اذ سرعان ما أغرته السياسة التي كانت اجتذبتة منذ كان طالبا في كلية « صدهي » حيث انخرط في الدوائر السياسية وألقى خطبا نارية ضد الاستعمار نالته من ورائها كراهية المدرسين الفرنسيين له . وحدث في أثناء وجوده بالليسيه أن أغلقت الجريدة الوطنية « الحق » وكانت محبوبة من الطلبة وفي سبيل الاحتجاج على اغلاقها انضم بورقيبة الى الحزب الدستوري الحر ، حيث أرسل الى المقيم العام لوسيان ساينيت برقية احتجاج .

وفي عام ١٩٣٠ دخل معترك الحياة السياسية العامة للمرة الاولى وهو محام ، فكتب لجريدة الحزب الدستوري « صوت تونس » مقالات افتتاحية .

ومن تاريخ حياة الرئيس الرسمي الذي أصدره مكتب الاستعلامات، استطعت أن أعرف أنه لم يمكث طويلا في محيط الحزب الدستوري القديم لانه رأى فيه حزبا للبروجوازيين الذين لم تكن السياسة لديهم سوى مادة للاحاديث المسلية ، ولم يتخذها عقيدة مكانها القلب أو الروح . وهكذا لم يسنطع الحزب الدستوري القديم أن يتفق مع المشاعر المشتعلة ولا الافكار الاخاذة التي ازدحم بها وجدان بورقيبة وعقله فاتجه هذا الشاب المكافح الذي أحس بتماسك روح الشعب والذي كانت لديه صورة واضحة جلية عن أزمة هذا الشعب الى تأييد الشعب للمساهمة في السياسة ، وكان طموحا نحو انضمام جماهير العمال والفلاحين الى صفوف حزب كبير .

وفي عام ١٩٣٣ ترك بورقيبة وبعض أنصاره « جريدة » صوت تونس ، لتأسيس جريدة العمل التونسية التي أصبح طريقها مميذا في ألع الاوساط . كان تفكير بورقيبة يتجه الى العمل السياسي الممثل

للشعب النابع منه والمتجه نحو مصالحه ، وبذلك تمكن من تعبئة الشعب عن طريق الافكار القوية التى بثها كما نظم فى جميع أنحاء البلاد الوعى المتجه الى العدالة والحرية السياسية الصحيحة .

تأسيس الحزب الدستورى الجديد

وفى الاول من مارس من عام ١٩٣٤ عقد مؤتمر أعضاء الحزب الدستورى المبارك فى قصر هلال بتونس ، وفى هذا المؤتمر تقرر تأسيس حزب جديد هو « الحزب الدستورى » الحر الجديد ، وشغل بورقيبة منصب « السكرتير العام » .

وقد أسس هذا الحزب الحر الدستورى الجديد تشكيلات محلية فى جميع البلاد أصبحت ذات نشاط فعال بعد أشهر قليلة ، حتى ان المقيم العام وممثل الحماية مسيو بيرلو خشى نشوب ثورة عاجلة ، فألقى القبض على بورقيبة ومعاونيه فى سبتمبر من عام ١٩٣٤ ، وتم نفيهم الى الجنوب الاقصى من الصحراء التونسية فى بوردى لا بوف ، ومع هذا لم يتأثر الحزب الدستورى الاصيل من جراء ذلك ، بل لقد حدث العكس تماما ، فان بورقيبة أصبح رمزا للوطنية فى الكفاح ضد السلطات الحاكمة فى نظر الشعب التونسى .

ومن المعتاد فى المستعمرات والمحيطات الافريقية أن يصبح أى سياسى رئيسا للوزراء بصورة مؤكدة ، بعد ما يتم القبض عليه وارساله الى المنفى وهذه العبارة تصدق على بورقيبة تماما . ذلك لانه فى ابريل من عام ١٩٣٥ قد أقيـل بيرلو وعين خلفا له جويلون مقيما عاما ، فأطلق سراح المنفيين فى بوردى لا بوف ودخل معهم فى مفاوضات وفى هذه الأثناء تولت الجبهة الشعبية الحكم فى فرنسا .

وفى أغسطس من عام ١٩٣٦ أجرى الوزير فينوت اتصالات مع بورقيبة ، وبدأت سياسة التعاون الفرنسى التونسى ، واستقبل بورقيبة مرتين فى كواى دى أودسا ، ولكن سرعان ما فشلت جميع جهود التفاهم فى (كايم) وهذا راجع الى جهود القوى الرجعية فى كل من فرنسا وتونس .

وكانت الشهور من ابريل الى مايو عام ١٩٣٨ هى ذروة الاضرابات التى اشتعل أوارها بعد أزمة المباحثات فى كل أنحاء تونس ، واعتبر بورقيبة ورفاقه الثمانية والعشرون مسئولين عن هذه الاضرابات ووقفوا جميعا أمام محكمة عسكرية فرنسية متهمين بالخيانة وتهديد أمن الدولة ،

وقد ظلت القضية منظورة أمام القضاء أشهرا طويلا ، حتى تشوب الحرب العالمية الثانية في ٢٩ من أغسطس عام ١٩٣٩ : ففي الخامس والعشرين من مايو عام ١٩٤٠ أرسل المتهم بورقيبة الى قلعة سانت تيلولوس في مرسيليا ، وهناك ظل سجيناً حتى ١٨ من نوفمبر من عام ١٩٤٢ .

وبعد احتلال القوات الالمانية للمنطقة التي كانت لا تزال غير محتلة من فرنسا حتى ذلك الوقت ، أرسل المساجين الى سجن (مونت لوك) في ليون ، ثم أخيراً الى سجن فانسيا في ديمبارتمنت آين ، وفي الثامن من يناير عام ١٩٤٣ أطلقت حكومة فيشي سراح بورقيبة وأرسل الى روما في اليوم التالي ، لاعتقاد الفرنسيين في امكانية تجنب استنساء جمهرة الشعب .

وفي روما فتحت الحكومة الفاشستية له ذراعيها معتقدة أنه من الممكن كسبه الى جانب مصلحة ايطاليا الاستعمارية ، اذ كانت الجالية الايطالية في تونس تعاني في ذلك الوقت من الاضرار التي ألحقها بها الفرنسيون بضغطهم المستمر عليها ، فاعتقدوا أنه يمكنهم الآن القيام مع بورقيبة بعمل مشترك ضد الفرنسيين ، وقد لاقت هذه الفكرة قبولا ازاء توجيه بورقيبة النقد المستمر لسياسة فرنسا في تونس بحيث لم يدع هذا النقد مجالا للشك في أن بورقيبة ليس بحاجة الى المزيد من التحريض ، الا أن بورقيبة كان على النقيض من ذلك فقد كان يصرح في دائرة أصدقائه بأنه لا ينتظر من ايطاليا الموسولينية شيئا بل انه كذلك لا يؤمن بانتصار دول المحور .

وفي سجن سانت نيقولاس في الثامن من أغسطس عام ١٩٤٢ أخذ بورقيبة يتقرب من صديقه الدكتور تنهور مدير جريدة « افريقية الفتاة » الذي نصحه هو الآخر بأن يصرف النظر عن تأييد المحور ، لانه لا بد ملاق حثفه ، وعلى أية حال فقد رأى بورقيبة وزملاؤه أن من الحكمة عدم الانحياز الى احدي الكفتين وتحاشي التعليق بشيء على أي الجانبين سينتصر .

العودة الى الوطن في أثناء

الحرب العالمية الثانية

في الثامن من أبريل عام ١٩٤٣ استطاع بورقيبة العودة الى الوطن وبعد انقضاء خمس سنوات على اعتقاله ، وقد استقبله الشعب باعجاب ورحبت به الدعاية الالمانية ، وقدمت له القيادة الالمانية

العليا طائفة للقيام برحلة الى ألمانيا (١) ، ولكن بورقيبة فضل أن يظل متواريا عن الأنظار حتى جلاء الألمان ، وبعدئذ قام باتصالات مع الحركة السرية وكذا مع عملاء الحلفاء ، وفي السابع من مايو نشر نداء على الشعب التونسي لمصلحة الحلفاء اقترح فيه اقتراحات ببناء لاعادة بناء البلاد والعالم أجمع ماديا ومعنويا .

ووقفت السلطات الفرنسية ضده من جديد ، واتخذ المقيم العام جيون من النداء مادة لاتهام بورقيبة ، ولكنه صرف النظر عن المحاكمة بناء على اتصال القنصل العام للولايات المتحدة ، وقد ظل بورقيبة تحت الحراسة بعد ذلك .

ولعلنا نلاحظ هنا تشابها مع تونس بالنسبة لمراكش ، فقد تلقى الملك محمد الخامس بعد الحرب العالمية الثانية تأييدا خاصا من جانب الولايات المتحدة ، وقد أدى تسجيل التاريخ الحديث الى نشر جميع الوثائق التي ظهر منها الى أي مدى عملت الولايات المتحدة على استقلال تونس ومراكش على أساس القضاء على الاستعمار فيهما وكيف أن التحالف العربي والصداقة الأمريكية الفرنسية اللذين كانا قد وصلوا الى درجة عالية من السمعة في الحرب العالمية الثانية تقلصا بالتأكيد من جراء ذلك .

وأخيرا أصبح بورقيبة رجلا خالصا وليس زعيم حزب ، ذلك أن الحزب الدستوري الجديد ظل ممنوعا من مزاوله نشاطه ، وعلى الرغم من ذلك فقد دارت مناقشات استشارية بين الرجال القياديين لما يمكن عمله في المستقبل ، وقام بورقيبة باتصالات مع جنرال ناست (المقيم العام الفرنسي الجديد) للمرة الثانية تلقى بورقيبة تعظيما غير قاطع بشأن استقلال تونس في المستقبل ، وبذا قرر بورقيبة استعراض أصدقائه الأمناء الذين يستطيع أن يعتمد عليهم ولم يرتكن بحال على المشاعر الحارة التي تستند على ركيزة فارغة .

وهكذا ترك تونس سرا في ٢٦ من مارس عام ١٩٤٥ وطاف خلال السنوات الأربع أو تزيد بجميع دول الشرق الأوسط مبتدئا بمصر لدراسة دساتيرها وللعباية بتبادل الأفكار فيها مع السياسيين العرب .

وفي ٨ من سبتمبر عام ١٩٤٩ عاد الى تونس ليضع خبراته التي اكتسبها موضع التنفيذ ، واستقبله الشعب استقبال المنتصر حتى الباي الذي كان واضح التعاون مع الفرنسيين سياسيا اذ دعاه الى قصره في (كارتاجو) ...

(١) احتلت قوات الحملة الألمانية الافريقية تونس في ٣ من مايو عام ١٩٤٢ .

وفي ٢١ من أبريل من عام ١٩٥٠ سافر بورقيبة الى باريس متجها الى الرأي العام الفرنسي ، عارضا برنامجا للحكم في سبع نقاط ، وأخيرا وجد أذانا مصغية من جميع الاحزاب الفرنسية ، وفي هذه الاثناء أصبح بيرالير مقيما عاما وروبيرت شومان رئيسا للوزراء في فرنسا ، وأعلنت حكومة شومان أولى خطواتها نحو استقلال تونس استقلالا داخليا ، وأعلن بورقيبة باسم حزبه أنه مستعد للمشاركة في أول حكومة تونسية والى أن حان الوقت لذلك كانت قد انقضت شهور عدة عرف بورقيبة كيف يستغلها فسافر الى آسيا والولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا وكسب عطف هذ البلاد وتأييدها لقضية تونس ، ثم عاد الى وطنه ودعا الحزب الدستوري الجديد الممنوع من مزاوله أى نشاط الى عقد مؤتمر عام ، على الرغم من منع المقيم العام « دى هاوتك كلو » فلم يمهله الفرنسيون ليستطيعوا القضاء على انبثاق تونس الطيبة هذه . ولذلك انتهزوا هذه الفرصة وقاموا باعتقاله في ١٥ من يناير من عام ١٩٥٢ مرة أخرى ونقل الى طبرق ، وفي نهاية مارس جاءوا به الى سجن ريماتا في جنوبي تونس . وأخيرا اعتقل في جزيرة لاجالوت طوال عامين في طقس مفرع وعزلة شاملة كما روى ذلك بنفسه .

وفي عام ١٩٥٤ رحل الى جزيرة جروكسى الفرنسية ومن هناك حول الى سجن اميلي ، وأخيرا الى باريس حيث عاش تحت حراسة بوليسية دائمة .

لقد دفع قليل من الساسة ورجال الدول الافريقية ثمنا غاليا من أجل الحرية ، وذلك بنضالهم في سبيلها شأن المحامي التونسي دكتور الحبيب بورقيبة .

وقد « مآلته : كيف استطعت احتمال كل هذه المصاعب نفسيا وجسديا ؟ وكيف استطعت التوفيق بينها وبين زواجك من فرنسية وتربيتك وثقافتك الفرنسيتين واعجابك بالروح الفرنسية ؟ فأجابني « نعم .. ان المشاق والمهانة والخضوع ، كل هذه أشياء فوق طاقة البشر ، ولكنني لو لم ألتحق بالعمل المستمر ما أصبحت شيئا ، ان ايماني لم يتزعزع ولذا فقد استطعت اجتياز جميع هذه الامتحانات المروعة .

الاستقلال الذاتى وتأسيس الجمهورية

فى ٢١ من يوليو من عام ١٩٥٤ أقرت المعاهدة التى وضعتها حكومة شومان فى باريس منح تونس الاستقلال الداخلى وإعلان إنشاء دونه تونس ، فابهم بعض الوطنيين بورقيبة بسبب استعداده للموافقة على ذلك ، لأن هذا البعض كان يريد الاستقلال التام عن فرنسا ، وأن المتحدث باسم هذا البعض هو « صالح بن يوسف » سكرتير الحزب الدستورى الجديد الذى أصدر حكمه بالموت على بورقيبة فى يناير عام ١٩٥٦ .

وهددت البلاد بأشتعال حرب أهلية يضرم نازها الشيوعيون ، وهنا منحت الحكومة الفرنسية بورقيبة حرية التصرف الكامل لأنه يتمتع بثقة الجميع ، وهذا الى جانب نفوذه الشخصى واليه يرجع الفضل فى هدوء الموقف واستقراره .

فما ان عاد الدكتور بورقيبة الى تونس حتى أفهم التونسيين أن الاستقلال الذاتى هو الخطوة الحاسمة نحو الاستقلال الكامل ، والواقع أن معاهدة الاستقلال وقعت فى العاشر من مارس عام ١٩٥٦ واستطاع بورقيبة تشكيل أول حكومة لتونس المستقلة .

وأنشأ كأول رئيس وزراء لتونس المستقلة بالتعاون مع حكومته جميع الاقسام الهامة لاجهزة الدولة من أجل تقسيم العمل السياسى والاقتصادى والاجتماعى والتربوى والتعليمى وإنشاء جيش ونظام دبلوماسى .

وحصل الحزب الدستورى الجديد على أغلبية ساحقة من الاصوات فى أول انتخابات برلمانية للبلاد وهزم الشيوعيين هزيمة ساحقة .

وكانت تونس وما زالت حتى ذلك الوقت ملكية ، وكان باى تونس « سيدى محمد الامين » شخصية حيوية لكنها ضعيفة فهو رجل يهتم بالكيمياء والفلك ولكنه على جانب ضئيل من الثقافة ، وكان بورقيبة يعرف أن القوى الخبيثة استطاعت أن تحيط بالبائى ، تلك القوى التى كانت تهدف فى الوقت نفسه الى القضاء على الحزب الدستورى الجديد . فحضر ضربه التى فرقت شمل الاقطاعيين بإعلان الجمعية التشريعية إلغاء الملكية وإنشاء الجمهورية التونسية فى ٢٥ من يوليو من عام ١٩٥٧

وقد احتفظ بورقيبة بمنصبه كرئيس للوزراء وأصبح فى الوقت

نفسه أول رئيس للجمهورية ولا يمكن أى فرد فى تونس أن يدهش من ذلك فانه أنشأ تونس المستقلة ومنح التونسيين تونسيتهم وأعادها لهم مع الكرامة والعزة وهو يعنى ببذل جهده الآن لايقاظ الشعور بالمسئولية لديهم .

البورقيبزم

أوجد الدكتور بورقيبة مخططا سياسيا كان وليد الظروف النفسية القاسية التى مر بها فى المنفى والمعتقلات والسجون الكثيرة ، ذلك المخطط الذى يشار اليه بالبورقيبزم (البورقيبية) . فما البورقيبية هذه ؟

ان التعريف الرسمى لها يقول : « ينبغى أن تعامل عدو اليوم دون أن تنسى أنه ينبغى أن يصبح صديق الغد ، فاذا قطعت الاتصالات حينما ما فينبغى أن يبذل المرء مجهودا شـفويا بالاتصال الشخصى لاعادة استئناسها ، ولا ينبغى استخدام القوة الا فى الحالات الاضطرارية ويجب بناء الدولة على أساس القضاء على القومية وتوجيه النضال التحررى تبعاً لمبادئ ايدلوجية وروحية معينة وألا يتحول هدف هذا النضال عن مبدأ الاستقلال ، وينبغى الانتباه الى خطواته المختلفة مع مواصلة جميع التسويات الهامة وساعة احراز النصر كما يجب التعاون بحرية ، مع سريان جميع المنازعات الماضية . هذه هى التيارات الخاصة للثورة التونسية ، وقد أطلق بورقيبة على هذا المخطط اسم « البورقيبزم » ولقد حازت البلاد التقدير عن طريق أهدافها الواضحة أكثر من وسائلها الأخرى (١) .

ان الحبيب بورقيبة ليس ثائرا ولا مصلحا فحسب ، بل انه مشرع ومفسر أيضا ، وهو بالاضافة الى ذلك متعصب ولكنه رجل له مزاياه فهو يقدر الصداقة أكثر مما يقدر العداة واحدى ميزاته الخاصة فكرة الانبثاق المتوثب ، والبورقيبية هذه تشهد بذلك ، وهو ينفذها بدقة ، فقد قطع العلاقات مع فرنسا بعد خضوع طويل .

وبورقيبة غريب فى كثير مما يصدر عنه أيضا ، فقد أراد أن يوحد الشمال الافريقى على أساس عربى ذلك الاتحاد الذى يفتح للصناعة ورأس المال الاوربيين ثروات شمالية افريقية والصحراء ، وقد اتخذ بورقيبة موقفا حاسما ضد الشيوعية وفى ذلك اليوم « التاريخى » الذى تحدثنا فيه معا ذكر لى كيف كانت بلاده صغيرة وفقيرة وشعبها تافه الهدف

(١) ص ٦١ . تونس وفرنسا - بورقيبة .

والغاية ، ولكنها كانت مع ذلك كبيرة بمكانتها الجغرافي في قلب دول البحر المتوسط غنية بمقومات الحياة وآمال التقدم ، قال بورقيبة :

ان موقعها بين غربي أوروبا وشمالى افريقية وآسيا الصغرى قد أعطى تونس حقوقا وفرض عليها واجبات ، اننا سنكون أناسا طبيي النيات نقدم باخلاص مساعداتنا المادية والروحية ، واننا نبغى احلال الوفاق بين العالمين العربى والغربى محل الفرقة . وبالنسبة للعلاقات مع فرنسا سألت بورقيبة عن الحال بالنسبة للعلاقات الفرنسية التونسية ، فأجاب قائلا :

« نحن لسنا تابعين لفرنسا ولا نحمل كرها لها وهى التى طالما ظللنا تحت وصايتها ، والذي نبغىه هو أن تكون صديقة لنا ونحن نؤمن بالعدالة ، ونريد أن نسلك طريقنا بأية من الوسائل المناسبة بالتعقل والاقناع أو بالسلاح . هذا وقد حاولت حكومة الحبيب بورقيبة أن تسير على هذا المنوال فى السنين الاخيرة على الرغم من السلسلة الطويلة من خيبة الامل التى خبرتها . »

وسأله عن الازمة الاقتصادية التى اشتدت حدتها منذ المناداة بالاستقلال ، فأجاب قائلا : لقد خفف من حدة الازمة الاقتصادية الفرحة بنيل الاستقلال ، ولكننا يجب أن نستعد لوضع حد لها ، ولذا فمن الواجب أن نكرس كل امكانياتنا بل وجميع تقاليدنا المألوفة فى سبيل ازالة الازمة الاقتصادية .

ويشعر المرء فى حضرة الحبيب بورقيبة أنه من معدن الرجال القلائل الذين يرغبون فى ادماج التقاليد الاوربية بالتقاليد الافريقية الاصلية .

وهكذا استطاع بورقيبة أن يكون محور الارتكاز منحصرا فى العلاقات الافريقية الاوربية !

وعلى أية حال يمكن القول بأن لدى بورقيبة الرغبة فى ذلك فموقفه كان شبيها بموقف كثير من رجال الدول الافريقية الحديثين ، ولكنه يرتكن الى افريقية . غير أنه لا يجوز أن يؤخذ عليه ذلك فقد قال : « طالما لم يوجد حل للنزاع الجزائرى بعد فسيتأثر الزعماء الوطنيون فى العالم العربى بمجرى الحوادث » .

وفى كتابه « تونس وفرنسا » وقفت عند صفحة معنونة بكلمة مأثورة حيث يقول :

عندما أفضل التسامح على الضعف فانى أفضل عنهما كثيرا الحرية عن طريق القوة لانها أفضل من التسامح مع العبودية .

هيا لاسلاسى الاول
فى اول خطاب لى الى شعبه عام ١٩٣٠

ملك مطلق السلطات على عرش داوود

بارتقائي مقعد داوود الذي توجت عليه ، آرادني أن أحرسكم
بمعونة الرب أيها التجار فلتخطوا بأعمالكم التجارية نحو التقدم ، وأنتم
أيها الفلاحون احرثوا وازرعوا فأنى سأحكمكم طبقا للقانون والعادات
التي ورثتها عن الاجداد .

هياسلاسي الأول

في أول خطاب له الى شعبه عام ١٩٣٠

عندما كنت طالبا أمضيت فترة طويلة من حياتي في « جنيف »
أعمل في مكتبة عصبة الأمم . في هذا الوقت سقطت مجموعة من أهم
مقاعد عصبة الأمم ، وفي صيف ١٩٣٦ دخل على رجل خجول انطوائي في
معطف متواضع يبدو عليه الجد . اسمر اللون ولكنه ذو نظرة حادة ،
ولحية كثة . يمتد شاربته من أعلى الشفتين حتى جانبي الذقن ثم يلتقي
ثانية عند أسفل الفك رأيتته وقد حمل مظلة كبيرة لمطر مفتوحة فكان
يبدو لي كما لو كان هذا الرجل الضئيل الجسم انبساط المظهر مختفيا
تحتها ولم يكن هذا الرجل سوى امبراطور أثيوبيا الهارب من بلاده .

ورأيت القيصر فيما بعد في عاصمته « أديس أبابا » (أربعمئة ألفه
نسمة) بعد انقضاء عشرين عاما منذ رأيتته في المرة الاولى ، لقد تقدم

الرجل في السن ولكنه ظل على نشاطه القديم بل زاد عنادا وقسوة .
لقد تغير كلية عما كان عليه في المنفى (بجنيف) : ففي أوروبا كان من
السهل التحدث اليه بالفرنسية أو الانجليزية مباشرة ، أما هنا في اثيوبيا
(مساحتها ٣٢٠ر١٨٤ كم وتعدادها ٢٠ مليون نسمة) فيعد هذا
أمرا غير مرغوب فيه . اذ على المرء أن يوجه الاسئلة الى ياوره الذي
يترجمها الى الامهرية فيجيب القيصر بالامهرية ومن ثم يترجم الياور
الاجابة الى الانجليزية أو الفرنسية وهذا تغير له معناه اذ أن ذلك يتيح
له أن يكسب الوقت للروية والتفكير في الاجابة « وهذا ما تأكد لي في
أديس أبابا » .

وآخر أوامر القيصر أن ينحني الاثيوبيون والدبلوماسيون الاجانب
أمامه بشدة ، أما السيدات فالواجب يقضى عليهن أداء انحناءة أشد من
الانحناءات التقليدية أمامه ، ولا يجوز لأى فرد أن يدير ظهره للملك
وكثيرا ما يحيط رئيس انتشريفات أولئك الذين يحظون بمقابلة خاصة
معه بقواعد البلاط الاثيوبى .

« حاكم منذ أربعة عشر عاما »

بعد محمد الخامس وأدريس الاول لدينا هنا رئيس دولة نشأ
من بيت ملكى يمتلك عرشا من أعرق الغروش فى تاريخ العالم أحيا به
ذكرى ملوك التوار « كسليمان وداوود » وهكذا لا يعد قيصر اثيوبيا
رجلا جديدا فى افريقية انه فى هذا الكتاب يتخذ مكانه تحت لواء
المصلحين من أمثال كل من أميرى مراکش وليبيا ، ولقد شيد دعائم
العرش عن طريق ارتباط نسبته بالملك (سليمان) وملكة سبأ « ميكيدا »
وهما اللذان أشير الى قصة حبهما فى كتاب « كبرانجاست » (٩٨٠
ق م) عن طريق ميلاد ابن مينليك الاول أوداود ، وبدأت ذرية سليمان
تنمو وريدا ، ومنذ ذلك الوقت تربع حفدة مينليك داوود على عرش
اثيوبيا ، وباستثناء الفترة من عام ٩٢٧ م الى عام ١٢٧٠ م يعتبر الحاكم
رقم ٢٢٥ للعرش السلیمانى والحاكم رقم ٦٦ من حفدة مينليك داوود .
فقد تم استرداد العرش فى القرن الثالث عشر الميلادى .

وتعتبر اثيوبيا نفسها اقدم بلد مسيحى على الارض ، فقد دخلت
المسيحية اثيوبيا فى القرن الثالث الميلادى ولم تنتشر فيها عن طريق
المبشرين كما كانت الحال فى البلاد الافريقية الاخرى ولم تخضع اثيوبيا
خلال سنوات تاريخها اطويل للسيادة الاجنبية سوى سنوات خمس

وهي فترة الاحتلال الإيطالي ، وكانت على العكس من الدول الأفريقية الأخرى فلم تخضع للحماية أو الاستعمار .

وفي ٢٣ من يولية من عام ١٨٩٢ ولد القيصر الحالي في مدينة « ادجرسو » في اقليم « هرر » وأطلق عليه اسم « ليتافاري ماكونن » وكان والد الامير (ماكونن ابن عم القيصر « مينليك » الثاني والجنرال المخلص له وحفيد الملك ساھلي سيلاسي ، ماتت أمه (أمبيت ياشي) ولما يبلغ الطفل ثلاثة أشهر ، ودخل عندما بلغ الخامسة من عمره مدرسة الارسالية الكاثوليكية في هرر .

وفي عامه السابع بدأ تعلم اللغة الفرنسية ثم الانجليزية وسمع القيصر مينليك عن عبقرية الطفل الفذ ، وكان ذلك سببا في احضاره الى اديس أبابا وهو في العاشرة من عمره للالتحاق بمدرسة مينليك وهي مدرسة عالية لاهنة الطبقة الارستقراطية ، وعند بلوغه الرابعة عشرة من عمره عين حاكما لمدينة « جرامولاتا » باقليم هرر ثم حاكما لمدينة « سسلابي » باقليم شوا وأخيرا حاكما « لباسو » ، وكان أكبر الاقاليم التي عهد اليه بها القيصر هو اقليم « سيدامو »

وفي عام ١٩١٠ أصبح رئيسا لحكومة اقليم هرر ومنح لقب ديديا سماخ تافاري ماكونين « وفي ٣٠ من يولية عام ١٩١٢ تزوج الاميرة « منين » حفيدة ميخائيل فون فالو ، وأثمر الزواج أطفالا ستة ما زال علي قيد الحياة منهم ولدان وبنت واحدة .

وحدث ان عزل الامير هيلاسلاسي عن اقليم هرر نتيجة المكاييد السياسية ولكنه استعاد حب القيصر له عن طريق صفاته الكاملة (كما جاء في أحد التقارير الرسمية) وبعد وفاة مينليك الثاني في ١٢ من ديسمبر عام ١٩١٣ أصبح أحد حفدته وهو « ليدش ياسو » قيصرا ولكنه اعتنق الاسلام مما أدى الى نشوب ثورة دامية في القصر . تلك التي تدخلت فيها الكنيسة الاثيوبية وكذلك انجلترا وفرنسا وانتهت بعزل « ليدش » في عام ١٩١٧ وتولت واحدة من بنات (مينليك) اشاني تبعات العرش . ولكن هذه القيصرة (تساوديتو) كانت عجوزا ضعيفة ، ولهذا فقد أصبح حاكم هرر وصيا وريثا للعرش ، وقد زكاه لتولي هذا المنصب عوامل ثلاثة : أولها نسبه القيصري ، ثانيها الكنيسة ، وثالثها الضباط المخلصون .

وبهذا كله استطاع التغلب على جميع المكاييد الواقفة في طريقه ، كما استطاع أن يتحول الى شخصية قيادية .

العلاقات الخارجية وأعمال الإصلاح

عندما أصبح هيلاسلاسى وريثا للعرش بذل جهودا ضخمة ناجحة لعقد صلات دولية في مصلحة اثيوبيا : ففي عام ١٩٢٣ استطاع ان يكسب حق العضوية لاثيوبيا في عصبة الامم على الرغم من معارضة سويسرا والنرويج وبريطانيا واستراليا ، بدعوى تخلف هذا البلد . وفي هذه الفترة قام القيصر بأولى رحلاته الكبرى التي طاف خلالها ببريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا واليونان ومصر والشرق الأدنى .

ومن لمحات ذكائه انه قد اصطحب معه في هذه الرحلة معارضيه ، حتى يأمن كيدهم في أثناء غيابه ، وبعد أن اكتسب مكانة عالية في الخارج بدأ يقوم باصلاحات أساسية في اثيوبيا تنفيذا لبرنامج حديث ، وفي أثناء حياة القيصر « تشاوديتو » كان قرناؤه يتطلعون اليه على انه انقيصر المنتظر ، وأخيرا توج في أكتوبر عام ١٩٢٨ ، وفي العام نفسه عقد معاهدة سلام مع إيطاليا ، وبعد وفاة القيصر « تشاوديتو » في ١٢ من أبريل عام ١٩٣٠ أعلن نفسه قيصرا (ملك الملوك الاسد المنتصر) من سلالة يهوذا .

(والمختار من الرب وتسمى باسم (هيلاسلاسى) وهي كلمة تعني الإرادة والقوة ولقب القيصر راجع الى الكلمة الأمهرية (ملك الملوك) . وهي تطابق في ايران ملك الملوك (شاهنشاه)

وفي ١٦ من يوليو ١٩٣١ منح القيصر هيلاسلاسى أمته أول دستور مكتوب جاء في مقدمته أنه ليس مطالب فئة من الشعب ، ولكنه منبثق من رغبته السامية . ويتميز هذا الدستور بأن سلطة الأمراء فوق سلطة البرلمان المكون من مجلسين ، وفوق ما تقدم يخول لأمراء سلطة إدارة مدينة كالتى يعرفها المرء في الغرب الا أن ذلك لم يوضع موضع التنفيذ في اثيوبيا .

وفي اليوبيل الخامس والعشرين لارتقاء القيصر العرش في نوفمبر عام ١٩٥٥ أعلن دستورا جديدا معتدلا . وعلى أية حال ، فقد كرس نفسه لاتمام تشييد المباني التعليمية التربوية والصحية ، فشيدت المدارس ومارس المدرسون مرانهم والاطباء عملهم ، واستدعى القيصر الخبراء الفنيين وخبراء التخطيط الاجانب من سويديين وسويسريين وهولنديين وانجليز وأمريكيين وبلجيكيين وفرنسيين وألمان الى البلاد .

وهكذا يعمل البيض في اثيوبيا في خدمة الافريقيين لا العكس
كالحال في اغلب بلدان القارة .

وبدأت اثيوبيا في التطور الى دولة حديثة بقيادة قيصرها منذ اكثر
من ربع قرن .

الحرب الاثيوبية الايطالية الثانية

حلت الوصية الجديدة عندما ، أعلن « بينيتو موسوليني » الحرب
على الامبراطورية الاثيوبية في أكتوبر عام ١٩٣٥ ، فقد زحفت جيوشه
الى اثيوبيا ، لاقى انتقام تآري للهزيمة التي لحقت بايطاليا في الحرب
الايطالية الاثيوبية الاولى ، فقد انهزم الايطاليون في الاول من مارس عام
١٨٩٦ عند « عدوه » هزيمة ساحقة .

فجاءوا اليوم لهزيمة البلاد واحتلالها وما أن تم لهم ذلك حتى
هرب القيصر في ٣٠ من أبريل من عام ١٩٣٦ فحل أول الأمر بالقدس
(اورشليم) ثم حاول أن يستقر في سويسرا أو فرنسا ولكن ولاءه لبلاده
أبى عليه ذلك ، فذهب الى سويسرا حيث كانت اثيوبيا عضوا في عصبة
الأمم وعرض شكواه على تلك العصبة .

وقد خلف القيصر في جنيف أثرا ممتازا وراءه ، اذ أبرق من
القدس (اورشليم) الى سكرتارية عصبة الأمم ، يطالب بأن تواصل
عصبة الأمم جهودها لتأكيد احترام نصوص الميثاق الذي لا يعترف
بالفوزات المفاجئة ، أو ضغط سلطة متعجرفة قامت باستخدام اقوة
المسلحة مخالفة القانون ضاربة بالتعهدات الدولية عرض الحائط ، وقد
لقى خطابا بنفسه في عصبة الأمم في ٢٩ من يونيو عام ١٩٣٦ بداه كما
يلي :

« أنا هيلاسلاسي الاول امبراطور اثيوبيا ، أقف اليوم هنسا ،
لأطالب بالعدالة الدولية ، التي يحمل شسعي وزرها ، كما اطالب
بالمساعدة الموعودة من خمس وعشرين دولة منذ ثمانية أشهر ، وهي
الدول التي قبلت ان تساعدنا ، ذلك لأن خرق المعاهدات الدولية يشكل
بداية لعدوان شامل » .

ولكن عصبة الأمم تنكرت له ولم تعر قوله اهتماما .

وقد قال (كريستين ساند فورد) في مؤلفه تاريخ حياة هيلاسلاسي .
كانت أحداث السنوات التالية لذلك سيئة للغاية ، فقد اعترف أعضاء

عصبة الأمم ، الواحد تلو الآخر ، بضغط من إيطاليا والمانيا اللتين انضمت اليهما النمسا والمجر وسويسرا بسيادة إيطاليا على إثيوبيا .

وقد علق المؤرخ الانجليزى الشهير « ارنولد توينبى » فى كتابه « احياء الشئون الدولية » فى عام ١٩٣٥ على ما حدث قائلا : ان الملحمة التى تحمل بين طياتها مأساة التاريخ الدولى التى سيتناول ذكرها هذا الكتاب انما هى عبارة عن سلسلة من الذنوب والأخطاء ، بحيث اذا ما أردنا ان نضع المشتركين فى اثمها مرتين وفقا لأهميتهم ، فاننا سنجد ان أولئك الذين نصبوا انفسهم لتمثيل الحضارة الغربية وحمل اوائها ، قد قاموا بأكثر الادوار جلبا للحزن ، أما الدور الاول فيها ، فقد قام به الامبراطور هيلاسلاسى نفسه .

وبعد ما باءت جهود الامبراطور بانفشل فى عصبة الامم ذهب الى المنفى فى انجلترا وانطوت أعماق روحه على خيبة الأمل . وهناك عاش كرجل خاص فى (كينسينجتون) أولا ، ثم فى (باث) ثانيا ، وفى تلك الاثناء لم يكن يتطرق الى فكره انه يستطيع العودة الى بلاده فى يوم أبدا ، ولكن سرعان ما ساعدته نتائج الحرب العالمية الثانية على نيل أمنيته : ففي عام ١٩٤٠ (وعده) ونستون تشرشل (بإعادة تحرير بلاده ، ومكت هيلاسلاسى مدة طويلة فى مصر ، ثم أقام فى الخرطوم وبعد خمسة اعوام من هروبه عاد الى اثيوبيا فى ٥ من مايو عام ١٩٤١ .

وفى « أديس ابابا » توقف موكبه على رأس المحاربين من الوحدات البريطانية والهندية التى زحفت من السودان الى اثيوبيا .

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية استطاع القيصر ان يضع مخططة الاصلاحى موضع تنفيذ ، ذلك المخطط الذى لا يسلم من المعارضة ، ولا يستطيع أحد سوى الاثيوبيين انفسهم الحكم على مدى صلاحيته ، ولكنهم كما يسمع المرء فى جميع دوائر العاصمة ، يخشون بطء القيصر فى كل مكان ، وهو الرجل صاحب الشخصية المعقدة التى لا يوثق بها ، هذا ولا يوجد قطاع من قطاعات الحياة العامة يعمل مستقلا بصورة واقعية قانونية دون تدخل من جانب الامبراطور ، ذلك لأن هيلاسلاسى يحكم بلاده حكما اوتوقراطيا وقد اشار ، « جون جونتير » الى ذلك بقوله « ان اثيوبيا يحكمها رجل واحد مندفع يستخدم كل امكانياته العملية فى الحكم فهو يقبض على أزمة الادارة كما لو كانت بلاده مدرسة للحضانة يقوم هو فيها بدور المدير ! »

قسوة واجتهاد

لا ينكر أحد أن الامبراطور رجل صالح يجهد نفسه لتشكيل حياة مسيحية نموذجية ، فهو يبدأ عمله كل يوم بالصلاة ، ويزور الكنيسة بانتظام ، ملتزما اقامة الأعياد والاحتفالات المسيحية ، ويعتبر الامبراطور مدافعا عن العقيدة الدينية ، والراعى للكنيسة الاثيوبية على اعتبارها جزءا من الحكومة .

وتخضع مرافق الكنيسة لعنايته الخاصة ، ومن المميزات الأخرى لشخصيته التواضع والصبر وقوة الاحتمال .

ويقوم الامبراطور والامبراطورة في قصر « جونتى ليول » ويقوم على خدمتهما مجموعة مكونة من أكثر من خادم وخادمة . ومن المعروف أن الامبراطور والامبراطورة يعيشان حياة زوجية سعيدة ، وأن الامبراطور أب وجد بار بأبنائه وحفدته ، وأحب الاوقات الى نفسه هي التي يقضيها في اللعب مع حفدته وحفيداته .

ومن الناحية التربوية تعتبر وسائل تربية الشباب في نظر الامبراطور الضمان الأكيد لحياة أفضل ، ولذلك فان وسائل الثقافة تتمتع لديه دائما بالأولوية من بين جميع المشروعات التي تخدم رخاء أثيوبيا . ليس ثمة تقدم حقيقى أو وصول للرفاهية دون ثقافة ، فالثقافة عنده هي التي تمكن الانسان من تشكيل حياة مشتركة تقوم الاخلاق وتعلم احترام القانون .

وقد اعتاد هيلاسلاسى النهوض مبكرا في الساعة السادسة ، ويبدأ يومه بتناول كوب من عصير الفاكهة ، ذلك لأنه نصف نباتى ، وبعد أداء الصلاة في ركن سانت مرقص يذهب لتناول افطاره مع الامبراطورة ، وهذا الافطار يعد الوجبة الرئيسية بالنسبة اليه ، اذ لا يهتم بعد ذلك بالوجبات الأخرى ، ومن التاسعة صباحا يبدأ موظفوه في الحضور تباعا، وينجز أعماله في مكتبه ، حيث يقيم معظم وقت النهار .

وغالبا ما تعقد لديه اجتماعات مجالس البلاط الذي يترأسه الامبراطور نفسه ، ويتكون هذا المجلس من أمراء العائلة الامبراطورية ، وأغلب النبلاء ، وبعض أعضاء مجلس الوزراء . أما وقته بعد الظهر فيحتفظ به للزوار الاجانب أو للنزهات .

ويقوم الامبراطور بنفسه بالتفيش على المدارس والمستشفيات وغيرها من المرافق ، وله شغف شديد بالاشراف على جميع الشئون في القصر ، حتى تلك الشئون التي ليست من اختصاصه في شيء ، هذا ما علمته من بعض المحيطين به .

وفي كل ليلة يعرض شريط سينمائي أمام الامبراطور وله ولع بالقراءة قبل ان يأوى الى فراشه بعد منتصف الليل ، وكثيرا ما يسافر مع افراد عائلته الى أحد منازل الريفية في عطلة نهاية الاسبوع ، وهو يحب التجديف وركوب الخيل ، ويشارك أحيانا في الصيد ، وقد أدى للرياضة في أثيوبيا خدمات جليلة . وهو يحس بالشباب دائما كلما زاول الرياضة ، وقد كتبت كريستينا ساندفورد زوجة أحد مستشاري الامبراطور العسكريين لسنوات طويلة ، « أن المرء ليتوق دائما الى أن يتذرع الشعب الاثيوبي بصبر امبراطوره الطويل ، وينسج على منواله في قوة احتماله الفائقة وجدده المستمر وإيمانه الثابت ، فهو بقوة عقله وثرائه الفكرى يقف حائلا دون انهيار شعبه . »

العائلة الامبراطورية

في اديس ابابا يمتلك أبناء الامبراطور فيلاتهم الخاصة بهم ، وقد ولد ولي العهد ووارثه صاحب السمو الامبراطور ميرد ازمات أصفا واصن في ١٣ من يوليو عام ١٩١٦ وتلقى تعليمه في أثيوبيا ثم في انجلترا، وللأمير ابن يدعى الأمير « سيرى يعقوب أصفا واصن » ، أما الابن الثاني للامبراطور فهو الأمير ماكنونن أمير هرر فقد ولد في ١٦ من أكتوبر عام ١٩٢٣ وتوفي في حادث سيارة في يوم ١٢ من مايو عام ١٩٥٧ خلفا أبناء خمسة من بينهم ولده الأكبر الأمير واصن سيجود ماكنونن الذي عين أميرا لهرر أيضا وهكذا توورت اماره هرر التي أسسها الجد الأكبر للأمير ماكنونن واستمرت في حوزة جده هيلاسلاسى الاول ثم أبيه الأمير كاكنونن .

أما الابن الثالث للامبراطور فهو الأمير صاهلى هيلاسلاسى المولود في ٢٧ من فبراير عام ١٩٣١ وقد تعلم في كلية ولنجتون ثم في جامعة كمبردج بانجلترا وتزوج في عام ١٩٥٩ وزيرت محاسنتى وهي ابنة متبناه للأمير ميصفين زيلش ، وأما الابنة الاولى للزوجين الامبراطوريين فهي الابنة الوحيدة التي مازالت على قيد الحياة واسمها تناجس وورك هيلاسلاسى ، وهي مازالت تعيش في اديس ابابا منذ ثلاث سنوات ، وتزوجت قبل الحرب الأسى دامتو الذى كان من أشجع المحاربين في البلاد حتى قتله الايطاليون عام ١٩٣٧ ، وللأمير ولدان وبنات أربع منهم الاميرة دوث ديستا التي اصطحبها مع أمها جدها الامبراطور في زيارته الرسمية للاتحاد السوفييتى واليابان وبورما والهند .

والاميرة عايده ديستا الابنة الكبرى للاميرة تنجانجا ورك تزوجت

وزير الاشغال العامة والمواصلات واسمه ديديار مانش مانجاشا سيوم
ابن الامير سيوم مانجيردا ، وأنجبا خمسة أطفال وقد أنجبت ابنة ولى
العهد الاميرة اندياجيهو لجلالة الامبراطور حفيدتين ، كل هذا على
حسب ما جاء بدفاتر الميلاد الرسمية .

التمسك بالقانون

انه يكاد يكون من المستحيل فى اديس أبابا أن تحصل بنفسك على
صورة مقربة عن الامبراطور هيلاسلاسى ، الذى هو واحد من بقايا الحكام
المطلقين فى عالمنا ، ذلك لانه قد بذل جهودا ناجحة بفضل ثقافته الشاملة
وتصميمه على الخروج بشعبه من ظلام العصور الوسطى الى حياة تتفق مع
مطالب القرن العشرين بإلغاء تجارة الرقيق لأول مرة فى عام ١٩٤٤ .

وتتميز أنيوبيا اليوم بالتقدم على أساس من المدنية والثقافة
الغريبتين فى جميع الميادين ، واذا كانت ما تزال حتى اليوم موجات
بربرية فى بعض الاقاليم ، فان هذا لا يدعو الى الحديث ضد الامبراطور
وذلك لان أعمال الاصلاح فى أثيوبيا تركز على الوصول بالشعب جميعه
الى حال صالحة ، حتى أولئك الذين يقيمون بعيدا عن العاصمة ، كالحال
فى جميع البلدان الافريقية الاخرى .

والمأساة الكبرى لهذا البلد أن معظم النابيين الاثيوبيين على وجه
التقريب قد قتلوا ابان الحرب الايطالية وفترة الاحتلال مما ترتب عليه
نقص فى الشباب النابيين اليوم .

وأمام القصر الامبراطورى أقيم نصب تذكارى أهده «مارشال تيتو»
للامبراطور ، تصور لوحته البرنزىة قسوة فترة الاحتلال الفاشستى .
وقد ظل البوليس السرى يحرس هذا النصب ليلا ونهارا ، حتى لا يستطيع
أحد من الاجانب تصويره برغم أنه لا توجد صعوبة فى أى بلد افريقى
لتصوير الشوارع بما فيها من مناظر مؤذية . أما فى أثيوبيا فعلى العكس
الى حد أن المرء يخشى على الدوام انتزاع آلة التصوير منه وهو ما يحدث
غالبا . والواضح أن القيصر ليس مسرورا من هذه الهدية ، اذ أنه فى
ذاته ليس شعبيا ، بل ان جهوده للانصاف والعدل تعد دليلا على ذلك ،
ففى أثيوبيا وأرتريا التى ما زالت خاضعة لاثيوبيا ما زال يعيش حتى
اليوم آلاف الايطاليين ، ولا يبدو أن حالهم تسير أحسن أو أسوأ من
الاجانب الآخرين .

وعندما عادت قوات الحلفاء الى أثيوبيا فى ١٩ من يناير عام ١٩٤١

لتحرير البلاد ، أذيع اعلان امبراطورى جاء فيه : « اننى أوافقكم على أن جميع الايطاليين الذين وقعوا أسرى فى الحرب الاثيوبية الايطالية سواء منهم المسلحون أو العزل يجب أن يعاملوا معاملة العطف والمحبة ، فلا يساوركم أى شعور بالظلم نحوهم ، أنهم كانوا البادئين بالعدوان على شعبنا ، ولكن لتظهروا أن جنودكم شرفاء وذوو قلوب انسانية ، ستكون المعاملة بحسب ما قلنا .

هذا ، وقد أثار الامبراطور النقد المؤثر فى الداخل والخارج اذ يطالب على الاقل بالديمقراطية طبقا للنظام الانجليزى ، برغم أن هذا النظام ما زال يعد حتى الآن عنصرا غريبا على افريقية وبرغم أنه لا يبدو أيضا أن الافريقيين يسرون ببطء فى طريق النظم الديمقراطية .

ومهما يكن من الامر فان اثنين من الابطارة الاشداء لا يستطيعان بحال أن يصنعا معا ما صنعه هيلاسلاسى الاول فى السنوات العشر القليلة فى ادارة دولاب عمله ادارة محكمة .

وثمة أشياء تنطوى على معنى عميق ، وثمة أشياء أخرى لا تعنى شيئا ما من مظاهر الحياة التى شاهدها .

فقد رأيت فى أحد الايام فى أديس أبابا بالمستشفى الذى يحمل اسم الامبراطور سيده على وشك الوضع جالسة على السلم الخارجى ، وبرغم آلام الوضع فان المستشفى لم يسمح لها بالدخول لان ذويهها لا يملكون نقودا ، فحدث اضطراب وقلق ، وتصادف مرور الامبراطور فى تلك اللحظة ، فوقف مستمعا مستفسرا وكنت الاوربى الوحيد فى هذه الضاحية، وكان مكانى على الجانب الآخر من الشارع وما أن رآنى الامبراطور حتى نظر نحوى نظرة تنم عن عدم الرضا لوجودى ، ذلك لصرامة قوانينه التى ينفذها فى تعصب دون استثناء ، وبرغم أنه تردد فى اصدار الامر بسبب وجودى فانه سرعان ما أصدره قائلا : « اذا لم تستطع المرأة الدفع فينبغى ألا تقبل بالمستشفى » .

سرت مبتعدا عن هذا المشهد وأنا أمعن فى التفكير مقابلا بين ما رأيت وبين زيارتى لفرقة الشرف والاسود التى تقيم الى جوار المستشفى والتى كثيرا ما تزعج أغلب المرضى بزيورها ، وانحرفت فى سبرى نحو شارع عريض يسير بمحاذاة وسط المدينة .

وبينما أنا فى طريقى اذ بعربة تقف فجأة الى جوارى ، يغادرها ضابط تقدم الى سائلا : هل يستطيع مصاحبتي لمسافة ما ، وما ان ركبت معه حتى بدأ الحديث فورا قائلا : انك ياسيدى الشاهد الوحيد لما حدث ، وربما يذهب بك الظن الآن الى أن الامبراطور « امبراطور غاشم » أو أنه

طاغية لا أخلاق له . فقلت : « انى لا أملك الحكم على ذلك ، فعقب على قولى فى تودد بقوله : « يجب أن تفهم الامبراطور انه يشعر بالحب لكل أنيوبى ، ولكن عندما لا يكون حازما فى تصرفه فان الفوضى والاضطراب يعودان الى ما كانا عليه قبل عهد امبراطورنا الكبير .

والواقع أن الضابط كان محقا ، فقد كانت الاحوال تجرى متعثرة مؤلمة لا بالنسبة لامرأة على وشك الوضع وانما بالنسبة للطبيب وللامبراطور نفسه .

فقد شيد مستشفى « سانت باول » الذى خصصه الامبراطور للمرضى الذين يعثر عليهم فى الشوارع لمعالجتهم على حسابه الخاص ، وليس كما هو الحال فى مستشفى هيلاسلاسى الاول ، كما قال لى الطبيب الالماني دكتور أتو الذى يعمل طبيبا به .

صديق للغرب والشرق

لقد ظلت أثيوبيا البلد الوحيد المستقل فى افريقية طيلة ثلاثة آلاف سنة وانها لمعجزة على قدر فهم هيلاسلاسى الاول ، أن تنشئ بلاده علاقات ودية فى سياستها الخارجية تقوم على أساس من اقتناعه بأهمية التعايش السلمى بين الشرق والغرب ، وأثيوبيا كما نعرف دولة امبراطورية يحكمها حاكم مطلق ، وهى أيضا أعرق بلد مسيحي ، ولكنها على الرغم من ذلك ، تعد من البلاد التى تخضع فى بنائها للغرب .

هذا وقد استطاع الامبراطور انتهاج سياسة فعالة فى مؤتمر الشعوب الافريقية الآسيوية الذى عقد فى باندونج عام ١٩٥٥ وكذا فى مؤتمر أكرا عام ١٩٥٨ فى أثناء اجتماع ممثلى الدول الافريقية حيث وضع الاساس المتين للتضامن الأفرو آسيوى .

وعلاقة هيلاسلاسى الودية بيوغوسلافيا الشيوعية معروفة ، فقد زار مارشال تيتو أثيوبيا مرتين ، واستقبل فيها كأي حاكم ، كما حل الامبراطور ضيفا على مارشال تيتو فى يوغوسلافيا ثلاث مرات ، وهذا مما يؤكد أن الامبراطور المسيحي قد أقام علاقات قوية مع الكتلة الشرقية ، بل ومع الاتحاد السوفيتى نفسه ، وعندما تحدثت مع وزير أثيوبى فى هذا الشأن قال لى : هل يمكن المرء أن ينكر أن ثلث البشر يحكمون حكما شيوعيا ويعيشون كشيوعيين ؟ .

وخلال الفترة من ٢٤ من يونيو حتى ٢٤ من أغسطس من عام ١٩٥٩ ، قام الامبراطور هيلاسلاسى الاول برحلة بالجمهورية العربية

المتحدة ، والاتحاد السوفيتي وتشيكوسلوفاكيا ، وبلجيكا ، وفرنسا ، والبرتغال ويوغوسلافيا ، وعند عودته قدم لشعبه تقريراً دقيقاً عن السياسة الداخلية والخارجية ، هذا التقرير الذي يعد واحداً من الشهادات الشخصية الهامة للامبراطور الاثيوبي منذ نهاية الحرب ، وفيما يلي نورد مقتطفات من هذا التقرير .

أثيوبيا والجمهورية العربية المتحدة

ان ما يخشاه الامبراطور هيلاسلاسي غالباً هو النفوذ المتزايد للبلاد الاسلامية التي تحيط ببلاده ، ففي عام ١٩٥٧ اتهمت الحكومة الاثيوبية حكومة ناصر بخلق الاضطراب في أثيوبيا بغية تحطيم الكنيسة الامبراطورية المسيحية ، وأخيراً تراضي الرئيس ناصر والامبراطور ، وقد جاء بتقريره في هذا الصدد ما ملخصه :

منذ بداية رحلتنا في الجمهورية العربية المتحدة أيقظ الاستقبال النودي الحار وتعبير الصداقة المفعم بالتقدير الذي قابلنا به الرئيس جمال عبد الناصر وممثلو الحكومة وشعب البلاد حيثما ذهبنا واتجهنا ، أيقظ هذا كله شعوراً بالغبطة والرضا الكبيرين ، وكما تعلمون أن العلاقات بين أثيوبيا والجمهورية العربية المتحدة قد بدأت قبل آلاف السنين، فقد ارتبط كل من البلدين بالاضافة الى الجيرة ، برباط الأهداف والمثل المشتركة . كما يربطهما برباط قوى النيل الأزرق الكبير ، وكان من أهم أهداف زيارتنا عقد المعاهدة الناجحة لتوطيد العلاقات بين كنيستينا ، واننا لنشعر بسعادة أكبر لوصلنا الى تحقيق هذا الهدف .

علاقات ودية مع الاتحاد السوفيتي

ان الدعاية الشيوعية في أثيوبيا نشيطة جداً ، فلقد أنشأ ستالين مستشفى ومركز استعلامات روسيين ، والآن سافر الامبراطور المسيحي الى موسكو بنفسه وقال :

اننا سعداء لتمكننا من زيارة هذا البلد العظيم الذي تحتفظ أثيوبيا معه بعلاقات ودية منذ وقت طويل ، هذا البلد الذي كان أحد أبطاله المشهورين بطرس الأكبر من نسل ابراهيم هنيبال الذي من حفدته الشاعر الأكبر الاسكندر بوشكين ؛ فقد كانوا جميعاً من أصل أثيوبي .

هذا بالاضافة الى المساعدة الطيبة التي قدمها الاتحاد السوفيتي

لأثيوبيا في أثناء معركة « عدوة » فضلا عن المساعدات التي قدمها الصليب الأحمر في أثناء الغزو الفاشستي .

كما أيد الاتحاد السوفيتي وجهة نظرنا في حرية بلدنا في عصبة الأمم ، وكان من الدول الكبرى القليلة التي لم تعترف بالاحتلال العدواني الفاشستي لبلادنا ، وقد وصلنا الى اتفاق تام في محادثاتنا بشأن السلام العالمي التي أجريناها مع زعماء الاتحاد السوفيتي ، والتي تهم بلدنا على وجه الخصوص .

وكان من نتائج مباحثاتنا أيضا توقيع اتفاقيات للتعاون الاقتصادي وتوسيع العلاقات الثقافية والتجارية بين كل من بلدنا .

وعلاوة على ما تقدم ، أثلج صدورنا حصولنا على قرض طويل الأجل مقداره أربعمائه مليون روبل باقل فائدة وذلك لتمويل مشروع السنوات الخمس الاثيوبى ، هذا عدا المشروعات الأخرى التي تطور اقتصادنا وترفع من مستوى معيشة شعبنا ، ان أثيوبيا لديها مصادر عظيمة من المواد الخام ، ولكن نظرا لنقص رأس المال ، فانه ليس في الامكان استغلال هذه المصادر الطبيعية ، ولذا فقد عقدنا قروضا مع البلدان الصديقة كالولايات المتحدة ، ويوغوسلافيا وجمهورية ألمانيا الاتحادية ، وتشيكوسلوفاكيا ، لتنفيذ مشروع السنوات الخمس واستغلال ثرواتنا الطبيعية وتطوير اقتصادنا من أجل رفاهية شعبنا .

صديقنا الكبير مارشال تيتو

لقد قامت العلاقات بين أثيوبيا وتشيكوسلوفاكيا منذ أمد بعيد ، كما استطاعت أثيوبيا أن تحصل من هذه الدولة الصديقة على أغلب أسلحتها وذخائرها التي استخدمتها في الدفاع عن استقلالها ضد العدوان الفاشستي ، وكانت تشيكوسلوفاكيا من السدول القليلة التي رفعت صوتها بشجاعة ضد الغزو الفاشستي مؤيدة مطالبنا في عصبة الأمم .

كما أننا في الفترة الاولى لما بعد الحرب اتجهنا الى تشيكوسلوفاكيا عندما أصبحت وسائلنا الدفاعية محدودة لشراء الأسلحة الحديثة منها وبناء مصانع للذخيرة بمعونتها .

وتعلمون جميعا بالقرض الذي حصلت عليه حكومتنا من تشيكوسلوفاكيا ، لتجهيز مستشفياتنا والمؤسسات الصحية العامة في بلادنا .

هذا وقد برهن الاستقبال الودى الحار الذى قابلنا به زعماء هذه الدولة الصديقة وشعبها ، على أن العلاقات بين كلتا الدولتين تقوم على أساس من الصداقة المتينة التى يسودها الاحترام المتبادل ، وقد توصلنا الى عقد اتفاقيات للمعونة الاقتصادية والفنية ، فضلا على معاهدة ثقافية ، هذه الاتفاقيات التى ستساعدنا على تحقيق مشروعاتنا الاقتصادية .

هذا واستكمالا لرحلتنا فى البلاد الصديقة زرنا الجمهورية اليوغسلافية بناء على دعوة صديقنا الكبير مارشال تيتو ، وتعلمون أننا قد زرنا يوغوسلافيا مرتين خلال خمس سنوات كما زار مارشال تيتو بلادنا مرتين فى المدة نفسها ، وهذا دليل على الرباط الودى المتين بين كلا البلدين .

ولم تكتف يوغوسلافيا بأن تقدم لاثيوبيا قرضا لتحقيق البرنامج الذى يهدف بعد تنفيذه الى تطويرها اقتصاديا فحسب ، بل انها زادت من نطاق معونتها ، فبعثت بخبراء فى ميادين الطب والشئون الفنية الأخرى .

وقد أثمرت هذه المعونات نتائج طيبة عادت على كلا البلدين بالخير . هذا وعلى الرغم من اختلاف النظام السياسى والاقتصادى فى كل منهما ، فان هذا الاختلاف لم يكن ليحول دون التفاهم والتعاون المتبادلين بروح ملؤها الود والصداقة .

التعايش السلمى ورفع مستوى المعيشة

وتعلمون جميعا أن أسس السياسة الخارجية الاثيوبية هى أسس ميثاق الأمم المتحدة وقرارات كل من باندونج وأكرا ، هذه الأسس التى طالما صممنا على التمسك بها ، والتى تنحصر فى التعايش السلمى وعدم التدخل فى الشئون الداخلية للدول الأخرى واحترام سيادة هذه الدول ، وعدم الاعتداء عليها والحل السلمى لجميع المنازعات .

هذا ، ومهما بلغت قيمة المقتطفات التى اقتطفناها من التقرير الدقيق « الحسابى » للامبراطور هيلاسلاسى الاول فانها جميعا تعد وثيقة نموذجية تبين صورة للفاعلية التشريعية المطلقة فى القرن العشرين .

وأخيرا ترأس الامبراطور مؤتمر وزراء خارجية ثلاثين دولة افريقية وذلك فى يونيو من عام ١٩٦٠ حيث أوضح سياسة أمته بازاء البلدان الافريقية الصديقة .

مشاركة الدول الصغيرة

فى اثيوبيا اليوم جيل جديد ينمو فى تدرج مطرد ، هذا هو الجيل الذى يفكر فى مطالب العصر ، فقد قرأت فى جريدة « الهيرالد الاثيوبية » الصادرة فى أديس أبابا مقالا افتتاحيا يحتوى على العبارات الآتية :

« لا يميل الافريقيون الى العمل بصفة عامة ، وكل من يشغل منهم مركزا له مسئوليته لا يعمل فى نطاق ما تستلزمه هذه المسئولية ، ويقال : ان هذا نتيجة واضحة للظروف المناخية فى بلادهم لان معظم اجزاء القارة حار ، وهو الوضع الطبيعى الذى يحول دون العمل المتصل ولكن هذا القول لا يمكن تصديقه اذ نجد سكان الأقاليم الأخرى ذات الظروف المناخية المشابهة يعملون بجهد أكثر من الافريقيين . »

وهذه من غير شك اشارة طيبة تدعو سكان افريقية الى أن يحسم كثير من زعماء دولها موقفهم من عدو افريقية رقم واحد ، وكذا عدو اثيوبيا قطعاً .

ويختتم الكاتب عباراته بكلمة للامبراطور هيلاسلاسى الاول ، ألقاها فى أثناء زيارته للولايات المتحدة الامريكية أمام لجنة الشئون الخارجية ، قال فيها :

« ان السياسة الخارجية هى أساس وجود الدول الصغيرة ، هذا الوجود الذى لا يمكن الدفاع عنه بالأسلحة ، وأنا أعتقد أنه يجب على كل دولة صغيرة أن تختار فى نهاية المطاف طريق التعقل ان أرادت هى دوام وجودها ، ومن المؤلف اليوم أن نجد أغلب الناس يتساءلون : هل هناك أمل للدول الصغيرة فى الاستمرار فى الحياة الحرة الكريمة ؟ والواقع أن مشاعرنا المتفائلة بالاضافة الى الظروف الحالية تجعل من الصعب على هذه الدول الصغيرة النضال فى سبيل البقاء ، ولذلك فاننا نعتقد أن من الضرورى الاحتفاظ بالدول الصغيرة ومساندتها للبقاء على قيد الحياة لكى تساهم فى اقرار دعائم السلام العالمى ، لان هذه الدول الصغيرة تمثل عنصر الصبر فى سبيل التفاهم ، ذلك العنصر الذى ينقص عالم اليوم ، أما المساعدات الخارجية والتعاون مع الدول الأخرى فانها ذات ضرورة ملحة بالنسبة لهذه الدول الصغيرة . »

وهكذا أصبح مكان المعركة فى صميم القوميات المختلفة معروفا ، كما أصبح موضوعها وهو كيف يسير المرء مسالما مع الآخرين واضحا ، وهذه هى الحال مع اثيوبيا فى علاقاتها مع جميع الدول .

هذا ، ومن الدول التى قمنا بزيارتها فى أثناء رحلتنا القصيرة دول

تتبع نظاما اقتصاديا وسياسيا مغايرا ، ونعتقد أن النظام المعين لكل دولة يتوقف على خدمة الاحتياجات الخاصة بها ، ويتشكل على حسب الظروف الداخلية لكل منها ، ولذلك فأننا نعتقد أن التعارض بين الأنظمة السياسية والاقتصادية ، لا يمكن أن يشكل عقبة فى سبيل تفاهم الدول وتضامنها ، وكذلك تعاونها فى المشاكل الهامة من أجل تحقيق المصلحة العامة .

وقد كانت أهم أهداف رحلتنا أن نجد السبل والوسائل لرفع مستوى معيشة شعبنا ، وتطوير بلادنا اقتصاديا ، فقد وصلت البلدان الأخرى الى المستوى المعيشى المرتفع الحالى بازدياد خبراتها منذ وقت طويل ، ونحن نرغب فى أن يستطيع شعبنا التوصل الى هذا المستوى فى أقصر فترة ممكنة ، وإن هذه المرحلة التى بلغناها فى جيل واحد ليست الا نتيجة للعمل الشاق والشجاعة والتضحية من أجل أجيال متعاقبة .

ومن المهم بالنسبة لنا أن نخرج على التاريخ الحضارى لأن جهودنا المتواصلة فى سبيل تيسير جميع الحاجات المادية لكل الاثيوبيين تهدف الى ارضاء جميع أفراد شعبنا .

ولذلك فانه يجب أن يدعم الاثيوبيون نشاطهم وأن يتركوا الكسل جانبا وأن يطوروا طموحهم المستمر نحو المستويات الحسنة، حتى يستطيعوا رفع مستواهم المعيشى بالقياس مع الشعوب الأخرى فى أجزاء العالم المختلفة ولكن فى قناعة من أجل الآخرين .

فى هذا المجال نود أن نذكر شعبنا بما جاء على لسان باولوس حيث يقول :

« سيطول الليل ، ولكنه مهما طال يعقبه النهار ولذا يجب أن نكبح جماح أنفسنا الغاضبة ونحطم أسلحة الليل ، لنجد الأمان فى وضوح النهار . ولقد لاحظنا فى أثناء دراستنا للنظم الاجتماعية المختلفة خلال رحلتنا أن أساس نجاحها يتركز فى وجود رأس المال الذى يمكنها من تنفيذ مشروعاتها الزراعية الطبية ومشروعات المناجم التى تخدم صناعتها ، والتخطيط الناجح للأفادة من مياه أنهارها ، وكذلك استغلال مصادرها الطبيعية .

وقد بلغت بلاد كثيرة درجة عالية من التقدم وذلك لا يرجع الى وفرة ثرواتها الطبيعية فحسب ، وإنما يرجع الى نشاطها فى العمل والمثابرة وتعدد مستويات تفكيرها على نقيض تلك الدول التى تقاعست عن استغلال ثرواتها الطبيعية واستغلالها وتطوير طاقاتها ، مما دعا الى وصفها بالدول المتخلفة .

محمد الخامس
ملك بين الاقطاع والدمقرطة

ان سياستنا تحمل فى طياتها وضعنا الجغرافى ، كما تحمل واقعنا الاجتماعى والاقتصادى ، ونحن شعب يحب السلام ، لذا نرى أننا ملزمون بالمحافظة عليه بل وملزمون بالتعاون مع جميع الامم مهما كانت اتجاهاتها الايدلوجية ، ونحن كشعب عربى ، يحتضن كل ما يهم العالم العربى والاسلامى ، كما أننا كشعب افريقى تهمنى أيضا جميع الظروف المحيطة بالشعوب الافريقية الأخرى ولسوف نعمل على تحريرها .

محمد الخامس

من خطاب العرش عام ١٩٦٠

يتحتم على من يقيم فى مراكش أن يحاول مهما كانت الظروف أن يكون فى مدينة الرباط فى ضحى أحد أيام الجمعة ، دون توان منه فى بذل الجهد للوصول الى ساحل البحر ، حيث قصر الملك ، وذلك لأنه يغادر القصر ظهر كل جمعة تحوطه حاشية مسترعية للأنظار ممتطيا صهوة جواده متوجها الى أحد المساجد الصغيرة للصلاة ، عائدا بعد أدائها الى القصر .

انه لموكب رائع حقا : فالملك محمد الخامس على صهوة جواده مظهر مهيب يحيط به نبلاؤه فى الموكب وعلى جانبيه حراس من الزنوج يرتدون زيا رسميا صارخ الاحمرار ولا يقتصر الأمر على الموكب وحده ، بل ان مايبدا من الشعب حين يظهر لمبايعة الملك ورؤية الشحاذين يرتمون على قدمى الملك طالبين الاحسان والموظفين والسيدات والأطفال يحيونه فى صمت أو يهتفون له ليدل على مكانته .

وآلات التصوير تعمل ، وآلات السينما تقوم بتسجيل موكب السلطان الذى يستغرق زمنا غير محدود ، والذى يتمثل فيه مظاهر الأبهة الشرقية القديمة ، فيحس المشاهد وكأنه أمام تمثيلية لا توقيت لها .

والملك محمد الخامس على حق فى الذهاب هذا المذهب ففى دماء شعبه تجرى طريقة تقديم الولاء اليه على هذه الصورة ، ويبدو واضحا ضرورة انقضاء زمن طويل ، حتى تتخلص مراكش من التيارات الاقطاعية الظاهرة المعالم لأنه مازال هناك الكثير من الظواهر التى تبعث فى النفس هذا الشعور : فعندما أراد الجلاوى باشا مراكش الراحل الاعتذار للملك العائد من المنفى بتقديم ندمه بسبب تعاونه مع الفرنسيين ألقى الرجل المسن الوقور بنفسه عند قدمى الأمير الشاب وقبلها ، وعندما يظهر ذوو الحاجات يفعلون الشيء نفسه ، فيتقدمون اليه ساجدين ، لامسين قدمى الملك وأمير المؤمنين بشفاههم .

وغالبا ما يظهر الملك محمد الخامس أمام شعبه فى مراكش بالجلباب والحذاء المراكشى ، أما عندما يقابل الأجانب فانه يبدو على النقيض اذ يرتدى الملابس الغربية ويصبح مظهره كملك اسكندنافية ، أو كرئيس للولايات المتحدة الأمريكية أو غيرها ، وتنقلنا هذه الملاحظة الى الاعتراف بأن « محمد الخامس » كملك يمثل القنطرة الموصلة بين مراكش القديمة وبين مراكش الحديثة . فقد خلع عن نفسه « لقب السلطان » لأنه يرتبط بصورة الحكام الأوتوقراطيين ، وكان من الواجب ابعاد هذه الصورة الأوتوقراطية عن نفسه ، وتلقب بالملك وذلك فى عام ١٩٥٧ لكى يبدو ملكا شأنه فى هذا شأن ملوك الديمقراطيات الأوروبية .

مملكة مستقلة منذ ١١٠٠ عام

تعتبر مراكش مملكة مستقلة منذ القرن الثامن ، ففى ذلك الوقت البعيد وضعت بعض القبائل المراكشية نفسها تحت سلطة أحد قواد الجيوش العربية ، ويدعى ادريس الأول ، وينتسب الى ابن مسحرون الذى عقد نسبه الى النبى محمد عليه السلام (ولد سنة ٥٧٠ م فى مكة وتوفى فى المدينة) وكانت الأسر الحاكمة الأخيرة من أصل مراكشى فمنذ سنة ١٠٥٣ حتى سنة ١١٤٧ حكم المرابطون البلاد ، ومنذ عام ١١٤٧ حتى عام ١٢٦٩ حكم الموحدون ، وكلتا الدولتين تنتسب الى البربر ، وقد امتد سلطانهما حتى اسبانيا ، ومنذ عام ١٢٦٩ حتى عام ١٤٥٦ حكم الميرنديون ، وتلاههم الاشراف الاساعدة النازحون من الصحراء منذ عام ١٥٤٩ حتى عام ١٦٥٤ .

وفي عام ١٦٦٦ ابتداء فرع منهم يعترف باسم الاينطيين ، حكم البلاد وهو الفرع الذي أسس البيت المالک الحالي ، وهؤلاء الاينطيون يعود نسبهم الى أشرف تافيلاليت ، الذين كانوا مزيجا من الصالحين والطحالين، وقد بدأ مولاي اسماعيل (١٦٧٢ - ١٧٢٧) أولى العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا ، وعقد مولاي محمد بن عبد الله أولى المعاهدات التجارية مع الدول الأوروبية ، واتخذت المعاهدة المعقودة مع فرنسا في عام ١٧٧٦ كأساس محترم لمعاهدات فرنسا التجارية مع دول شمالى افريقية .

وعلى الرغم من الرغبات البعيدة المدى للإصلاح ، فقد تحكمت حتى القرن التاسع عشر في مراكش ظروف سيئة اذ كانت البلاد منقسمة الى نصفين مختلفين اختلافا كليا : أحدهما تتحكم فيه الادارة الحازمة ، والآخر يعيش في فوضى ، ولا يخضع لأشراف السلطة العليا في البلاد ، مما دفع بالمراكشيين أنفسهم الى طلب المساعدات الخارجية فعقد في عام ١٩٠٦ مؤتمر الجسراس الدولي ، وفيه وعد مراكش بالمساعدة المالية والتأييد الحربي من الخارج ، لكن ذلك لم يكن ذا أثر فعال ، فاستنجد السلطان مولاي حافظ « بفرنسا واسبانيا ، وانتهى الأمر بأن أصبحت مراكش منذ عام ١٩١٢ محمية فرنسية اسبانية في علاقاتها مع الخارج . ويدعى والد الملك الحاكم « محمد الخامس » مولاي السلطان يوسف بن حسن الذي تربع على العرش من عام ١٩١٢ حتى وفاته في السابع عشر من نوفمبر عام ١٩٢٧ ، تاركا وراءه عددا من الأبناء .

وعند اجتماع مجلس علماء فاس ، قرر من وراء الأبواب المغلقة ، اختيار ابن مولاي يوسف الشاب اليافع محمد ، البالغ من العمر ثمانية عشر عاما أميرا جديدا ، وكان ترتيبه الحاكم الثامن عشر من بيت الاينطيين و « محمد » هذا هو الابن الثالث للسلطان ، ولم يكن معينا ليتولى الحكم ، ولكن قرار العلماء باختياره يؤكد معلوماتنا الوثيقة التي تتركز في أن الفرنسيين هم الذين أرادوا ذلك لأن الأبناء الكبار كانوا من الوطنيين أما هذا فلم يكن لديه آئذ مطامع معينة .

ولد « السيد محمد الخامس » بن مولاي « يوسف الاينطي » في عام ١٩٠٩ بمدينة الأمراء القديمة فاس وقد تعلم العربية وتلقى تربية اسلامية أصيلة ولم يتعلم الفرنسية قراءة وكتابة الا في فترة متأخرة ، ويبدو أن الملك «محمد الخامس» كان يرى أن تربيته ليست تربية متناسبة مع مسؤوليات الحكم ، وخاصة أنها لم تكن تنمو نموا كافيا ولهذا فقد عمل على تعليم وتثقيف أولاده ثقافة عميقة متعددة الجوانب بالإضافة الى العربية الاسلامية التي تتركز عليها تقاليدهم وأخلاقهم .

ولمولى « محمد الخامس » زوجتان لم تظهرا في المجتمعات قط ،

وليست لهما أية صورة مرسومة ، وكذلك لم يفصح عن أسميهما أو تاريخ ميلادهما ، هذا بالإضافة الى عدد غير قليل من المحظيات يتردد بين عشرين وأربعين وحتى الآن لم ينشر القصر الا تواريخ ميلاد الاطفال الستة لكلتا الزوجتين الشرعيتين وهم : « مولاي الحسن » الملك الحالي ولد في ٩ من يونيو عام ١٩٢٩ . وأخوه « مولاي عبد الله » ولد في ٣ من مايو عام ١٩٣٥ ، أما عن الأميرات الأربع فلا يعرف سوى أسمائهن لالا عائشة ، لالا مليكة ، لالا نزهة ، ولالا أمينة التي ولدت في المنفى ولا يعلم أحد شيئاً عن زوجتي الملك اذ أن ذلك يعد من المسائل الشخصية الخالصة ولكننا مع هذا نرى أبناءه يرتدون الملابس الافرنجية ، أما البنات فانهن - وان لم يكن ذلك دائماً - يظهرن كثيرا بالملابس الافرنجية أيضا . هذا وقد انضممن الى الحركة النسائية التقدمية وشاركن في كثير من المشروعات الاجتماعية الأمر الذي يعد من ملامح التغير الملحوظ في البيت الملكي المراكشي .

ومما يؤخذ على الملك أحيانا سيره البطيء ببلاده في طريق المدنية ، ولكن المرء على غير بينة من الاصلاحات التي قام بها في بلاده ، والتي ذلت الكثير من العقبات ، ولو أن أنصار الاقطاع يعتبرونه ممثل الاسلام والتقاليد ، ولذا يعد محمد الخامس رجلا جمع بين عصرين ، على حين أصبح الأمراء أكثر يسرا بالنسبة لابنه الملك الحالي « مولاي الحسن الثاني » ، ولقد ساهم الملك محمد الخامس في احياء افريقيا الجديدة المعتمدة على نفسها والمستقلة عن أوروبا .

ومهما يكن من شيء فان مراكش اليوم في قبضة رجل موفق يحدد عمله ايمانه الحماسي الذي أبعده عن الطغيان فالدين والايمان هما المحرك الحقيقي للملك ، ولذا يطلق عليه بحق « ملك مراكش الصالح » الذي يشكره شعبه كما يشكره العالم أجمع شكرا جزيلا .

في طريق الاستقلال

جرى كثير من اعمال الاصلاح في شتى الميادين بمراكش التي مساحتها ٤٤٧٠٠٠ كلم على أساس معاهدة الحماية المعقودة في عام ١٩١٢ ، وليس من شك في أن أكثر هذه الأعمال الاصلاحية والتجديدات، بدأت بقوانين كثيرة لتنظيم البلاد وضبطها ويرجع الفضل في ادخال الصناعة الى الفرنسيين بالإضافة الى تعريف مميزات الانظمة الاقتصادية والتجارية ونظم الادارة الحديثة ، وقد تطورت جميع أفرع النشاط الاستعماري وازدهرت المدن في الوقت نفسه : فمدينة الدار البيضاء مثلا كان تعداد سكانها لا يتجاوز ٨٢٥٠٠ نسمة في عام ١٩١٧ فأصبح تعدادها اليوم

سبعمائة ألف نسمة ، أما الرباط العاصمة ، فقد تضاعف عدد سكانها خلال السنوات العشرين الأخيرة فأصبح يزيد على مائتي ألف نسمة ، كما ازداد عدد سكان مراكش بصفة عامة نتيجة تطبيق علوم الصحة والارشادات الطبية الغربية ، وأصبح عدد سكانها اليوم عشرة ملايين أو يزيد .

وقد تضمنت معاهدة الحماية الموقعة في عام ١٩١٢ شرطين أساسيين أولهما الاحتلال العسكري . والآخر : ضمان سلطة الأمير وحكومته ، لتأمين الاستقرار والنظام في جميع أنحاء البلاد ، هذا ويعتبر محمد الخامس أول سلطان في مراكش امتدت سلطاته حتى شملت جميع القبائل المراكشية .

وقد عاشت البلاد على أساس من جهود التوفيق الشخصية للملك محمد الخامس ، فكان السلام الدائم حتى الحرب العالمية الثانية حيث كان الذي يحكم فعليا هم الفرنسيين وكان على الملك محمد الخامس أن يوقع بامضائه الى جانب امضاء المقيم العام ، ولكن الذي حدث في الثلاثين عاما الأخيرة هو يقظة افريقية كلها وظهور حركات المطالبة بالاستقلال ، وأخيرا جاء وعد المستعمرين في أثناء الحرب العالمية الثانية باستقلال جميع البلاد وحصولها على الحرية ، اذا ما وقفت الى جانب الحلفاء وكانت هذه الوعود موجهة الى مراكش أيضا .

شب ونما جيل جديد ، وأصبح كثير من الشباب عارفا باللغة العربية قراءة وكتابة ، وكذلك الفرنسية والانجليزية ، وبدأ سفر الشباب الى خارج البلاد والدراسة في المعاهد الأوروبية حيث عرف عن الحرية أكثر مما يقع تحت بصره في وطنه مما عاد بقليل من النفع على بعض المراكشيين الذين يتعاملون مع الفرنسيين الذين استقروا في البلاد كتجار مستوطنين يستغلون البلاد لحسابهم الخاص .

والسؤال الذي يتبادر الى الذهن : هل استمر استغلال الأجنبي للبلاد على حساب أبنائها ؟

لقد حدث أثناء الحرب العالمية الثانية أن كان الملك يعطف على مرشال بيتان ، ولكنه ما لبث بعد ذلك أن وقف الى جانب فرنسا الحرة بقيادة شارل ديغول وبموقفه هذا يكون قد انضم الى جانب الحلفاء ، وحدث أيضا انه قبل حلول قوات الحلفاء المقساتلة ، ان حاولت حكومة فيشي الفرنسية تحت ضغط ألمانيا تطبيق قوانين نورمبرج ضد اليهود في مراكش . الا أن الملك « محمد الخامس » رفض الخضوع لحكومة فيشي في تطبيق هذه القوانين وأعلن أن اليهود والمسلمين في مراكش يتساوون أمام القانون .

وفى عام ١٩٤٤ عقد مؤتمر الدار البيضاء « كازابلانكا » حيث ظهر فيه ونستون تشرشل وفرانكلين روزفلت الذى سرعان ما توطدت أواصر الصداقة بينه وبين محمد الخامس ، فأظهر روزفلت فهما خاصا لمشكلة مراكش مبديا استعداداه لتخليصها من معاهدة الحماية ، وقد علق محمد الخامس وشعبه آمالا كبارا على أمريكا ورئيسها واعتبروا وفاة روزفلت خسارة فادحة لهم .

ومما له معنى خاص وتجدر الإشارة اليه ، أن المعلق الأمريكى «جون جوتتر » حينما سأل الجنرال الفرنسى جوليون عن السبب الذى دفع « محمد الخامس » للثورة ضد الفرنسيين أخيرا أجابه قائلا : انه الرئيس « روزفلت » وقد أضاف جوتتر معلقا : « ان جوليون لم يكن يقصد هذا فى جدية تامة ، ولكن برغم هذا القول ، فان هذه الاجابة المفجعة هى خير تعبير عن حقيقة ما يجرى ، فعندما اجتمع محمد الخامس بالرئيس روزفلت لم يكن ثمة أى مستشار فرنسى فى اجتماعهما ، وهذه أول مرة نحدث دون حضور مستشار فرنسى فى اجتماع الملك مع ممثل دولة أجنبية . ولذا يعد هذا الاجتماع حجر الزاوية فى تطور الاتجاه السياسى لجلالته .

وفى عام ١٩٤١ أعلن ميثاق الاطلنطى الذى أكد لجميع الشعوب حرية اختيار شكل حكوماتها ، وفى يونيو من عام ١٩٤٥ أنشئت هيئة الامم المتحدة وهى التى وعدت بحماية حقوق الانسان فى جميع أنحاء العالم . وبرغم هذا فقد كان أمل مراكش فى الاستقلال أضغاث أحلام .

وفى عام ١٩٤٧ طالب محمد الخامس على لسان حزب الاستقلال المراكشى للمرة الاولى فى خطاب عام موجه الى العالم أجمع بحرية بلاده ، وبذا أعلن عداءه الصريح للفرنسيين ، وهو الذى كان حليفهم الدائم وخير معين ، وقد حاولت فرنسا بشتى السبل اسكاته ولكنها لم تفلح ، اذ فى عام ١٩٥١ وقف الملك محمد الخامس للمرة الاولى معلنا عزمه على تحرير بلاده ، ولكن محاولته هذه جانبها التوفيق ، وقد أدت وقفته هذه الى تنغيص حياة المستوطنين أولئك الذين كانوا يتظرون الى الوطنيين المراكشيين نظرتهم الى أعدائهم .

فى المنفى

فى الحادى والعشرين من أغسطس عام ١٩٥٣. أحرز المستوطنون الفرنسيون فى شمالى افريقية نصرا مؤقتا ، فقد خلع محمد الخامس عن عرشه ، وأخرج هو وعائلته من قصره فى الرباط بلاشئ سوى الملابس

الضرورية ، وبعثوا بهم فى طائرة عسكرية الى منفى زوتز، بجزيرة كورسيكا
أولا تم الى انتستراى بجزيرة مدغشقر .

ونصبوا على العرش رجلا ضعيفا هو سيدى محمد بن مولاي عرفه
العلوى المولود فى عام ١٨٨٩ بمدينة فاس وهو أحد أفراد الأسرة المالكة
وعم الملك المنفى وجمع الى جانب ضعفه أنه لم يشتغل بالسياسة من قبل،
ولم يكن يوما نائبا للملك .

وقد برهنت الأحداث سريعا على أن خلع الملك محمد الخامس كان
خطأ فاحشا فقد بطل الشعب كله الى الملك المخلوع وعائلته ، على أنهم
رمز لحركة التحرير ودعت جميع الهيئات الوطنية الشعب الى الثورة ضد
الفرنسيين ، وفى السنين الاخيرة قوطعت المؤسسات والبضائع الفرنسية،
وسرعان ما اندلعت نيران الثورة المسلحة فى جميع الانحاء ، ومن الامور
المعروفة أن فرنسا قد نجحت باستمرار فى كسب بعض الاشراف الى
جانبيها مثل باشا مراکش « هادى تهاى الجلاوى » ، فقد تعاون هذا الامر
البربرى البالغ من العمر أكثر من ثمانين عاما والمسيطر على جبال الاطلس
العليا مع الفرنسيين عشرات السنين ، استطاع فيها أن يجنى ثروة خيالية،
وقد استخدمه الفرنسيون مع المحاربين البرابرة المنتمين اليه فى احداث
الانقسامات القديمة بين البربر والعرب .

وقد ظهر أن هذه السياسة قد حالفها التوفيق فترة من الزمن
وجاءت الساعة الحاسمة التى أدرك فيها الجلاوى هدف هذه السياسة
فسحب البربر بزعماء « باشا مراکش » تأييدهم للفرنسيين ومعهم محمد
ابن عرفه ، وحينئذ تاق الجلاوى كما قرر ذلك روم لندرو الى عدم التعاون
مع الفرنسيين مرة أخرى على الاطلاق ، فقد ذكر لندرو أن الجلاوى شخصيا
قال له فى عام ١٩٤٨ : انه وأسرته جميعا ، سيجدون مشقة أكبر فى النكاح
عن تعاونه مع الفرنسيين أعداء البلاد يوما ما .

وفى معمعان هذه الازمة ، استطاعت حركة التحرير المراكشية أن
يلخص مطالبها فى أن تكون المفاوضات قائمة أساسا على عودة الملك محمد
الخامس من منفاه ، وتدخل الأمريكيون مرة أخرى حين دعت الضرورة،
فأظهرت الحكومة الامريكىة استياءها العميق لخلع السلطان محمد الخامس،
فقد كتب فرانسوا مورياك قائلا : ان « محمد الخامس » لم يكن فيما مضى
أقوى مما هو الآن ، واذا كان من اليسير قيد جسده فلا بد من أن ندرك أنه
يحمل قلب وعقل ملايين المراكشيين الذين وضعوا فيه كل آمالهم التى أعلنوا
الكفاح المسلح من أجلها .

وزادت الثورة لهيبا وزاد الشعب تماسكا وقوة ، وشملت البلاد مرحلة

من الاعيالات وانقتل السياسى الامر الذى ألزم الفرنسيين بعد سنتين من جهودهم الضائعة فى حكم البلاد عن طريق الخونة ، أن يتبينوا أنه لا سكينه الا بعد اعاده الملك محمد الخامس وأسرتة الى وطنه .

وهكذا تحقق ما تكهن به الملك حين قال : « ان خلعى عن العرش لن يحل المشكله المراكشيه » .

وعاد الملك محمد الخامس وأسرتة الى بلاده بعد سبعة وعشرين شهرا فضوها فى المنفى ، وكان ذلك فى السادس عشر من نوفمبر عام ١٩٥٥ قبل يوم واحد من الاحتفال بذكرى ارتقائه العرش . وهكذا أصبح الملك محمد الخامس فى نظر العالم العربى بطلا وضحية .

وفى الرباط العاصمة ، حضر روم لندرو مواكب النصر ، وبعد أشهر قليلة ألغيت الحماية الفرنسية فى الثانى من مارس عام ١٩٥٦ ، بعد تأسيس الحكومة الوطنية ، وكذا أنغيت هذه الحماية من جانب اسبانيا فى السابع من أبريل عام ١٩٥٦ . وهكذا تم استقلال مراكش ووحدة اراضيها .

اصلاحات شاملة بعد منح الاستقلال

كان من أول اعمال الملك النظر الى البلاد من الناحية الواقعية لامن الناحية القانونية كما يحدث حاليا ، فقد خضع جزء كبير من البلاد لادارة الحماية الفرنسية ، كما كان الاسبان يحكمون شمالها على حين كانت طنجة تخضع لمجلس دولى ، وقد أفلح الملك فى توحيد أجزاء البلاد فى مملكة مترابطة الاطراف ، ورأى بعد ذلك أن ينشئ نظاما اداريا واقتصاديا وتربويا وتعليميا موحدا فنجح نجاحا مؤكدا فى تحقيق ذلك كله فى وقت قصير ، ولكن كان من أكبر العقبات التى صادفته اعادة البناء الاقتصادى لبلاده بعد ما تركها الغنيون ورجال الاعمال والمستوطنون الفرنسيون .

وتبعاً لذلك تسربت رءوس الاموال من البلاد ، وشعرت الحكومة المراكشيه أن البلاد خلت من جمهرة العاملين ولم يبق لديها الا فئة قليلة جدا لا تكفى ملء الاماكن الكثيرة التى أصبحت شاغرة ، وكان لابد من الانضال ضد الجهل علاوة على النضال ضد الفقر والمرض والبطالة ، ويكفى لكى نرى فداحة الامر ، أن نعرف أن الملك قد أعلن وقتئذ أن مراكش ليس لديها سوى ثمانية وعشرين طبيباً مراكشياً وبعض المدرسين القلائل ولعدم وجود الموظفين المؤهلين دعا الامر الى تكليف بعض الاطباء على قلتهم

بالعمل بوزارة الخارجية لشغل المناصب التي أصبحت شاغرة أو التي أنشئت حديثا . .

وهكذا انتشر الفراغ في كل مكان الى حد أن الملك كان ينوء تحت عبء المسئولية متسائلا : هل هو وشعبه قد عقدوا العزم على الاضطلاع بالمسئوليات التي حملوها على عاتقهم بنجاح ؟

وقد سبق أن أغلب الزعماء والمصلحين والمناضلين في سبيل حرية افريقية ساءلوا أنفسهم مثل هذا السؤال ولكنهم كانوا دائما يؤمنون بأن « الحاجة والكفاح في ظلال الحرية خير من كيان أغنى في ظلال العبودية » . وبصفة عامة جرت موجة الاسراع في التعليم في كل البلاد الافريقية . عندما كان الامر في مراكش نتيجة لتوافر الاخلاص وحسن نية القائمين على الامور .

والحق ان هذا الاخلاص وهذه النية الحسنة توافرت لدى ملك مراكش يوم ساعديه ونذكر منهم على سبيل المثال المربي السابق الاستاذ (بلافريج) أول وزير للخارجية في مراكش المستقلة والزعيمين الوطنيين علال الفاسي ومحمد اليزيد .

وقد كانت حركة التعمير السريع في البلاد مثار الدهشة والاعجاب بحق ، واذا سألنا قائلين : كيف أمكن كل هذا ؟ فاننا نسمع على الفور الاجابة التقليدية : « قد أعاننا الله » ، وهي الاجابة التي ربما تكون تعبيرا عن وجود الايمان العميق الذي ملأ نفس محمد الخامس والذي يبدو واضحا في صلاته ، ودعائه في مسجده الخاص .

وفي الماضي حين كان الملك محمد الخامس أسيرا لدى المقيم الفرنسي العام ، لم يكن يستطيع السفر الى حيث شاء ، وكان محظورا عليه استقبال أى زائر أجنبي دون تصريح سابق من المقيم العام ، ولتحاشي أية متاعب يسببها الملك كانت تتم مسائل العلاقات الخارجية عن طريق المقيم العام الفرنسي .

أما الآن وقد استقلت البلاد فقد تحرر الملك ووزراؤه من لزومية الرجوع الى أحد ، وهكذا انتهز كل فرصة للاتصال بشعبه ، وكان دائم الاهتمام بالمشاكل التعليمية التربوية ، ولهذا فقد زار المدارس في طول البلاد وعرضها ، وتفقد مؤسسات الصناعات اليدوية والشركات ، وفحص بعمق جميع المشاكل التي تعانيها البلاد . وكان يتقبل فقراء الريف . وكثيرا ما أهدى الى الفلاحين الصغار مزارع كثيرة ، وهكذا حكم كملك دستوري ديمقراطي .

ولكل هذا خضعت له النقابات العمالية التي تشكل اليوم عاملا فعالا غنى كيان البلاد الاجتماعي . .

ويهتم الملك محمد الخامس بمساواة جميع المواطنين أمام القانون ، .
بفض النظر عن العنصر أو العقيدة أو النسب ، ويرجع هذا الى انتوثر
الذى كثيرا ما اشتعل أواره بين المراكشيين واليهود ، حتى انه لم يكن
ميسورا فى بعض الاحيان اعادة الهدوء والسكينة الا بعد انقضاء بضعة
سنوات .

والحق أقول : ان حال الاقلية اليهودية فى مراكش اليوم أحسن بكثير
عنها فى العصور الماضية .

وقد أدرك محمد الخامس ، شأن جميع الساسة والحكام الافريقيين
أهمية مشاركة النساء فى بناء الدولة الجديدة وتحملهن جزءا من مسئولية
سياسنها ، ولتأكيد تشجيعه لهذه المشاركة بصورة عملية سمح لابنته
الكبرى الاميرة لالا عائشة ان تكون رئيسة لحدى منظمات التنمية
الوطنية .

هذا وقد طرحت مشاكل المرأة المراكشية على بساط البحث فى
المؤتمر العالمى ، وكثيرا ما نادى الملك قائلا : « احملن أفضل تقاليدنا ، ولكن
عليكن الربط بينها وبين التقدم الحديث » .

ويعتبر الملك محمد الخامس مملكته مراكش ، التى فى أقصى الركن
الشمالى الغربى من افريقية الرباط الوثيق بين العالم العربى الشرقى
والغرب ، وكذلك هى الوصلة بين المحيط الاطلنطى والبحر الابيض، وأيضا
بين افريقية وأوربا وهو على يقين من أن السلام والرخاء فى بلاده ليسا
على جانب كبير من الاهمية بالنسبة لمراكش وحدها ، وانما بالنسبة للشمال
الافريقى والشرقى الاسلامى كلية .

الملك (ولى العهد) مولاي الحسن

لقد كان الملك يؤيده فى سياسته هذه ابنه الاكبر ولى العهد (مولاي
الحسن) الذى كان يصحبه والده فى جميع أنحاء مراكش نفسها وفى
بعض رحلاته الخارجية لامريكا الشمالية والبلاد الصديقة المجاورة كتونس
ومصر .

ويعتبر «مولاي الحسن» المثل الفذ للشباب المراكشيين الجدد فلا
يراه الناس الا مرتديا الملابس الافرنجية وحدها ، كما يظهر فى حلة القائد
العسكرى باعتباره القائد الاعلى للقوات العسكرية الملكية ، وقد فاجأ أبوه
باختياره أميرا يصبح فيما بعد الولى على العرش ، ولكى ينال قسطا مناسباً
من التعليم أنشئت مدرسة خاصة باسمه تعتبر جزءا من قصره فى الرباط .

وفي هذه المدرسة تلقى الملك مولاي الحسن دروسه مع جميع قرنائه من الشباب من جميع طبقات الشعب وأقاليم مراكش . وقد أكسبته هذه التربية شعبيته الكبيرة التي يتمتع بها اليوم في وطنه ، وقد تعلم مولاي الحسن الفرنسية في صغره كما تلقى من أساتذة ممتازين أصول الثقافة العامة واستطاع سريعا الإلمام بمبادئ العلوم والمعارف العاصرة الحديثة . وشب مولاي الحسن كوالده مولعا بلعبة التنس وركوب الخيل ، كما مارس الطيران على اعتباره قائده العام ، ويرجع لمولاي الحسن الفضل في أن أصبحت القوات المغربية على جانب كبير من التقدم في الفنون العسكرية الحديثة .

وإذا كان الملك غير مصحوب بابنه في الرحلات الخارجية فمعنى هذا أن الأمير يدير شئون الحكم في مسؤولية كاملة في أثناء غياب أبيه .

هذا وقد نودي به في يوليو من عام ١٩٥٧ وليا للعهد ، وذلك لتأكيد الملكية الدستورية في مراكش اليوم وفي المستقبل ، ولا يدرى هل لدى مولاي الحسن صفات والده نفسها وهل سينهج منهجه ، مترسما خطاه في إيجاد أطيب الصلات ؟ هذا وقد تكشف الأيام والأعوام اتجاهاته نحو الدول العربية الإسلامية والدول الأوروبية .

لقد كان الملك الوالد يعيش في دائرة اقطاعية كبيرة ، والآن الدول الأفريقية تفكر في نفسها ، لذا يمكن أن نرى أنه من الأصوب أن ابنه الذي سيخلفه سيتجه إلى الدول العربية الإسلامية أكثر من اتجاهه نحو الدول الأفريقية والأوروبية ، وما زلنا نذكر ما حدث بعد كوارث الزلازل في أغادير والتي وقعت في مارس عام ١٩٦٠ ، عندما رفض المساعدة التي تقدم بها سبعمائة من المتطوعين الفرنسيين بدافع من تعصبه لقوميته .

الملك يتولى الحكم

في أوائل عام ١٩٦٠ تطورت الأحداث في مراكش وبدأت مرحلة جديدة إذ في ٢٣ من مايو من ذلك العام أعلن محمد الخامس أنه سيتولى بنفسه الإشراف على الحكومة ، وأنه أصدر مرسوما بتعيين مولاي الحسن نائبا لرئيس الوزراء وقد انطلق بعد ذلك كثيرا من رغبات ولي العهد التي كانت معلقة وأصبح تحقيقها أمرا واقعا .

وقد رأى مولاي الحسن أن الحكومة الحالية التي تعتمد على مساندة الاتحاد الوطني للقوى الشعبية والمكون من حزب الاستقلال ، تتجه اتجاهها بيسارينا ظاهرا يؤدي بالبلاد إلى الحكم الجمهوري ، ولذلك فقد رأى أن

مراكش ليست أهلا للديمقراطية بعد ، مما دفع به الى السير في ركابه .
والده ومطاوخته دون مناقشة .

وفي فبراير من عام ١٩٦٠ اكتشفت مؤامرة في دوائر الاتحاد الوطني
للقوى الشعبية ، تهدف الى اغتيال ولي العهد ، كذلك قيل : ان ولي
العهد قد أجبر والده على أن يصبح رئيسا للحكومة ، على حين أعلن مجلس
الوزراء أن الملكية الدستورية ستعلن في عام ١٩٦٢ وأن الحكومة الجديدة
ستباشر وضع الدستور وتجرى التنظيمات الانتخابية لانتخاب برلمان
دستوري .

والى جانب ما تقدم أعلن الملك محمد الخامس في رسالة الى الشعب
أنه من العسير في الموقف الحالي تشكيل حكومة ممثلة لجميع الاحزاب
السياسية وأن اختيار أعضائها سيكون على أساس مقدرتهم وكفايتهم ،
وسيكون واجبها تحقيق برنامجها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ،
الذي وضعته ويتلخص فيما يلي :

في ميدان السياسة الخارجية تحافظ مراكش على استقلالها مع
الابتعاد عن التكتلات والمنازعات ، وتعاون مع جميع الدول على قدم المساواة ،
والاعتراف بسيادة مراكش واستقلالها ، علاوة على ذلك تؤيد مراكش فكرة
التآخي والارتباط مع جميع الدول العربية لتأسيس المغرب العربي .

كما نادى محمد الخامس بأن من أهداف حكومته ، جلاء جميع القوات
الفرنسية والاسبانية والامريكية ، علاوة على استعادة كل المناطق التابعة
لمراكش والتي ما زالت منفصلة عنها .

وكذلك أعلن أنه ينبغي الاستمرار في سياسة التحرر الاقتصادي ،
ومقاومة البطالة ، وادخال الانظمة الزراعية الحديثة ، والاستمرار في
خطط التصنيع والتدريب حتى يصبح دولاب الادارة مراكشيا صرفا .

كما نادى بحق الفرد في الحرية ، والعدالة الاجتماعية ، وتوسيع
المركزية المحلية التي يمكن ايجادها بادخال نظام المجالس البلدية كأساس
للحياة المدنية والسياسية .

وأشار الى الحكم الدستوري كهدف أخير ، فالدستور الجديد الذي
سيجرى مفعوله قبل نهاية عام ١٩٦٢ سيوحد القوى ، ويحدد السلطات
ويمكن كل مراكشي من المشاركة في سياسة الدولة ويتيح له فرصة
الاشراف على أعمالها .

وقد ألق محمد الخامس على أن الاساس الاول لتنفيذ برنامج السياسي
يتطلب الهدوء الشامل في البلاد ، لذلك يجب على الشعب المراكشي أن يعتبر .

نفسه مجندا لمساندة الملك ، كما سبق أن فعل هذا مرات كثيرة من قبل ، هذا وقد هدد مولاى الحسن بحصار القواعد الحربية الاجنبية اذا ما توانت قواتها فى الجلاء عن البلاد .

ومما يسترعى النظر حقا أن بطانة محمد الخامس تدرس بعناية تاريخ الملوك فى الشرق الاوسط ، وليس من شك فى أنها قد اكتشفت أن ملك مصر المخلوع (فاروق) قد بوغت بعد نضال الشعب من أجل اجلاء القوات الاجنبية من القواعد العسكرية فى قناة السويس بالقوى الثورية التى افقدته عرشه .

وفى ٢٩ من مايو عام ١٩٦٠ بعد تولى الملك مولاى الحسن الحكم بوقت قصير جرت أول انتخابات فى مراكش المستقلة ، للمجالس البلدية وقد حصل حزب الاستقلال بزعامة علال الفاسى على خمسة وأربعين فى المائة من الاصوات ، وحصل الاتحاد الوطنى على ثلاثين فى المائة أما بقية الاصوات فقد حصل عليها مرشحون مستقلون ، وهكذا ظلت القوى المحافظة هى صاحبة الاغلبية فى البلاد ، وحتى الآن ليس فى مراكش برلمان .

تكهنات المستقبل المراكشى

قبل تولى الملك محمد الخامس الحكم كان يعرف جيدا السبيل الذى عليه أن يسلكه لبلوغ مطامحه فقد أعلن الملك سياسة عدم الانحياز التى وجدت لديه استحسانا اكليا كما رغب فى احتفاظ بلاده بعلاقات ودية مع جميع الدول محذرا الدول الصغيرة مغبة الدخول فى النزاع بين الشرق والغرب (١) ، كما كان فى مقدمة المؤيدين لاتحاد الدول العربية ، وقد ساعد على ذلك بجهوده المختلفة لتدعيم الاخوة العربية القائمة على اواصر الصداقة والتعاون الخالصين .

وقد اهتم برنامجه بالاصلاح الاجتماعى هادفا الى رفع مستوى المعيشة والى دعم الاستقلال على أساس من المثل الاسلامية العربية .

وللملك محمد الخامس جهوده فى تدعيم الجامعة العربية وتأكيد الحقوق العربية فى فلسطين كما تعهد ببذل الجهود لمواجهة الخطر الصهيونى (٢) .

(١) عن صحيفة لوئد الفرنسية .

(٢) أعلن هذا حرفيا فى احدى الزيارات الرسمية للاردن تضامنا مع الملك حسين .

وقد أيد الملك الوطنيون الجزائريين في نضالهم كل التأييد كما
أيد وغبة الشعب في موريتانيا للعودة الى دائرة الوطن المراكشي (١) .

وشارك مشاركة فعالة في الجهود الرامية للقضاء على حدة التوتر
في العالم ودعم السلام العالمي على أساس تأكيد حقوق الانسان والاستقلال
الوطني للشعوب ومواد ميثاق الامم المتحدة ونجد هذه الروح نفسها وهذا
الطموح نفسه لدى الزعماء الافريقيين الآخرين فهم يطالبون بحق مشاركتهم
ياستشارتهم في جميع اشئون العالمية .. فلماذا يعلقون أهمية اكبر على
مثل هذا الامر يا ترى ؟

ذلك لانهم ظلوا مبعدين عن هذا كله زمنا طويلا .

(١) في تصريح لمحمد الخامس في أثناء زيارته الرسمية للعراق .

توم مېوړيا
زېم نځای ته ښایه یستغله فرسته

« ثمة حقيقتان خاصتان فى افريقية لكنهما متعارضتان يساء فهمهما خارج القارة هما :

« الاختلاف الهائل بين الافريقيين الوطنيين فى الاساليب وبين توافق وتضامن أهدافهم وغاياتهم » .

توم مبوبيا كينيا تواجه المستقبل

للمرء أن يحترم انسانا أو يحتقره فهذا مرده له وللظروف المحيطة به والحق أشهد أنى كنت أحتقر توم مبوبيا عندما قابلته للمرة الاولى فى عاصمة كينيا « نيروبي » (عدد سكانها مائة ألف نسمة) فى دائرة الشباب السياسيين وذلك عندما هب مدليا بتصريحات معادية للانجليز والبيض كافة ، وقلت : يا الهى .

ان هذا واحد من أولئك الذين يشعلون نار الكراهية وينادون بالوطنية ممن ألقاهم هنا مرارا .

وكان فى ذلك الحين مرتديا بنطلونا رياضيا رمادى اللون وقميصا رياضيا مفتوح الصدر له مظهر الرياضى المحترف أكثر من مظهر الرجل السياسى الذى يسعى لتحقيق أهدافه الوطنية .

الفهد

وكانت مقابلتى الاخيرة معه فى اكرا فى أثناء انعقاد مؤتمر الشعوب الافريقية وقد جمع بينى وبينه أصدقاء من طلبة جامعة اخيموتا فى حفل

خلوى دعى اليه رئيس الوزراء نكروما حيث رأيتة قد وقف وحيدا بعيدا
عن زحمة اُضيوف الوطنيين ممسكا بيده كوبا من عصير الفاكهة ، فكان
أشبه شىء بفتى يافع يعانى لوعة الغرام التى دفعت به الى هذا الانزواء
والبعد عن الضوضاء .

انه يبدو كذلك لاول وهلة ولكنى ما لبثت أن أدركت أنه ليس لدى
هذا اليافع مظهرا وقت لغير أفريقية ، أفريقية التى نقشها حفرا على خاتمه
الكبير الذى يزين أصبعه واذا كان هذا الخاتم هو رمز الزواج فان عروسه
هى افريقية !

واذا تأملت وجهه فانك واجد فيه سمات الفهد ، الفهد الذى يخلد
الى العزلة ، ولا ينقض الا فى اللحظة الحاسمة .

انه توم مبوبيا ، حقا ، لقد عرفته مرة قبل اليوم ، لقد تغير .

تقدمت اليه مجددا تعارفنا ومهنئا له على خطبته التى أنقأها فى
المؤتمر بلغته الانجليزية السليمة ، وقد تأثرت من مناقشاته فى أنساء
رياسته للمؤتمر فقد كان صريحا واضحا ومركزا للنقاش فى لب الموضوع ،
ويمكننى الآن أن أصف بخصيته الواضحة المعالم بأنها : الاستراتيجية ،
والترتيب ، والنظام .

وبعد فترة من الحديث الودى أيقنت أنه لا يحمل أية ضغينة لى وان
كان من ناحية المبدأ ضد جميع البيض ، ودار حديثنا أيضا حول حكومة
كينيا وأفرادها المتعددة الاجناس فكان تعليقه على قولى كطلقات نارية
مصوبة الى ، فأسرعت بالانتقال الى الحديث عن المجتمع الكابرى كوين
الذى يتخذ حمار الوحش شعارا ، وقلت :

ربما استطاعت افريقية أن تفوز اذا ما تعايش السود والبيض فيها
جنباً الى جنب .

الا أن توم مبوبيا الذى كان له رأى آخر زمجر كالفهد وقد ازدادت
عيناه الضيقتان ضيقا وقال :

— آه ! خدعة مشروطة ، نعم لكى تطول سعادة البيض .

والحق أقول : ان توم مبوبيا لم يكن مسالما ولاسيما فى أثناء الجلسة
الختامية للمؤتمر فقد ارتفع صوته ديما جوجيا كنكروما عندما يخطب فى
شعبه ، وقال :

(أوربا أمس وأفريقية اليوم ، ارفعوا أيديكم عن افريقية ، فليخرج
الاوربيون من افريقية ، فليثأر الافريقيون لانفسهم)

وقد قابلته مرة في أكرا في ساعة متأخرة من الليل مع أحد وزراء غانا في حديقة للرقص الوطني وراقصت سيدة افريقية من أحد الوفود ، وكان الوزراء الغانيون على غاية المودة كما كانوا يرتقبون المدى الذي وصلت اليه من الاجتهاد في الرقص الوطني وحياني توم مبيوا ورمي الافريقية التي رقصت معي بنظرة احتقار لمراقصتها رجلا أبيض ، وكان يشرب عصير الفاكهة بدلا من المشروبات الكحولية التي يتحاشاها الى جانب عدم التدخين وتدل ميوله الشديدة الى مشاهدة أفلام رعاية البقر والافلام البوليسية المئيرة على أنه رجل متعب لمن يتصل به .

سبع سنوات في حالة طوارئ

تشكل كينيا مع أوغندا أو تنجانيقا شرفى افريقية البريطانية وفي الوقت الذي فيه كسب الالماني دكتور كاربيترس مناطق شرقى افريقية الامبراطورية للقيصر في عام ١٨٨٥ ، بدأ الانجليز في الاسسعمار هنا وأعطيت شركة افريقية البريطانية خطاب ضمان لاستغلال منطقة كينيا الحالية .

وقد استولى التاج البريطانى على حكم كينيا في عام ١٨٩٥ (مساحتها ٥٨٢٦٤٠ كم وسكانها ٤٥٠٠٠٠ نسمة منهم ٢٥٠٠٠٠ آسيوى وهندى وجواندى و ٧٥٠٠٠ أوروبى و ٣٣٠٠٠ عربى) وقد تطورت البلاد تطورا سريعا ، ونسبة الانجليز في تعداد السكان ٩٪ فقط يشتغلون بالزراعة وتربية الماشية ، واستولوا تدريجيا على جميع أراضى الوطنيين الزراعيية الخصبة .

وفى عام ١٩٤٨ بهر العالم عندما نشرت وكالات الانباء للمرة الاولى أنباء عن حرب الماوماو المفزعة وهى الحرب التى نشبت نتيجة لعدم رضا زعماء القبائل وخاصة قبيلة الكيكويو عن الحكومة البريطانية ونتيجة لانتشار الجوع فى البلاد بمناسبة استيلاء الانجليز على جميع الاراضى الجيدة الصالحة للزراعة وتربية الماشية بالاضافة الى الاراضى العليا الباقية التى احتفظ بها دون استثناء للمستوطنين البيض مما دفع بالافريقيين الى النظر فى هذا الوضع كرمز حافز للسود الى كراهية البيض وبغضهم .

وفى اكتوبر عام ١٩٥٨ أعلن لأول مرة أنه ينبغي على عليية القوم فى البلاد من المستوطنين من كل الاجناس أن يعلنوا أنهم سيكونون مستقبلا زارعين طبيين .

ولقد جلبت حركة الماوماو الكثير من المأسى والاحزان للمواطنين

جميعا من سود وبيض الى حد يجعل عن الوصف، وقد ألغيت حالة الطوارئ،
التي استمرت سبع سنوات حتى يناير عام ١٩٦٠ ، ثم أعلن ماكلويد وزير
المستعمرات البريطاني أنه على المرء تصفية الحساب السيء للسنوات السبع
الماضية وذلك لتشجيع شعب كينيا على التعاون في المستقبل على أساس
تقدير حقوق الجميع .

وهكذا لم تستمر حالة الطوارئ وما تشمله من الاوامر الصارمة ،
وأعلن اباحة تحرير النشرات المحلية وتجديد تراخيص الصحف والغناء
البطاقات الاضطرارية للكيكيويو التي حددت اقامتهم في قراهم ، وأظهر
الحاكم العام نيته الحسنة باطلاق سراح ألفين وخمسمائة شخص تقريبا
خلال الاسابيع الستة التالية لممارسة سلطاته من بينهم مائة وعشرون من
المالوماو منهم ستة عشر شخصا ثبتت عليهم جريمة القتل ، وهؤلاء يظلون
محجوزين حتى يرد اعتبارهم فيطلق سراحهم .

ومن المحجوزين أيضا ستة من رجال القانون الافريقيين أو من
المواطنين الرسميين الذين ارتكبوا أعمالا وحشية ضد أتباع المالوماو في
أماكن أخرى .

انتهت مآسى الحسبة السياسية في شرقي افريقية البريطانية .

وقد أشرت على صفحات الكتاب الذي شمل الجزائر الى أن المسئولين
الأوائل عن الاضطرابات في كينيا هم المستوطنون ، مثلهم في ذلك مثل
المستوطنين في الجزائر .

ويبدو أن الحكومة الانجليزية قد تفهمت حقيقة الحالة المستعصية،
وأرادت أن تتجنب عواقبها في آخر لحظة حتى لا يحدث من ورائها ما حدث
في الجزائر حيث وصلت الحرب الوطنية في الجزائر الى مرتبة الحرب
النظامية على حين لم تكن قد وصلت الى المرتبة نفسها بين الخصمين في
كينيا ، ولقد خشي الانجليز أن يدفعوا ثمن مظالمهم وتعصبهم ، فلم يتركوا
الفرصة للشوار لتطويع حريهم كما حدث في الجزائر ، هذا وقد باع بعض
الانجليز منذ فترة طويلة مزارعهم وغادروا البلاد لانهم لم يعودوا يثقون
في مستقبل آمن في كينيا وحتى من بقى منهم في كينيا لم يعد يتجه الى
استعمال العنف على نقيض الحال في أثناء وجود حالة الطوارئ .

وسينسى الافريقيون يوما ما حدث في هذه البلاد ويجب على سياستهم
ومن بينهم توم مبيوا ، أن يقنعوا بما جرى بارادتهم أو على الرغم منهم .

يكتب على الرمال

ولد توم مبيويا فى الاراضى العليا من كينيا فى عام ١٩٣٠ فى كوخ أحد العمال ، مجدولة حواجزه من البامبو ، أقيم على أرض فلاح غنى من الانجليز وهو ليس من قبيلة الكيكويو بل يعتبر من قبيلة ليو ، وتعتبر القبيلة الثانية فى البلاد ولم يكن والداه يعرفان القراءة والكتابة وهو نفسه يقول : اننى ولدت على الجانب المظلم من الحياة .

وكان والده معجبا بالرجل الابيض وربما كان يخشاه أكثر مما يعجب به وقد أخذ فى تنشئة ابنه على التعاون مع الرجل الابيض فى جميع الاحوال ضمانا لحياته .

وكان والد توم مبيويا طموحا فكان لا يفتأ يقول : « انه ينبغي أن يصبح الفتى شيئا أكثر من مجرد عامل زراعى » ولهذا فقد أرسل ابنه الى مدرسة الارسالية الرومانية الكاثوليكية التى تبعد عن المزرعة خمسة وعشرين ميلا ، وهناك كان يقوم بالتدريس قس ايرلندى يؤدى عمله فى ظل ظروف بدائية فلا توجد فصول كافية ولا سبورات ولا كتب للتعليم ، فكان الاطفال يكتبون الحروف الهجائية بأصابعهم على الرمال وبهذه الطريقة تعلم توم مبيويا القراءة والكتابة ، وكان يبلغ من العمر تسع سنوات آن ذاك ، ومن مركز الارسالية المذكورة ذهب الى مدرسة سانت ماري بالقرب من بحيرة فكتوريا .

وهناك تلقى تعليمه الاولى فى اللغة الانجليزية ، وحيثما كان تلميذا لم يكن يعجب بشيء معين اللهم الا بولوعه بالغناء والمناقشة ، وما زال معلم المدرسة يروى عنه المسألة وكان يرفض استخدام القوة ، ولذلك فانه لم يتعارض مع زملائه مطلقا ، وكذلك كان يعجب بعظماء الرجال ، فكتب حينما كان طالبا بالارسالية موضوعا انشائيا مثيرا عن نابليون ذلك الرجل الذى حارب العالم كله .

وبعد ذلك درس التاريخ فى كلية هولى جوست العالية فى مانجو وكان مثله الأعلى فى ذلك الحين ابراهيم لنكولن هذا الرجل الذى شق طريقه فتحول من فتى من فتيان الكويكر (الفداء) الى رئيس لامريكا ، وكذلك أعجب بنوكر واشنطن الذى ولد فقيرا فى ظل العبودية ولكنه ما لبث أن أصبح من أوائل المربين والزعماء الزوج الامريكيين ، وقد نظر المبشرون الى هذا الفتى بارتياح لكثرة قراءاته وشغفه بالتاريخ على وجه الخصوص فهل يا ترى توسموا فيه فتى الثورة المنتظر ؟

وقد أراد توم مبيويا أن يلتحق بقسم دراسة اللاهوت الا أن الكنيسة

رفضت قبوله ، فأحس بخيبة أمل كبيرة وحز في نفسه هذا الرفض الذي اعتبره لونا من ألوان التعسف الاستعماري ما دامت الكنيسة تريد الاحتفاظ بالوضع الراهن كما هو فلا تقبل من السود أحدا وقد روى فيما بعد : « اننى أشعر دائما أننى كاثوليكي . ولكن مشاعري تجاه الكنيسة تتركز فى أننى من المتشككين نتيجة لما لاقيته عندما أردت أن أكون يوما من رجالها » .

ولم يستطع المداومة على الذهاب الى كلية هولى جوست طويلا وذلك لانه استنفد ما كان لديه من نقود حصل عليها أجرا بائسا كعامل زراعى ، فماذا عساه أن يفعل ؟

شارك توم مبيويا فى العمل بالصحة فى نيروبي لمدة ثلاث سنوات ، وفى هذا الوقت استمع الى خطب الوطنى جوموكينيا تا السياسية (ولد فى عام ١٨٩٣ وقد حكم عليه بالاشغال الشاقة فيما بعد لكونه المسئول الرئيسى عن ثورة الماوماو) وكان لهذه الخطب ، والنداءات أثرها النارى المشتعل فى نفس توم مبيويا الرجل الاجتماعى والسياسى الطموح، وسرعان ما تراه يقول : « لقد تبينت الفارق بين الجنيهاات العشرة التى أحصل عليها شهريا نظير عملى المضنى على حين يحصل زميلى المفتش الاوربى الذى لا يعمل أكثر منى على خمسة أضعاف ما أحصل عليه تقريبا ! »

ومنذ هذا الوقت وهو يعيد رواية هذه القصة المثيرة التى تتلخص فى أن احدى الانجليزيات جاءت ذات يوم الى مصلحة الصحة لفحص زجاجة من اللبن ، وكان توم مبيويا وحيدا فى العمل ، فسألت الانجليزية قائلة: أليس هنا أحد؟ فأجاب توم مبيويا : يجب ألا يغيب عن عينيك شىء ياسيدتى . فغادرت الانجليزية مصلحة الصحة وهى تتمتم بألفاظ غير مهذبة تعليقا على قول هذا الشاب الاسمر الجرىء .

فى نقابات العمال

وسرعان ماضاق وقته بعمله كمفتش للصحة ، فقد اجتذبتة اسيااسة الى تيارها وكان يرى مثله الاعلى فى جوموكينيا تا ، الذى سافر الى انجلترا عام ١٩٢٩ وأقام بها خمس عشرة سنة ، ثم أمضى سنتين فى موسكو عاد بعدهما فى سنة ١٩٤٧ الى كينيا حيث أطلقت خطاباتة النارية عقال ثورة الماوماو ، على حين لا يذكر هو شيئا عن مدى اشتراكه فى أعمال العنف .

وأصبح توم مبيويا عضوا فى اتحاد افريقية الكينى ، الذى يتزعمه جومو كينيا تا ، ومن المعترف به أنه لم يشارك مباشرة فى أعمال العنف ،

وعندما قبض على كينيياتا ، تولى والتر أويدي رئاسة اتحاد كينيا الافريقى فأسند الى توم مبيويا ادارة العلاقات العامة ، وعندما قبض على أويدي أصبح توم مبيويا فى عام ١٩٥٣. رئيس اتحاد كينيا الافريقى فقام بجمع المال اللازم للدفاع عن كينيياتا والافراج عنه، ثم تقابل كينيياتا مع توم مبيويا فى معتقله لهذا الغرض فلم ينل رضاه واعجابه برغم ما فعل ، وظل مبيويا على مبدئه فناضل فى دأب لاطلاق سراح كينيياتا ، محاولا جمع الادلة على أن كينيياتا لا يحمل أى وزر فيما يتعلق بأعمال الماوماو ولذلك فهو يطالب بإطلاق سراحه .

وفيما يدور حول موضوع الماوماو ، قال توم مبيويا : « يربط الكثيرون بين كينيياتا وبين ما حدث عند الماوماو من أعمال تعتبر رد الفعل الطبيعى لما يشعرون به من الظلم الاجتماعى والاقتصادى الاوروبى ضدنا نحن الافريقيين ، وبرغم أننى وكذلك غيرى من الزعماء السياسيين الافريقيين لا نميل الى الارهاب ولا أعمال العنف والقوة كوسيلة للوصول الى الغايات السياسية ، فانى فى الوقت نفسه أريد أن أعلن احتجاجى على وسائل الضغط والظلم والوحشية التى أراد الاوروبيون القضاء بها على الشعب القضاء الحاسم باسم قمع أعمال الارهاب مما أدى الى تحطيم الآلاف من أسر الافريقيين الابرياء الذين سيقوا الى معسكرات الاعتقال كقطيع من الماشية . فضلا عن الآلاف الكثيرة التى استشهدت بفعل هذه الحفنة من الاوروبيين .

وكرر القول بأننى لا أؤيد أعمال القوة فى ظل النتائج الاخيرة ولكن يجب على المرء المنصف أن يحمل المستوطنين الاوروبيين مسئولية ما وصلت اليه الحال .»

وبعد ما تم القبض على جميع زعماء الاتحاد الافريقى الكينى ، توقع توم مبيويا لنفسه هذا المصير ، وظل الوطنى الوحيد الذى لم يعتقل فكرس نفسه لتدعيم اتحاد منظمات العمال الذى ضمه الى اتحاد عمال كينيا ، وأصبح السكرتير العام له ، ذلك أن الاتحاد الافريقى الكينى قد منع فى صيف عام ١٩٥٣ من مزاوله نشاط سياسى ، ولهذا كانت هذه النقابات أهم مراكز التجمع للوطنيين الافريقيين يمارسون فيها نشاطهم .

وفى عام ١٩٥٤ سرى العمل بدستور « لينيلتون » ولم يحصل الافريقيون على أية سلطات برغم جميع الضمانات : فمن بين ممثلى الشعب الستة فى مجلس الوزراء كان ثلاثة أوروبيين وهنديان وأفريقى واحد ، ولذا رفض توم مبيويا مواصلة التعاون مع الحكومة وأدار معارضة ايجابية، وكان هدفه فى ذلك الوقت يتلخص فى أن كل بالغ ناخب ، وكل ناخب له صوت «والم يستطع تنفيذ ذلك حتى فى مؤتمر الدستور عام ١٩٦٠ .

... وأراد توم مبيوا استغلال الوقت الميثوس منه ، ولقى مساعدة من النقابيين الاجانب الذين مدوا له يد المساعدة بالنصح والمال : ففي عام ١٩٥٤ أرسله الاتحاد الدولي لاتحاد نقابات العمال الاحرار في بعثة دراسية الى الهند فأقبل على الدراسة في جد ، وعلاوة على ذلك فقد عقد اتصالات مع زعماء النقابات الهندية والامريكية في أثناء اقامته في كلكتا ، وفي السنوات الاخيرة اكتسب منحة لكلية روسكين في اكسفورد حيث درس العامل الزراعي الذي تعلم الكتابة على الرمال على أيدي أساتذة بارزين مثل ج . د . ه . كول وكينيث رويتون وهارولد لاسكي ، وبعد سنة من الإقامة في أكسفورد قام ابن السادسة والعشرين برحلة لالقاء المحاضرات خلال أمريكا ، ووثق اتصالاته مع زعماء نقابات العمال الامريكيين ووسعها ، وبجانب ذلك جمع خمسة وثلاثين ألفا من الدولارات ، لتشيد مبنى جديد لاتحاد نقابات العمال في نيروبي .

وفي عام ١٩٥٩ منحته جامعة هارفارد درجة الدكتوراه في القانون. وأصبح في كينيا رئيسا لحزب التجمع النيروبي ، وعضوا بمجلس كينيا التشريعي ضمن أعضاء منتخبين لأول مرة ، ويرجع فوز توم مبيوا في المعركة الانتخابية الى خطبه المتفجرة ، ولم يفرح توم مبيوا بدخوله الى المجلس التشريعي المكون من ثمانية عشر عضوا بينهم ثمانية من الافريقيين ، وقد استدعى الى لندن لعضوية مجلس المستعمرات ، ولكن النجاح تخلى عنه ، لكنه ، سرعان ما استعاد نجاحه بعد سنوات في مؤتمر كينيا عام ١٩٦٠ .

وجهة النظر الافريقية

وقدم « توم مبيوا » تقريراً تفصيلياً الى اللجنة الامريكية لافريقية ضمن كتابه « كينيا تواجه المستقبل » أبان فيه وجهة النظر الافريقية عن الوضع في كينيا . وهو عمل يمتاز بالوضوح المفصل في أسلوب مليء بالحياة ، ولو أنه لم يحظ من الانجليز بخسن القبول ، في الوقت الذي شعر فيه الامريكيون بالحجل لما جاء فيه منسوباً للاوروبيين .

وفيه يشكو توم مبيوا من أن جميع معلومات الاوروبيين عن وجهة النظر الافريقية وموقفها من الاتجاهات السياسية لا تخرج بوجه عام عن آراء المستوطنين الاوروبيين وعملاء وكالات الانباء الاوربية ، ولهذا جاءت مغرضة تجافى الحقيقة ، فضلا عما أصاب الافريقيين من سوء المعاملة كعمال مرتزقين يشكون وضعا ليس لهم حق الشكوى منه !! وقد حاولت أن أكون هادفا وعادلا ، ولكن تعرضت لسيل من السباب والشتائم ، ثم تطورت الحال هذه ، فاتخذت شكلا جديدا يتلخص في أننا خونة لا شرف.

لنا ، أما أنا شخصيا فقد اتهمت بأني ذو وجهين أتحدث بصوتين : أحدهما حلو للندن ، والآخر متعصب لافريقية !

وان هذه الادعاءات أقاصيص مسلية لو أنها لم تؤد الى زيادة الموقف المتوتر حدة وسوءا ، أما فيما يختص بادعاء اللاموضوعية الاخير ، فاني أقول : ان أى بحث لموقف الاعضاء الافريقيين وموقفى بصفة خاصة خلال السنتين الاخيرتين يوضح الموقف الافريقى فى مجموعه أما النظر الى مشاكلنا على أساس اللاموضوعية لهذا فمرجعه ولاشك من خوف الاوربيين والحكومة البريطانية بسياستها المعارضة لجميع مطالب وحقوق البلدان الافريقية على اختلافها ، أما نحن فأهدافنا واضحة وذات موضوع تتلخص فى «المطالبة بتطوير كينيا الى الديمقراطية مع تساوى الافراد فى الفرص والحقوق دون النظر الى العنصر أو اللون أو العقيدة » .

فنحن ما زلنا نذكر أن الاعضاء الافريقيين طالبوا فى عام ١٩٥٧ بخمسة عشر مقعدا أو تزيد للافريقيين ولم يطالبوا قط بتقليل مقاعد الاوربيين أو الاسيويين بل على العكس يسلمون بحق الاسيويين فى المقاعد ، وقد أوضح الاعضاء الافريقيون مقترحاتهم التى يمكن أن تؤدى الى تلطيف حدة التوتر ، وذلك فى كتاب لهم الى مستر لينوكس بويد الحاكم العام ، هذه المقترحات التى ذكروا فيها ضرورة التمثيل للافريقيين ، كما ذكروا البون العددى الشاسع بين الاوربيين والافريقيين ، وأن الواجب يقضى بأن يوضع فى حساب المشكلات التى تعترض طريق التعامل الطيب بين الطرفين مبدأ الانصاف ، فيكون للمواطن الافريقى حق الانتخاب ، وذلك لان التمثيل الحالى لا يمكن أن يؤدى الى خير المواطنين .

ولم تكن هذه المقترحات حكيمة بالنسبة لنا فحسب ، بل كانت تهدف الى رفع عدد الخمسة عشر مقعدا بدلا من التمثيل النسبى ، وكنا نرمى دائما الى انقاذ الوعى القومى وخلق جو من التعاون والوفاق ، وعندما أعلن الاعضاء العرب والآسيويون تأييدهم المطلق لتدعيم التمثيل الافريقى اعتبر الاوربيون هذه المقترحات محاولة ووسيلة للوصول الى السلطة .

أما موقفنا تجاه الاراضى العليا البيضاء ، فيتلخص فى أن علينا أن نتغلب على فوضى توزيع الاراضى ، هذه الفوضى التى تحول بيننا وبين التعلق بأى أمل فى التطور نحو علاقات أفريقية أوربية سعيدة ، ما دمنا نرى شعبنا حين ينتقل بالقطار أو الاتوبيس من المناطق الجافة المزدحمة بالسكان ينمى فى رضى أن المساحات الواسعة من الاراضى غير المزروعة محجوزة للبيض دون أبناء البلاد .

لا شك أن هذا الوضع يثير الغضب والحقد والكراهية نحو أولئك الذين على قلتهم نسبيا يختصون بهذه الاراضى الواسعة .

وطبقا لاقتناعنا بأنه لا يمكن الدفاع عن مبدأ الاستفاظ بهذه المساحات الواسعة بحالتها التي أشرت إليها ، سواء على أساس اقتصادى أو سياسى أو اخلاقى ، فإنه لا مناص من صدور قانون اصلاح زراعى يقضى بنزع أجزاء من أراضى الملاك الكبار وتوزيعها على صغار الزارعين مع تعويض الملاك الحاليين بطريقة تتفق مع مصلحة البلاد ، وبكيفية يرتضيها كلا الجانبين .

وعلى الرغم من الكتب الاستفزازية للمستتر لينوكس بويد «والصحافة المحلية» فقد تحاشى الاعضاء الافريقيون المنتخبون منذ عام ١٩٥٧ كل المناقشات التى تؤدى الى انهيار المفاوضات الجارية . وفى المجلس التشريعى قام الاعضاء الافريقيون من وقت لآخر بتقديم اقتراحات خاصة بالمشاكل السياسية المختلفة ، وكان التأييد آتيا من جانب الآسيويين دائما لا من الاوربيين .

وقد ظل الاعضاء الافريقيون قابعين خلال بضعة أسابيع ، حتى أصدروا كتابا سياسيا يتضمن مقترحات بشأن الاصلاح الدستورى ، وقد جاء به : أن الهدف الاخير من اصداره هو الوصول الى الديمقراطية التى لا بد لتحقيقها من احداث تطور انتقالى ، وقدم الكتاب الى الحاكم العام والى وزير المستعمرات ، وأنقضت شهور أربعة دون صدور كلمة بشأن ما جاء به وعلى الرغم من أهمية الكتاب فقد لاذ الزعماء الاوربيون بالصمت ، وآثروا أن نمسك بزمام المبادرة ، فقمنا بزيارة لمبنى الحكومة فى سبتمبر وأكتوبر ، وأخيرا فى نوفمبر قرأنا ردا سريعا يصدره وزير المستعمرات مستر لينوكس بويد ، وكان هذا الرد رفض طلب الاعضاء الافريقيين لمؤتمر المائدة المستديرة وأن مجمل موقفه يتلخص فى الآتى :

« يجب أن يخضع الدستور للمعاهدة ، ويؤكد مشاركة جميع الاجناس ، وينبغى أن يتضمن كذلك احترام الاقليات ، وأن يرفع التمثيل العام ، ولكن دون النص على أن يكون التمثيل مرتبطا بالجنس » .

وهكذا أظهرت المذكرة السياسية والمقترحات الدستورية فى يوليو أن جميع الرغبات تناسب مستر لينوكس بويد ، وأنه اذا ما كانت ثمة اختلافات فانها تدور حول التفاصيل التى يمكن التغلب عليها فى مؤتمر المائدة المستديرة ، وباستعراض ما تقدم فإنه لا يمكن استشفاف رغبة الافريقيين فى عدم التوفيق أو عدم الموافقة التى تهدف الى تأكيد مخاوف ومصالح الجاليات الاخرى . ان الذنب ربما يقع على عاتق الحفنة الحالية من الاوربيين الذين طالما قاوموا كل اقتراح قدمه الافريقيون منذ عام ١٩٥٧ ليحولوا دون أى تغيير فى النظام القائم .

كينيا المستقبل

وقد قام «توم مبيويا» فى كتابه بمحاولة لاطهار تكهنات المستقبل ، فوضع منهجا غير مقسم للديمقراطية قائلا : ان فى رأى أن زعامة المجتمع الاوروبى الحاطئة وسياسة الحكومة البريطانية ، ليستا مسئولتين عن الازمة السياسية المستمرة فحسب، بل انهما عملتا مع الاسف بوحى من مصالحهما الخاصة . وفى الوقت الحالى استأثر كثير من الاوربيين بامتيازات خاصة فضلا عن وضعهم السياسى . وهم يعملون تماما أنه لا يمكن الاحتفاظ بالحالة الراهنة فى البلاد الى الابد ، وأن الوضع الحالى لا بد أن يتغير ، ولكنهم لا يعلمون على وجه الدقة أى وضع يمكن أن يحل محله ، هذا بالاضافة الى أنهم لا يستسيغون أن يطالب الافريقيون الكينيون بحساب ورفع المظالم السابق وقوعهم تحتها .

« ان حركة التغيير الشامل لافريقية كلها بما فيها من كينيا لا يمكن الوقوف فى طريقها ، انها حركة سائرة يعلمها الافريقيون والبلاد الافريقية جميعا ، وانى أرى أن مكتب الاستعمار سوف يصدر قريبا قرارا صريحا بتهيئة كينيا للديمقراطية الحق ، وعندئذ سيظهر دور العناصر الحرة فى المجتمع ويخسر المعتصبون المعركة » .

« لقد تدمر الاوربيون عندما علموا أخيرا بلزوم الديمقراطية وأنها فى كينيا ستعود بالفائدة على أغلبية الافريقيين فى كل نواحي الحياة » عجباً ! ماذا يمكن أن تعنى الديمقراطية اذن فى بلد يضم ستة ملايين من الافريقيين ومائتى ألف من غير الافريقيين ؟ ان الشئ الاهم هو ضمان حقوق المواطن ، ولذا يجب أن يتعلم الافريقيون وغير الافريقيين حق الفرد بدلا من الجماعات ، ذلك لان الديمقراطية تعترف بالفردية ، على عكس ما هو جار بين الجماعات الحالية ! انها تبحث عن التكامل فيما بينها بدلا من المشاركة مع الآخرين . وانها ستحافظ على الحقوق المدنية للفرد ، وستحميها بدلا من حماية الاقلية والامتيازات الجماعية . وستسقط جميع ألوان التفرقة العنصرية بدلا من التنقل بين تكات فارغة مختلفة لتعليقها كما يحدث الآن فى المدارس والريف وفى الخدمات الطبية والاماكن العامة ، ولسوف تضمن حقوق الملكية الفردية ، وتطمح انى النظام الاجتماعى والاقتصادى الذى يعد حقا متساويا للمجتمع كله ، وتصبح مشاكلنا فى الوضع الصحيح الذى يعمل على انهاءها ، سواء آكانت هذه المشاكل افريقية أم أوروبية أم آسيوية ، اقتصادية كانت أم اجتماعية ، هذا ما نقصده بالديمقراطية لكينيا ولا بد أن تكون للديمقراطية اليد العليا » .

ترى ماذا كان يمكن أن يقول والد «توم مبيويا» ذلك العامل الزراعى

الفقر الذى كان يخشى الأوربيين اذا ما كان على قيد الحياة وسمع ابنه يتحدث بهذه الطريقة ؟

ان القضية الثورية التى وجدت فيها افريقية تنعكس بوضوح فى هذا التعارض بين أب وابنه من عائلة عاملة فى الاراضى العليا البيضاء .

مؤتمر دستور عام ١٩٦٠

فى ٢١ من فبراير عام ١٩٦٠ انتهى المؤتمر الدستورى لكينيا المنعقد فى لندن والذى استمر أسابيع أربعة وتهدد بالانهيار أكثر من مرة ، وذلك لان بيتر كيبوانس أحد رجال جومو كينيا تا الموثوق بهم طالب بترك باب المفاوضات حين اتهم الانجليز ابن رئيس القبيلة بأنه حرض على ثورة الماوماو .

وعلى الرغم من هذه الازمة فان أسبوع مقاطعة الافريقيين للمؤتمر لم ينته بالنجاح بفضل قيادة « توم مبيوا » لاعضاء الوفد الافريقى الاربعة عشر مع زميله رونالد نجات .

وهنا ينبغى الانحشاء احتراما للتطور السريع الذى حدث : ذلك أن المستوطنين الاوربيين الذين كانوا ساخطين على مؤتمر كينيا ، قد أصيبوا بخيبة أمل شديد حين أعلن الكابتن « للويلين » ر . ر . بيرجس ، زعيم حزب الاتحاد البريطانى اليميني المتطرف أن المجتمع الاوربى فى كينيا قد أصيب بانضربة القاتلة . أما « ميخائيل بلوندل » زعيم البيض المتحررين القادرين على التوفيق والزعيم لحزب كينيا الجديد الأكثر تعصبا ، فقد وجد أن من العسير مستقبلا أن يخفف تطرف أتباعه البيض . هذا وقد انتقد راديو موسكو توم مبيوا وحركة كينيا الاستقلالية الجديدة بالتساهل الشديد برغم أن المتعصبين فى داخل حزبه يثورون ضده .

وفى عام ١٩٦٠/١٩٦١ حصلت كينيا على دستور جديد ، وتولى أعضاء افريقيون مناصب وزارية أخرى فى مجلس وزراء كينيا الذى يحكم مؤقتا . وأصبح من المفروض أن تكون للافريقيين فى المستقبل أغلبية ساحقة فى البرلمان (سبعة وثلاثون مقعدا من خمسة وستين مقعدا) ، أما العدد الحالى للاعضاء الآسيويين فقد ظل بدون تغيير الامر الذى يعد ظلما للآسيويين ، وبرغم ذلك فقد حصل الآسيويون والمهاجرون البيض على حقوق ازاء الافريقيين .

وفى نطاق الدستور اتسع حق الانتخاب اتساعا حاسما ، هذا الحق الذى كان يهتم الآن بأغلبية أوربية فى المجلس التشريعى ففى بداية

عام ١٩٦١ عند الانتخابات سيكون لكل مواطن في كينيا يستطيع القراءة والكتابة أو موظف يبلغ دخله السنوي خمسة وسبعين جنيها على الأقل. حق التصويت ، على أن يكون تمثيل الأقليات الأوربية والآسيوية مطابقا في عدد المقاعد لعدد المواطنين بجانب الأغلبية الأفريقية ، وهكذا. دخلت كينيا في مرحلة واضحة لنقل السلطة من الأقلية البيضاء إلى الأغلبية السوداء .

وعلى الرغم من ذلك فقد علقت «التايمز» على صحة المؤتمر ولكنها لم تحدد المسائل السياسية الدستورية في كينيا إنما اتجهت إلى الحديث عن ملكية الأرض ، والواضح أن التايمز لم تنص في ختام مقالها على « المستوطنين البيض » ذلك لأن الفلاحين الصغار هم الذين يعملون عملا شاقا لا التجار ولا المؤسسات الكبيرة ، إذ أنهم على الأقل في موقف يسمح لهم بتحمل الخسائر إذا أرادوا مغادرة البلاد ، ففي أوائل عام ١٩٦٠ عرضت ستمائة مزرعة للبيع .

وقد كرر توم مبيوا في خطبه المختلفة إلى مندوبي الشعوب الأفريقية في أكرا « رفضه لاستعمال القوة » ونظرا لهذا فقد بقي المرء ينتظر هل توم مبيوا سيظل على سياسة عدم استعمال القوة حتى استقلال كينيا الذي لا بد أن يحل في وقت قريب ؟ ثم كيف سيكون موقفه هو نفسه عندما تستقل كينيا قريبا في سنة ١٩٦٢ أو ٦٣ ، أو ٦٤ ؟

أوهورا

في الاستاد الرياضي الأفريقي في نيروبي وقف عشرون ألف أفريقي متحمسون يهتفون باللهجة السواحلية « أوهورا » وتعني « الحرية » يحيون توم مبيوا عند عودته من مؤتمر الدستور في لندن ، فعلى الرغم من أن السياسي زعيم نقابات العمال الذي تجاوز سن الثلاثين ، لم يصل إلى هدفه النهائي ، وهو تحقيق الحرية والاستقلال العاجلين فإنه كسب لبلاده مزايا سياسية ملحوظة .

فهل يمكن أن يصبح توم مبيوا رئيسا للوزراء يوما ما ؟ ربما ، ولكن هذا مما لا يمكن التكهّن به ، فعلى الرغم من أن المرء يعجب به لا يحبه كثيرا ، وهو لم يوثق اتصالات خاصة محدودة مع شعبه بالرغم من نشأته في طبقات الشعب الدنيا ، وهو يقطن مع أخوته الشباب الكثيرين في منزل مستأجر في إحدى ضواحي نيروبي ، وهو ثائر فريد

ليس له اصدقاء خلصاء يرتضون القاء انفسهم في النار من أجله ، فهو انسان منعزل ، ولكنه مع هذا من النابهين المترفعين بين رجال افريقية.. ويشعر توم ان مستقبل حياته لم يتحدد بعد بصورة حاسمة على الرغم من نجاحه غير المحدود ، فمما هو جدير بالملاحظة انه بعد تحرير جوموكينيا سرعان ما سيتقهقر توم مبويا في الغالب ليرك له الزعامة وحده ، وكينيا على العكس منه فانه ليس نابها وان كان قد ألف كتابا عن حياة الكيكويو ، ويمكن ان يلتمس المرء عذرا لتوم مبويا لعناده ودكتاتوريته ، وتصرفاته الثورية وديماجوجيته .

وهو من جانب آخر يعضد جميع المذنيات وخاصة المذنيات الغربية ، وهو على العكس من رفاقه يميل الى أمريكا اكثر من روسيا، انه عندما كان في العاشرة من عمره كان رفاقه واتباعه والأوربيون يقولون: « كلن كل شيء أكثر سهولة » فانه لم يبرز انيابه حتى الآن .

اما صديقه نيري زعيم تنجانيقا فقد تحول من متعصب عنيد الى معتدل مما عاد عليه وعلى بلاده بالشئ الكثير .

والآن يمكن ان يقال : ان « فهد كينيا » يعد من السياسيين الشبان لافريقية اليوم .

ومنذ تدوين هذا الفصل دفعت التطورات كينيا الى أزمة جديدة، فقد تكهن الحاكم البريطاني « سير.ت. باتريك رنسون » بانتهاء القوى الجديدة للتردد الطويل الذي مر به تطور سياسة المستعمرات ، حين اطلقت الحكومة سراح جوموكينيا ، وتهيأت الدلائل كلها منذرة بوقوع كارثة برغم ان تحديد اقامة جوموكينيا في سكن معين قد يكون ضمانا أكيدا بعدم وقوعها . ولدى الحكومة براهين كثيرة على أن كينيا لن يشارك في تحقيق أهداف جميع فئات الشعب . وخاصة في حكومة مستقلة تحصل فيها كل فئة على حقوقها .

وفي أوائل يوليو عام ١٩٦١ أعلن الحاكم اجراءات جديدة لتقييد حرية التنقل بالنسبة لمواطني الكيكويو في الاقليم الأوسط وكذلك في اقليم وادي رفت ونيروبي ، وهذا الموقف ولا شك يدعو الى الظن في عودة حركة الماوماو الى الحياة .

ويتجه الساسة الافريقيون التحرريون الى تأسيس حزب يضم البلاد كلها على غرار النظام التنجانيقي .

فقام الاتحاد الوطني الافريقي الكيني ، وقد انتخب جوموكينيا المنفى رئيسا ، وتوم مبويا سكرتيرا عاما وقد نما حزبه بعد ان كان محدودا في نيروبي ، واصبح جيمس صمويل جيبورو من الكيكويو نائبا

لكينيايتا . وقد ولد في عام ١٩١٢ في ثوجوتو في بقاع كايمبو وهو مسيحي ، وكان حتى ذلك الوقت مدرسا وقد درس في كلية ماكيريري في أوغندا وكان رئيسا لاتحاد كينيا الافريقي ، وقد ظل تحت الرقابة البوليسية منذ بداية حركة الماوماو حتى رفعت عنه لأول مرة في يناير عام ١٩٦٠ . ومنذ ذلك الحين أصبح شخصية هامة ، وقد درست ابنته الكبرى في بوسطن بالولايات المتحدة الامريكية وابنه الأكبر في بومباي .

والشيء الجديد هو أن جسيبورو قد أصبح المنافس الأكبر لتوم مبيوا ، وقد طالب الاتحاد الوطني الافريقي الكيني «الكانو» بصورة مستمرة أكثر من الأحزاب الأخرى الصغيرة بإطلاق سراح كينيايتا والا فانه سيقاطع المباحثات الدستورية وسيقاومها .

وأخير يبدو أن كينيايتا سيقوم في كينيا بدور مماثل لذلك الذي قام به تكتروما في غانا أو باندا في نياسالاند .

ادریس الاول
امیر بنوسی سے یصیر ملکا

من المفهوم أننى سأقيد تقييدا دائما بالدستور الذى يمنح
جميع الليبيين الحقوق المدنية والسياسية بفض النظر عن عقيدتهم
أو مبادئهم ، ما داموا يقومون بواجبهم .

أدريس الأول فى احدى خطب العرش

فى طريق عودة هانس هاسوفون فيلتهام المؤرخ الالماني للروحانيات
« لاسيوية من الهند الى أوروبا فى مارس عام ١٩٣٩ » ، دعاه مارشال
« إيتالو بالبو الحاكم العام الايطالى السابق فى طرابلس الى العشاء فى
الخامس عشر من مارس . وفى أثناء حديثه مع مضيفه أندفع ضابطان
الى الصالة دون مراعاة لقواعد اللياقة وسلماه برقية ، وقد أخبرنى
فيلتهام قائلا : « لقد ابيض وجه بالبو » الأسمر حتى أصبح فى لون
« الطباشير » ، وقد بدا لى وكأن شفتيه ترتعدان ، مما دفع بى الى أن أسأله
قائلا : « يا صاحب السعادة » ، ماذا جرى ؟

وهنا سلمنى بالبو البرقية ، وكانت تحوى خبرا من روما مفاده
أن هتلر قد إكتسح بجيوشه تشيكوسلوفاكيا ، فأعدت البرقية الى
المارشال بلا إكتراث ، فتسلمها بيد مرتجفة ، وقال : « انها النهاية
المحتومة ! »

وفى أثناء تناولنا القهوة بعد ذلك استطعت أن استفسر من المارشال
عما يعنيه بهذه العبارة ، فأوضح قائلا : انها الحرب العالمية التى
سنتهى بفناء المانيا وايطاليا ، ومن ثم ستضع حدا لعملى هنا فى ليبيا .

وبعد ذلك وصلت بنفسى الى طرابلس ، وكان الصديق فيلتهام قد سلمنى توصية الى بالبو واستطعت ان اصل الى حيث انتهى فيلتهام من حديثه ، وقمت برحلة طيران مع بالبو وبعض الضيوف الانجليز فوق مساحة كبيرة من ليبيا ، زرنا خلالها المزارع الأجنبية والقرى والمدن ، لم يكن بالبو شخصا استعماريًا كالآخرين ، فقد انضوى تحت لواء الجيل الناشئ ، وحدد طريقه متأثرا بالمبادئ الاشتراكية الديمقراطية ، علاوة على أنه كان على اطلاع واسع بمزايا الاستعمار ومساويه في العالم ، وقد أخبرنى أنه قد حصل على تقارير حول استعمار الهند الهولندية (اندونيسيا الحالية) ، ورجع كفة النظام الاستعماري الهولندي على كفة الاستعمار الانجليزى الفرنسى .

هذا وقد انتهزت الفرصة لجمع بعض بيانات عن هذه الاماكن الهولندية ، وقد كان من المفيد حقا اننى اكتشفت العكس تماما ، فان الخبراء الهولنديين آن ذاك قد اعترفوا بسياسة الاستيطان التى اتبعها موسولينى فى غير رحمة .

وقد اخضعت طرابلس وبنغازى وحمص عام ١٩١١ فى حرب طرابلس الإيطالية ، وظل الايطاليون يحاربون السنوسى من عام ١٩٢٣ الى ١٩٣١ ، ثم اتحد سكان طرابلس الايطاليون مع سكان سيراينكا فى عام ١٩٣٤ لاستعمار ليبيا ، ولكن بعد أن خسرت ايطاليا الحرب فى عام ١٩٤٥ نزلت عن جميع مستعمراتها وكانت ليبيا التى تبلغ مساحتها ١٧٥٩٤٥٠ كم.م.م اول دولة مستقلة فى افريقية ، اذ حصلت على هذا الاستقلال فى عام ١٩٤٩ على يد الأمم المتحدة .

ويعترف الليبيون أن الفضل فى تحريرهم يرجع الى الأمم المتحدة، ولقد كان ذلك جرأة بالغة منها عندما تعهدت بمنح الحرية والاستقلال لأفقر بلد فى العالم ، ذلك لأن ٩٥٪ من مساحة ليبيا مناطق صحراوية مجربة ، وفوق هذه الأرض القاحلة يقاسى شعب يبلغ تعدادة مليوناً ومائة وستة وثلاثين ألف نسمة الولايات من جراء خسائر الحرب الشديدة ، وقد ساعدت الأمم المتحدة طفلها الصغير بارسال الخبراء الدوليين الذين ما زالوا يعملون حتى اليوم كمستشارين لحكومة هذه المملكة فى جميع وزاراتها محاولين الأخذ بيد هذا الطفل فى سبيل المشى!

حفيد مؤسس الأسرة السنوسية

ان الاسم الكامل للملك ادريس الاول الذى يعتبر أول ملك لىبى هو « السيد محمد ادريس الأول السنوسى » . وقد ولد فى الثانى عشر من مارس عام ١٨٩٢ فى جفبوت وهى واحة فى جنوبى سيراينكا ، وقد

ولد جده الشيخ محمد على بن السنوسي في الجزائر حيث أسس الأسرة السنوسية هناك عام ١٧٨٨ - ١٨٦٠ .

والسنوسيون مسلمون متعصبون أصلهم من سكان الجزيرة العربية المتمسكين بالعقيدة الإسلامية الذين يشعرون بعداء شديد لجميع الأوربيين عامة ، وقد أصبح تعصبه عاملا سياسيا هاما في كفاحه ضد الأتراك ، واصطحب الملك الحالي وهو في الخامسة من عمره والده الى كوفرا حيث منبت القبيلة الرئيسي وذلك كي يتعمق في علوم القرآن والعقيدة الإسلامية بمدرسة القبيلة .

ويشبه الملك ادريس السنوسي في شخصيته وطباعه الملك « محمد الخامس » ملك مراكش الذي طبع بطابع الاسلام : فالملك ادريس يعتبر من أبرز العارفين بالقرآن كما يمتلك مجموعة من المصاحف المخطوطة النادرة .

وهو بصفاته هذه يعتبر رجل دين أكثر منه رجل دولة ، فتراه بلحيته الكثيرة مرتديا دائما عباءة سوداء وعلى عينيه نظارة ذهبية .

ومع هذا فقد عرف كيف يصبح ملكا ديمقراطيا ، اذ سار في ديمقراطيته على أساس يرتبط بإيمانه المتأصل في أعماق نفسه ، فهو ليس زعيما سياسيا بقدر ما هو زعيم ديني لشعبه كمحمد الخامس . وعلى الرغم من معارضة بعض القبائل له ، فان المرء يشعر على الفور باحترام لايمانه الذي لا يتزعزع .

وقد ارتحل ادريس بعد دراسته ، في مدرسة القرآن في الكوفر الى السودان المجاورة في قافلة من الجمال ، وتلقى في أثناء الطريق خبر وفاة والده ، فيمم به حادي الجمل الى الحجاز ، فكان ذلك من دواعي تخفيف أحزانه ، اذ كان معناه الحج الى مكة المكرمة ، ثم اتجه بعد ذلك الى مصر ونزل في ضيافة الخديو بقصر رأس التين بالاسكندرية ، وفي أثناء رحلته من الحجاز الى مصر وطد أواصر الصداقة مع الأسرة الهاشمية التي ينسب اليها الحسين بن علي الذي أصبح فيما بعد ملكا .

وكان والد ادريس الأول هو الامام محمد المهدي وكما كان خليفة لآبيه كزعيم ديني للسنوسيين أصبح ابنه ادريس خليفة له أيضا ، وقد ولاه أحد أبناء عمومته وهو أحمد بن الشريف ، وكان ذلك وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، وفي عام ١٩١٥ وسط اضطرابات الحرب العالمية الاولى عندما ذهب موليه المخلوع (أحمد بن الشريف) الى المنفى تولى الى جانب المهام الدينية المهام السياسية أيضا .

وكالحال مع جميع السنوسيين كان ادريس دائما رجل الصحراء العامل من أجل الاستقلال ، كما كان على استعداد دائما للدفاع عنه بكل مرتخص وغال . فحارب السنوسيون الى جانب الاتراك والالمان ضد المستعمرين الايطاليين في الحرب العالمية الاولى ، وقد أصيب السنوسيون بضربات ساحقة حطمت الشعب السنوسى وقيادته ، ولكن السنوسيين لم يستسلموا في نضالهم التحررى على الرغم من كل ذلك ، فحاربوا ببطولة نادرة ، ويرجع ذلك كله الى اميرهم سيد محمد ادريس السنوسى الملك الحالى ، ولم يستطع الايطاليون أن يقللوا من شأنه فأعطوه وعدا بالموافقة على انشاء امارة سيرانىكا .

واحد وعشرون عاما فى المنفى

حاول السنوسيون والايطاليون فى بادىء الامر أن يتعاونوا معا تعاوننا طيبا بقدر الامكان ، فدعى الزعيم السنوسى الذى كان يبلغ من العمر ثلاثين عاما آن ذاك الى روما فى عام ١٩٢٠ لحضور تتويج الملك فيكتور عمانويل الثالث ، ولكن سرعان ما استولت الفاشية على مقاليد الحكم ، وظهر التعارض بين رغبة السنوسيين ورغبة موسولينى فى انشاء امبراطورية رومانية جديدة ، فشر السنوسيون بالفرار ، ولكنهم بذلوا جهودا جبارة لتحاشى الدخول فى منازعات مع الايطاليين، وتحولوا معنويا فقط ، بل انهم سعوا الى طلب المعونة العسكرية أيضا ، وغادر السنوسى بلاده بعد أن احتل الايطاليون سيرانىكا وطرابلس الايطالية ، وذهب الى المنفى مع عائلته فى مصر ، حيث مكث فيها واحدا وعشرين عاما ، وهنا حاول عقد صداقات مع الشخصيات الانجليزية ، ومنذ هذا الوقت توطدت صلته بالاسرة الانجليزية الحاكمة ، ويعتبر ادريس الاول اليوم بالنسبة للملكة اليزابيث كدوق أدنبرة ، فالصورة الوحيدة التى فى حجرة ملك ليبيا هى تلك التى اهدتها اليه الملكة اليزابيث الثانية . ومما هو معروف أن انجلترا قد اقترحت تعيين الأمير السنوسى كأول ملك للمملكة الليبية لوقوفه مع شعبه الى جانب الحلفاء فى أثناء الحرب العالمية الثانية .

وفى الثانى من ديسمبر عام ١٩٥٠ تودى بادريس الاول ملكا على ليبيا ، ولكنه ارتقى العرش بعد سنة من هذا التاريخ أى بعد الرابع والعشرين من ديسمبر عام ١٩٥١ .

ويعيش الملك ادريس معظم وقته فى الديوان الملكى فى طبرق ذات الجو البحرى المنعش فى اكيدا كما يمتلك قصرا فيها ، ونادرا ما يذهب الى العاصمة طرابلس التى يبلغ تعداد سكانها ١٤٠ ألف نسمة للاقامة

في ذلك القصر المسمى « ايتالو بالبو » الذي شيد مقرا لآخر حاكم عام ايطالى .

ولقد كان لمساندة الملك للمذهب السنوسى واعتباره له في مرتبة عقيدة الدولة ، ولما أضفاه على اقليم السيراينكا من الامتياز عن باقى اقاليم الدولة في بعض الشئون السياسية، كان لهذا كله ايجاد معارضين له حائقين عليه الى حد القاء بعض القنابل عليه في طرابلس عام ١٩٥١ . ومنذ ذلك الوقت وهو يتحاشى أن يوجد في تلك المدينة .

وقد تزوج الملك اربع مرات لم ينجب فيها خليفة له ، وقد حكى أن زوجته الأخيرة قد اجهضت اربع عشرة مرة ، أما زوجته في المرتبة الأولى فهي ابنة عمه احمد السنوسى ، وتدعى فاطمة ، وقد انجبت له ابنا ولكن سرعان ما توفى بعد مولده على الرغم من عناية ثلاثة من الأطباء الأمريكين بالأم والطفل . وبعدئذ تزوج الملك مرة أخرى في القاهرة احدى بنات قبيلة مصرية تدعى قبيلة للموم ، وعندما لم تنجب له هذه الزوجة الشاب خليفة له عين أخاه السيد « محمد الراضى » السنوسى وصيا على العرش ، ولكنه ما لبث أن توفى في الخامس والعشرين من يوليو عام ١٩٥٥ . وتولى مكانه ابن أخيه الذى حظى بحب الشعب .

هذا ويبلغ عدد أعضاء الأسرة المالكة ثمانين من الذكور ويسمع المرء أحيانا عن خلافت عائلية بين هؤلاء الافراد ، كان يتبع ثلاثون منهم فرعا آخر من الأسرة ، أو أن يعيش عدد من الأمراء في المنفى طبقا لأمر الملك ، هذا وقد حدث أن حوكم أحد أبناء عمومة الملك بتهمة قتل أحد موظفى البلاط ، وذلك في عام ١٩٥٥ .

ماذا قرر طبيبه البشرى ؟

والمعروف عن الملك ادريس الأول ملك ليبيا انه من أطيب الملوك في الأرض ، فهو يتولى واجباته بنفسه شخصيا لأن على أداؤها يتوقف مصيره ، ولا يتوانى عن بذل قصارى جهده في تأدية هذه الواجبات على الوجه الأكمل . انه ملك تجرد من المطامع الدنيوية ، فنسب اليه كثير من الليبيين الضعف ، وقد اتجهت النية لتولية ولى العهد بدلا من هذا المعجوز .

وعندما كنت أعد نفسى للرحلة الافريقية اعطانى طبيب شاب من مستشفى المناطق الحارة في همبورج اللقاح الضرورى للحصانة ضد امراض تلك المناطق وأخبرنى بأنه لن يتمكن من استكمال تحصينى لانه كان مضطرا للسفر بالطائرة لمعالجة أحد مشايخ البدو في الصحراء

الليبية من مرض خطير ، وقد نجح هذا الطبيب في انتقاذ حياة الشيخ ، مما جعل له مكانة مرموقة في ليبيا ، فتلقى دعوة لكي يصبح طبيباً خاصاً للملك ، وما زال حتى اليوم في منصبه هذا . وقد قص على ما ملخصه : انه لم تمض عليه سوى بضعة أيام بالديوان الملكي في طبرق حتى اتضحت لى معالم شخصية هذا الملك المحببة : فمنذ اليوم الأول لم يكن طبيبه الخاص الذي يثق فيه ثقة عمياء فحسب ، بل أصبح صديقاً للعائلة الملكية كلها . يوكل اليه امر تطبيبها . وكان من واجباته أيضا ان أصبح مستشارا لهذه العائلة الملكية عند قيامها برحلة الى الخارج .

ويشعر المرء في حضرة هذا الملك بكثير من الارتياح والسرور . وهو بالرغم من بلوغه السبعين يستيقظ للصلاة كل يوم عند شروق الشمس ، ولا يبدأ عمله دون أن يقرأ بعض سور القرآن بلفته العربية التي لا يجيد لغة غيرها .

وقد رغب أن تختفي صورته من طوابع البريد وأوراق البنكنوت الليبية ، ولم يرغب في أن تسير الثقافة وراء توجيهات منه .

ضد التطرف السياسي نحو الشرق

وتتعاون الملكة الليبية مع جميع أقسام الأمم المتحدة التي أنشأتها ومنحتها الاستقلال ، ولكنها بالرغم من ذلك لم تقبل عضوا في الأمم المتحدة بسبب تدخل الحكومة السوفييتية ، وبصفتها دولة عربية فقد أصبحت عضوا في جامعة الدول العربية وهي تؤيد الجهود التي ترمى الى خلق جو أفضل للتعاون بين جميع بلاد العرب ، وقد أرسلت ليبيا مندوبيها الى المؤتمرات السياسية الكبرى في باندونج واکرا وأشار الملك ، كما أشار الحبيب بورقيبة ، في أوائل عام ١٩٦٠ الى التجارب الذرية الفرنسية على أنها عمل لا يتفق مع الاحترام للشعور الانساني ، وقد أملت الحكومة بالموقف لاتخاذ اجراءات حاسمة في هذا الصدد ، وذلك لتأمين كيان المواطنين الليبيين .

وساعدت انجلترا وفرنسا هذه الدولة الناشئة في النواحي الاقتصادية بصفة خاصة، هذا ولكل من الدولتين قواعد جوية في الأراضي الليبية . وقد أقامت الحكومة الليبية اخيرا علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفييتي ، ولكنها تحاشت أي تغفل سياسي من الشرق ، وكثيرا ما أوضحت الحكومة الليبية رغبتها الأكيدة في تسوية النزاع الجزائري ، فقد أكد ادريس الأول في إحدى خطب العرش في فبراير

عام ١٩٦٠ أن ليبيا ستقدم لحرب التحرير الجزائرية جميع المساعدات المادية والأدبية الى أن يحصل الشعب الجزائري على الحرية والاستقلال الكاملين . ويكن الملك لمصر التي تزوج إحدى بناتها كل ود وتقدير ، كذلك شعبه الذي يشاركه في إعجابه وتقديره للرئيس جمال عبد الناصر

ومن ناحية أخرى فقد أشار الحبيب بورقيبة رئيس تونس في تصريحاته عن اتحاد دول شمالى افريقية فى المغرب الكبير ، بأنه يود أن يرى فى هذا الاتحاد مراكش والجزائر وتونس وكذلك ليبيا .

وربما لا تنحاز ليبيا الى مصر أو تونس ، وتظل على الأقل حيادية وأن تحافظ على هذا الحياد الدقيق الذى يضعه الملك نصب عينيه ، فربما كان من الأفضل لهذا البلد اذا ما ظل على الحياد بين مصر أى الجمهورية العربية المتحدة وبين تونس أى المغرب الكبير المنتظر .

وقد صرح المعلق الأمريكى جونتر بأن شمالى افريقية يحتاج بحق الى بلد متحرر ، وأنه من الضرورى أن تتلقى ليبيا مساعدات فنية غربية والا أمكن هذا البلد أن يقع بين برائن التهديد الفوضوى والشيوعية والاتحاد العربى .

ابراهيم عبّود
الفيلسوف مارشال يدرتبر انقالاً ربّاعاً عسكرياً

ان انتهاء الاحوال القائمة كان الطريق لانتفاذ البلاد ، وهكذا كانت ثورة الجيش هي الجواب الطبيعي على نداءات المواطنين ، فان الجيش ماهو الا أداة الشعب ، يحس باحساسه ، ويتفاعل معه .

ابراهيم عبود

استدعاني رئيس البوليس في نيروبي في أحد الايام وقد أراد أن يسلمني بنفسه تأشيرة للدخول الى السودان ، وفي أواخر يناير من عام ١٩٥٦ كان ينبغي أن يصبح السودان مستقلا ، وكانت العلاقات مع الكومنولث طيبة جدا ، وكان رئيس البوليس يمثل بريطانيا كما يمثل الحكومة السودانية التي ستتولى مقاليد الأمور في غضون الأسابيع القليلة القادمة .

وكنت أنتظر هذه التأشيرة منذ ستة أشهر حتى فقدت الامل في الحصول على تصريح السفر ، وفي تلك الايام كان قد عم الاضطراب وعدم الثقة في جنوبي السودان فقد أنبأني كثير من اللاجئين من بينهم مبشرون انجليز وأمريكان بوقوع أعمال وحشية مخيفة . . وقال لي رئيس البوليس: لقد تلقينا بشأنك تقارير طيبة وأخرى سيئة ، ولكن يبدو أن الطيبة قد تغلبت على الأخرى ، فحصلت على التأشيرة ، ثم تقابلنا مرتين بعد ذلك في حفلتين ، فرجاني أن أزوره في مكتبه إذ يود أن يخصني بنصيحة وقد كنت أرتدي (جاكت) صفراء بأزرار مذهبة فأوصاني في الحاح أن أخلع هذه الأزرار قبل مواصلة رحلتي وأن أستبدلها بأخرى ذات لون أسود لأنني لست انجليزيا ، إذ هذا ادعى لسلامتي عند دخولي السودان وبالفعل قمت بتنفيذ النصيحة ، وعندما وصلت الى العاصمة السودانية

الخرطوم (٨٠٠ر٠٠٠ نسمة) لاحظت أن طلبة كلية غوردون السودانيين يرتدون (جاكتات كلوب) بأزرار مذهبة طالما هم لا يرتدون زيهم الوطنى، فتيقنت أن مخاوف رئيس البوليس لأساس لها .

رجال مهذبون بالفطرة

لقد استمرت الثورة المصرية التى قامت فى يوليو عام ١٩٥٢ ثورة بيضاء وقد جاء فى مؤلف أصدرته القوات المسلحة المصرية عن أهداف الثورة وأسباب نجاحها أنه «لم تتدحرج رأس على الرمال ، ولم ترق نقطة من الدماء» لقد عزل حاكم وأخرج من البلاد بكل تكريم .

وقد تم تسليم السلطة فى الخرطوم فى الأول من يناير عام ١٩٥٦ فى الوقت الذى كانت تدور فيه المشاحنات البربرية فى جنوب السودان، فوقعت أعمال عنف وقتل وتنكيل وحشى ، كانذى حدث فى العصور المظلمة من تاريخ هذه القارة السوداء ، ولا يعرف حتى اليوم : هل هذه الحروب قبلية بين شمالى السودان وجنوبيه أو أنها فتنة أشعل أوارها الانجليز لكى تتاح لهم فرصة التدخل ؟

وفى نوفمبر من عام ١٩٥٨ حدث تسليم السلطة لثانية مرة فى تاريخ هذا البلد الحديث ، عندما عزل الضباط الانقلابيون الحكومة الرسمية ولكن مما يثير الاعجاب سلوك هؤلاء الثوار مع معارضيههم سلوكا حميدا .
حقا ان السودانيين شعب عجيب انهم « جنتلن » بالفريزة .

السودان ومصر

ان لهذا البلد المتناقض على العكس من أغلب الدول الافريقية الاخرى تاريخا بعيدا طويلا ، فقد ثبت أن المجتمعات القروية المنظمة قد وجدت به منذ خمسة آلاف سنة قبل الميلاد . وقبل ألفى سنة قبل الميلاد أيضا اكتسح المصريون السودان ، كما انتشر الاسلام فى السودان ، بعد ذلك بمن طريق المصريين ، وقامت علاقات بين القطرين منذ عدة قرون . وقد ثار بالشعب ثورته ما بين عامي ١٨٢٠ و ١٨٨٥ فى وجه السيادة المصرية التركية ، وانسحبت الادارة المصرية التركية فى عام ١٨٨٢ بناء على توصية الانجليز الذين احتلوا مصر ، وحينما خافت انجلترا غزو الفرنسيين للسودان (احتكاك فاشودا) احتلوه بأنفسهم .

وقامت الادارة السودانية تحت الاشراف الانجليزى المصرى نظرا
لاتجاه المصريين الاخير .

وفى عام ١٩٥٣ وافق المصريون والانجليز على دستور جديد انتهى
بإعطاء الاستقلال الكامل للبلاد فى الاول من يناير عام ١٩٥٦ .

ولم يعرف أى سبب حاسم للتوتر الاخير الذى ساد العلاقات بين
مصر والسودان ، فأدى الى حدوث انشقاق خطير بين البلدين ، فمشلا
فى فبراير عام ١٩٥٨ نشب نزاع على الحدود عند خط عرض ٢٢ وصدرت
تصريحات شديدة اللهجة حول تقسيم مياه النيل الذى يعتبر مشكلة
الكيان القومى بالنسبة لكلا الشعبين . وقد انتهت هذه التصريحات بعقد
معاهدة بين الجمهورية العربية المتحدة وبين السودان فى شهر نوفمبر
سنة ١٩٥٩ . وقد أظهر الرئيس عبد الناصر تقاربا ملحوظا فى هذا
الصدد ، اذ ستحصل مصر على ٥٥٠٥ مليار متر مكعب من مياه النيل فى
المستقبل ، أما السودان فسيحصل على ١٨٠٥ مليار متر مكعب ، وهذا
بالإضافة الى موافقة الرئيس ناصر على توطين السودانين الذين ستغمر
المياه أراضيهم ومنازلهم بعد تنفيذ مشروع السد العالى، وكذلك دفع ١٥
مليون جنيه كتعويضات .

وهكذا نجحت السودان الثورية برئاسة جنرال عبود فى الاتفاق
مع جار الشمال ، ذلك الاتفاق الذى ظلت ترفضه جميع الوزارات السابقة
لجمهورية السودان الفتية .

انقلاب أبيض

وفى الساعة الثالثة من صبيحة السابع عشر من نوفمبر عام ١٩٥٨
وقع انقلاب فى السودان ، فقد أسقط الجيش بقيادة رئيس أركان الحرب
جنرال ابراهيم عبود حكومة الرئيس المالىء للغرب عبد الله خليل حيث
تقبض الجيش على زمام السلطة فى الليل واحتلت وحدات منه أهم ثلاث مدن
فى السودان ، ولم تطلق رصاصة واحدة أو تحدث أية اعتقالات وقد
أخطر ضباط الجيش الوزراء بخطابات أن الجيش قد تولى مقاليد الامور .
وقد أمر الرئيس عبود بحل جميع الاحزاب والبرلمان فورا ، وأوقف العمل
بالدستور المؤقت ، وأعلنت حالة الطوارئ .

وفى اذاعة بالراديو أعلن الجنرال فى الساعة السابعة صباحا أن
الجيش قد أخذ على عاتقه حماية الأمن والسلام فى البلاد ، لان الفساد الذى
جاء نتيجة الأزمة السياسية العامة قد أفسد بدوره جميع أجهزة الدولة .

والاحزاب ، فقد حاول كل حزب أن يحكم واستخدم في سبيل ذلك العملاء الاجانب سواء من الشرق أو من الغرب ، ولا ينبغي أن ينسى الشعب أنه يرتكن الى جيش مثقف يصل تعداده الى أكثر من عشرة آلاف رجل ، وقد وعد أن يكون الانقلاب نقطة تحول الى التضامن والعزة ، ووعد بقيام علاقات أفضل مع الجمهورية العربية المتحدة ، كما وعد بحل سريع لجميع المسائل الفنية ، وكذلك أكد أن حكومته ستلتزم جميع التعهدات ازاء الامم المتحدة وجامعة الدول العربية .

وقد قام جنرال عبود بانقلابه ومعه اثنا عشر ضابطا ، وكثيرا مايتساءل الناس في العالم كله ، من يقف خلف هذا الرجل ياترى ؟

فنادرا ماكان يظهر جنرال عبود في المجتمعات حتى هذا الوقت ، ومن المعروف أنه صديق حميم لرئيس الوزراء المخلوع عبد الله خليل هذا وقد أصدر قانونا يقضى بتسليمه مهام السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية ، فأصبح رئيسا للدولة والحكومة ووزيرا للدفاع بجانب كونه رئيسا لأركان حرب الجيش ، وسرعان ماتأكد للناس أن عبودا غير مؤيد من ناصر أو من الروس ، بل على العكس أن ثورة ابراهيم عبود قد تمت دون مساعدة أجنبية ، اذ استقرت الامور وسارت سيرها الطبيعي في الخرطوم بعد يومين ونال الضباط ثقة الشعب وحبه .

الجيش أداة الشعب

ألقي جنرال عبود في الذكرى الاولى للانقلاب الذي حدث في ١٧ من نوفمبر عام ١٩٥٨ نظرة على تطور البلاد وأعلن في الوقت نفسه أن أهداف برنامجه هي :

ان الانهاء السريع للأوضاع القائمة كان السبيل الوحيد لانقاذ البلاد وقد قرر الجيش أن يكون هو البادئ في هذا السبيل لانه لم يتسلح ضد مصلحة الشعب ، وقد كان الجيش رمزا للاتحاد على حين انقسم الشعب على نفسه شيئا واحزابا ، فقد كان معروفا لديننا ماورثناه عن العهود السابقة ، وأعدكم أن يكون هدفنا هو اصلاح الأوضاع الفاسدة واننى أعلم أنه لايمكن الوصول الى تقويم المجتمع على أساس ثابت وسليم في عام واحد ، الا أننى عندما أفكر في جهود الثورة خلال العام المنصرم أشعر بسعادة أكبر ، فقد وصلت بلادنا في العهود السابقة الى حالة اقتصادية يرثى لها ، ذلك لان المواطنين لم يكرسوا وقتهم للانتاج بل للمنازعات الحزبية التى استغل زعماءها مؤيديهم دون واجبههم القومي ، فكانت

النتيجة تضخما فى الميزانية ، وعجزا فى الميزان التجارى وعدم تسويق القطن وإيقافا للاستثمارات الاجنبية والوطنية وإهمال التجارة والاعمال الحكومية كما كانت الاعمال السياسية الخارجية غير واضحة المعالم .

وقد وعدتكم فى أول خطاب ثورى أننا نود أن نقضى على الفرقة المصطنعة التى تسود علاقاتنا مع الجمهورية العربية المتحدة ، فان هذه الفرقة لاتفيد الاوضاع القومية لكلا الشعبين ، فبعد أن اقتنعت الحكومة بأن الجو المرغوب فيه ساد العلاقات بين البلدين أرسلت وفدا من أعظم رجالها الى القاهرة ، ذلك الوفد الذى كان على ايمان شديد بأنه سيمكن الوصول الى تسوية عادلة « بشأن تقسيم مياه النيل » ، وان هذه المعاهدة قد فتحت أمامنا آفاقا واسعة لتنظيم تجارتنا وإرسال قمحنا الى السوق بطريق مكن الشعب السودانى من احراز نجاح اقتصادى مستمر لاننا الآن فى وضع يمكننا من استغلال ثروة مياه النيل بأقصى درجة ممكنة ، كما سنقوم فورا باتخاذ الاجراءات اللازمة لتشجيع خزاناتنا التى ينتظر أن تحول ملايين من الأفدنة البور الى مناطق خضر واسعة ، فندعم تقدمنا الزراعى ، ويسرنى أن أعلن لكم أننى قد كونت مجلسا له سلطات مطلقة تحت اشراف أعلى مجلس قضائى من واجبه أن يقوم بتقديم الاقتراحات البناءة فى كيفية مشاركة المواطنين فى حكم البلاد على أسلم وجه ، ليقوموا بدور فعال فى تطوير شئونهم . ونأمل أن تمهد هذه الاجراءات الطريق الى الدستور الذى سيتفق مع تقاليد مجتمعنا .

جندى بلا مطامع شخصية

فى احدى مقابلاتى جنرال عبود قال : «اننا جنود ونفضل أن نعود الى ثكناتنا ومعسكراتنا اليوم قبل الغد وسنتخلى عن مقاليد الحكم فى الوقت الذى تذلل فيه جميع العقبات دون المساس بأى رجل من السياسيين فهم أحسنوا صنعا عندما حافظوا على الهدوء والأمن ، وربما تدعو الحاجة الى جميع الشخصيات السياسية المستقلة فى أنحاء البلاد خلال سنين ، وكذلك الى المدنيين ، وان العسكريين ليسوا هم الذين سيتولون أمور الدولة فيما بعد » .

ان الفريق «إبراهيم عبود» رجل محافظ نبيل ذو جلد ، فاتح اللون له رأس كبير ، وينم وجهه أحيانا عن الغضب والبربرية ، أما فى حياته اليومية الشخصية فهو مرح عطوف ، انه «جنتلمان بالغريزة» كما أنه لا يمثل معنى الدكتاتور أكثر من نصل سيف حربى قديم .
وهو متزوج ، وله خمسة أولاد يكن لهم حبا شديدا يبدية فى أثناء

وقت فراغه ، هذا وهو يمارس سلطاته كرئيس دولة فى ثكنات القيادة العامة للجيش غالبا ، لانه يحب البساطة الشديدة وليست له اية مطامع شخصية .

ولد ابراهيم عبود فى يوم ٢٦ من اكتوبر عام ١٩٠٠ كابن لأسرة من الفلاحين بمدينة صغيرة جنوبى السودان الشرقى على البحر الأحمر ، وقد التحق بمدرسة سواكن الابتدائية ، ثم التحق وهو فى الرابعة عشرة بالقسم الفنى بجامعة جوردون فى الخرطوم (وهى الجامعة التى أطلق عليها اسم جنرال تشارلس جورج جوردون) ، ثم التحق وهو فى السابعة عشرة من عمره بالكلية الحربية وأصبح ملازما فى القوات المصرية فى السودان فى يوليو عام ١٩١٨ .

وفى عام ١٩٢٥ رقى الى رتبة نقيب فى الجيش السودانى الناشئ وساعد فى انشاء سلاح خدمة الجيش وسلاح المهمات للقوات المحاربة السودانية ، ثم أرسل الى انجلترا لمواصلة تدريبه الحربى ، حيث سافر كعضو لبعثة المشتريات الحربية الى انجلترا ، بعد أن تعلم الانجليزية جيدا .

وقد أنعم عليه فى أثناء الحرب العالمية الثانية خلال قتال اريتريا واثيوبيا وليبيا ضد الطغيان بأرفع الأوسمة وظل يعمل مدة طويلة فى قيادة الجيش الثامن وقيادة القوات العربية الشرقية ، ثم انضم الى قيادة قوات الهجاة الانجليزية بعد انتهاء الحرب .

وفى مارس سنة ١٩٤٩ أصبح عبود قائدا وطنيا للقوات السودانية وفى عام ١٩٥٢ صار أول رئيس أركان حرب سودانى بالقيادة العامة للقوات المسلحة السودانية ، وفى عام ١٩٥٤ أصبح أميرا لوناثا لرئيس هيئة أركان حرب الجيش السودانى . وفى عام ١٩٥٦ صار رئيسا لأركان حرب ، وفى يناير عام ١٩٥٧ رقى الى رتبة الجنرال .

وقد قام خلال هذه السنوات بعدة رحلات الى أوروبا وآسيا لشراء أسلحة للسودان ، وعندما حدث الانقلاب العسكرى فى ١٧ من نوفمبر عام ١٩٥٨ شكل عبود مع رفاقه القدامى الموثوق بهم المجلس الأعلى للقوات المسلحة السودانية برياسته شخصيا .

ومن المعروف أنه كرئيس للدولة وللوزراء وكوزير للدفاع كثيرا مايتدخل فى أعمال وزير الخارجية .

وللقطع بنجاح الانقلاب ، كان لابد أن يعلن كل من عبد الرحمن المهدي وعلى الميرغنى ، وهما زعيما أكبر طائفتين اسلاميتين ولهما نفوذ

واسع ، ثقتهم بعبود وبرجاله من الضباط : فالمهدي زعيم طائفة الانصار والميرغنى زعيم طائفة الحتمية وهاتان الطائفتان هما اللتان تهدفان أولا وأخيرا الى المحافظة على التقاليد الاسلامية فى السودان .

الضباط منقذو الديمقراطية

ولما كان الانقلاب العسكرى الذى حدث على يد عبود ورفقائه مثار قلق واضطراب لافى افريقية وحدها بل فى العالم أجمع فان المرء يحس سريعا بحدة الموقف فى هذا الجزء من افريقية ومن ثم فقد نشأ الشعور بعدم الثقة فى جميع السياسة العسكرية وخاصة عندما يسرح المرء بأفكاره الى الانقلابات العسكرية والدكتاتوريين العسكريين فى بقية أنحاء العالم .

ففى باكستان استولى جنرال أيوب خان مع أربعة جنرالات على الحكم ، وفى تايلاند كان الفييلدمارشال ثاراجات ، وفى بورما كان جنرال «كبوين» رئيسا للحكومة ، وأصبح جنرال شهاب القائد العام للجيش اللبنانى رئيسا للدولة ، وجنرال «نجودين ديم» رئيسا لوزراء فيتنام وفى مصر جارة السودان حكم جمال عبد الناصر مع رفاقه ، وقد أصبح جنرال ديجول رئيسا لفرنسا ومنظما للاتحاد الفرنسى واستولى جنرال جورسيل مع مايسى «بلجنة الوحدة القومية» على السلطة فى تركيا .

ونلاحظ فى البلاد الزنجية على وجه الخصوص ، أن الشعوب هنا وهناك لم تستسغ بعد النظم الديمقراطية وهى النظم التى ازدهرت فى أوربا من قرون عدة . وربما كان هذا السبب هو السبب الأساسى فى تحول أغلب السياسة العسكريين الديمقراطيين فى افريقية الى دكتاتوريين ذلك لان العسكريين وهم الذين اعتادوا تقاليد معينة تهدف الى المثالية وعدم التفريط فى النفس أو فى الوطن يكونون أكثر حرصا على الديمقراطية من أغلب السياسة ، وهنا يزول الخطر من أن تصبح السياسة هدفا شخصيا ، فتدافع الدكتاتوريات العسكرية عن الديمقراطيات ضد الشيوعية أكثر من السياسيين ، هذه كلها خواطر تدافعت تلقائيا على أساس التطور والتغير فى السودان .

ولان هذه الخواطر على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للجميع فقد وضعت على بساط البحث فى مؤتمر الحرية والحضارة فى دور انعقاده للمرة العاشرة فى برلين .

ولقد أورد المعلق الفرنسى «ريموند أرون» نتيجة حديثه أخيرا مع أحد المحررين البرازيليين ، فقد سألت المتحدث : «لماذا يقوم الضباط

دائما بالثورات فى جنوب أمريكا ؟» • فأجاب : لان ضباطنا يقسّدون عبقريتهم ، وهم وان لم يكن لديهم الثقة بأن الانقلابات التى قاموا بها يمكن أن تعمل على وحدة الجيش والشعب أو لارساء أساس لنظام متحرر مع القضاء على الاخطار المعينة ، يجب التسليم بأن لديهم طموحا غير عادى للتقدم السياسى والاقتصادى للوطن •

وفى دوائر أعمال المؤتمر السياسية بحث حول احتمال أن أساس فكرة الحرية يمكن أن يستقر ويقوى فى بعض البلدان عن طريق الدكتاتورية العسكرية وباستثناء عضوين أحدهما شيوعى والآخر هندى وافق المشتركون فى المؤتمر بالاجماع ، وهؤلاء كان بينهم عدد من الافريقيين يرى أنه يجوز التجاوب مع الدكتاتوريين العسكريين بتوافر عاملين :

أولهما : اذا كان الحكم العسكرى قد نفذ اصلاحات اجتماعية واضحة المعالم •

والآخر : اذا ما أنشأ الحكم العسكرى فى الوقت المناسب ديمقراطية برلمانية قادرة عن طريق البناء المرحلى على الوصول الى الغايات المثلى للبلاد •

الاستقلال مسئولية

فى بداية احتفال الجمهورية السودانية بالعيد الرابع للاستقلال قال الرئيس عبود :

« ان أهمية الاستقلال تتركز فى كونه مسئولية قبل أن يكون مصدرا للفخر ، وان القيمة الحقيقية للاستقلال تعرف فقط عندما يتحمل المرء التبعات التى يجلبها معه ، ويمكن تثبيت الاستقلال اذا شارك المرء بأعمال خلاقه ومهد للاصلاح الكامل الذى يمتد الى جميع قطاعات الحياة فى البلاد ، ويمس بعمق حياة كل مواطن ، وان تحقيق هذه الأهداف يتطلب من الامة أن تتعاون كفريق متحد متناسق متكافى للقضاء على الجوع والجهل والمرض والعمل على احالة الصحارى القاحلة الى مزارع خضراء ، أما فى الميدان الدولى فيمكن أن يلاحظ المرء بغبطة واستقرار الاوضاع وتخفيف حدة التوتر ، وهذه الحقائق تؤدى الى ازدياد امكانيات التعايش السلمى التى نهدف اليها جميعا وانتم تعلمون جميعا أن الجمهورية السودانية قد اعتنقت هذه المبادئ على أساس أنها ستساعدنا فى البناء

والتطور والتقدم ورفع مستوى معيشة مواطنينا وإيقاظ مشاعرهم الوطنية، •

وقد أوضح الرئيس عبود أنه سيتعاون مع جميع البلاد وسيقبل المعونة الاقتصادية من جميع الشعوب طالما أنها لا تمس سيادة السودان •

ولكن الى أى حد يتعلق هذا بالاتحاد السوفيتى ؟ لقد ظل هذا غير واضح حتى الآن على الرغم من أن «عبود» قد أوضح وجهة نظره فى حديث صحفى مع جريدة الاهرام القاهرية فقد قال : «ان الشيوعية عدوى الأول. انها قد وجهت نشاطها الآن الى افريقية تريد أن تربط الشعوب الافريقية بعجلة استعمارها حتى تحكمها فيما بعد •

ان أمام السودان اتجاهين : فاما انه يظل محايدا ، واما أن ينضم الى الكتلة الشرقية ، وعلى أية حال فان الدولة الوحيدة التى فهمت السودان هى يوغوسلافيا وحدها ، فأقامت العلاقات الاقتصادية المتينة معها ، ولا تريد بريطانيا أن تتخلى عن علاقتها التقليدية بها ، بل على النقيض فانها تعمل على تدعيم هذه العلاقات •

ومن جهة أخرى فان «ناصر» والجمهورية العربية يهدفان الى وجوب مشاركة السودان فى خطط الاتحاد العربى مادام لم ينضم الى الجمهورية العربية المتحدة •

أما الامريكيون فيهدفون الى اقامة علاقات سياسية واقتصادية جديدة على أساس الشعار القائل بوجوب ابقاء السودان باب افريقية المفتوح للعالم الحر تحقيقا لقول شائع فى الخرطوم يتلخص فى أن من يملك السودان يملك افريقية •

سٲكوتورى الوطنى فى الازىقى فى الغبر

« ان نضال الشعب الغيني في سبيل الاستقلال يعد واحدا من الدوافع الرئيسية للنضال ضد الاستعمار في افريقية، بالنظر الى تاريخ النضال التحرري للشعوب الخاضعة للسيادة الاجنبية ، وذلك انه عندما يكون الاستعمار تجسيدا لما نعتبره استغلالا غير مشروع وخضوعا برغم الارادة - حينما تتقدم القوة على الحق - يكون بهذا عقبة لكل تطور طبيعي مستمر لاي شعب ، وخاصة ان الاساليب السياسية المنطوية على الانانية والاثرة قد اخلت نفسها لمقاومة حركة التحرر المنتشرة في افريقية باطراد مستمر » .

سيكوتورى

في احدى خطبه بعد الاستقلال

يبدو ان سيكوتورى يعد في الحق اشد الساسة الافريقيين تطرفا، يبدو ذلك حين يذكر المرء ذلك الموقف في اغسطس عام ١٩٥٨ .

قام رئيس الوزراء ديجول برحلة جوية عبر مدغشقر وافريقية ودعا للدستور جديد يدعو الى الاتحاد الفرنسي ، وقد قوبل رجل الدولة العسكرى في جميع البلاد تقريبا بالاعجاب والترحيب ، اما في داكار فقد راي الايدى ترتفع في وجهه ملوحة بالاحتجاج وسمع صيحات الاستنكار وان جاء التصويت بالايجاب على ما جاء من اجله ، فأنشأ من السنغال والسودان الفرنسي « اتحاد مالى » وهو الاتحاد الذى تعاون في اضييق الحدود مع فرنسا بعد حصوله على الاستقلال ، اما غينيا فقد اختلف معها الامر .

نقضى العهد مع دييجول

وكان الأمر في غينيا مختلفا : ذلك لأن ما حدث لا يمكن التيقن من صحته لأن شهود العيان وناقلى الأخبار الأفريقيين غالبا ما اختلفوا مع أمثالهم الفرنسيين ، ولكن المؤكد هو أن دييجول قد هبط الى كوناكرى فى ٢٥ من أغسطس لاجراء مباحثات وللتحدث مع الشعب أيضا . وقد سافر دييجول مع الحاكم السابق بيير ميسمر وكان على سيكوتورى أن يلقى خطابا تمهيدا يوضح فيه آراءه السياسية ، وقد قبل دييجول فى بادئ الامر ، ولكن ميسمر اقنع دييجول بالعدول عن ذلك اكتفاء بالاطلاع عليه .

واعتقد سيكوتورى أن الخطاب قد حاز قبول دييجول واتضح لسيكوتورى بعد ذلك أن دييجول لم يقرأ خطابه الذى لم يلق سيكوتورى منه شيئا اللهم الا اقوالا يسيرة تفيد « ان غينيا تطمح الى ان تظل فى المنظمة ست سنوات تقريبا ، على ان تكون عضوا فى المنظمة بكل معنى الكلمة وذلك لأنها تطالب بالحق الكامل فى تقرير المصير وهذا يعنى القضاء على اثر الاستعمار فى « الادارة والاقتصاد » وقد صفق سكان كوناكرى للكلام المختصر من زعيمهم المعتدل ، ولم يفاجأ دييجول بهذه الشروط . وأصدر تصريحات على جانب كبير من الخطورة فأعلن أنه اذا أرادت غينيا أن تكون مستقلة فانه من جهته يوافق فوراً دون أن يحدث أى تبادل بينه وبين سيكوتورى لوجهات النظر .

وكانت مفاجأة لسيكوتورى الذى غضب ، وشن أعنف هجوم على دييجول ، وعبأ الشعب ضده وضد دستوره الجديد تحت شعاره القائل بأن « غينيا تفضل الحرية فى ظل الفقر على العبودية فى ظل الغنى » ، وفى ١٨ من سبتمبر عام ١٩٥٨ صوت ٩٧١٢٪ ضد دييجول وبذلك نالت البلاد استقلالها فوراً ، وفى ٢ من أكتوبر سنة ١٩٥٨ أعلنت الدولة الجديدة ..

وكانت لا تزال هناك فرصة للوصول الى اتفاق مناسب من جانب فرنسا ، لولا أن الصدمة كانت بالغة العنف فى باريس مما دفع بدييجول الى تصرفات سيئة كثيرة : فقد استدعى فوراً جميع الموظفين والمهندسين والمدرسين والأطباء والفرنسيين جميعاً ، فتوقفت جميع الاعمال وخلت البنوك وشحنت أسلحة البوليس ومكتبة وزارة العدل واثاث قصر الحاكم ، كما قام بعض الفرنسيين بقطع التوصيلات الكهربائية والتليفونية واتلاف جميع المنشآت الفنية ، وقطعت اشجار الفاكهة وخربت الحدائق وهدمت الأسوار ، وكتبت عبارات السب على جدران المنازل ، وصدرت

الأوامر الى سفينة تحمل خمسة آلاف طن من الأرز من فرنسا لتموين الشعب بالعودة فورا .

وفجأة وجدت غينيا نفسها على حافة كارثة ولا سيما أنه قد استمر الفراغ السياسى والاقتصادى قائما بضعة شهور ، وبالرغم من تحذير عدد من الفرنسيين البعيدي النظر لبأريس بالعواقب الناجمة من هذا التعسف فإن أحدا لم يلتفت الى تحذيرهم .

لقد كان انفصال غينيا عن فرنسا غير ضرورى اليوم اذ لم يكن سيكوتورى يرغب فى ذلك .

وقد دعا سيكوتورى الى تغيير العبارة المكتوبة على النصب التذكارى للمحاربين الفرنسيين الى النص الآتى : « جمهورية غينيا ضحية الاستعمار » .

هذا ولقد اشار ماريون جرافين فون هوف فى هذا الوقت الى خطر الشيوعية متسائلا : هل اتى اليوم الذى تضع فيه الشيوعية اقدامها فى افريقية ؟ وعلى اية حال يجب ان يشيد نصب تذكارى ثان فى كوناكرى للاتحاد السوفيتى تعبيرا عن امتنانه لتصرفات ديجول وسياسته ، لأن الذى حدث هنا هو رد فعل للمناوأة والفرور اللذين يمكن أن يجلبا لقارة بأكملها الشؤم الذى تقع مسئوليته باستمرار على عاتق رئيس الدولة الفرنسى دون نزاع .

هذا هو رأى كثير من الفرنسيين كما هو رأى كثير من الخبراء فى العالم الغربى كله .

الاحتلال منذ عام ١٩٢٠

افتتح التجار البرتغاليون والفرنسيون والانجليز فى القرن الخامس عشر متاجرهم على الساحل ولكن اندفاع الباحثين والرحالة الى اعماق البلاد حدث لأول مرة فى القرن التاسع عشر . ففي عام ١٨٨٢ بدأ الفرنسيون سيادتهم على هذه البلاد التى تبلغ مساحتها مساحة المانيا الاتحادية أى ٢٤٥ر٨٥٧ كم م على حين يبلغ عدد سكانها ٢٦٠.٠٠٠ نسمة فقط .

وفى عام ١٩٦٠ أصبحت كوناكرى عاصمة للبلاد ، ويبلغ عدد سكانها اليوم ٥٢ر٥٠٠ نسمة ، وفى عام ١٩٢٠ حصلت غينيا الفرنسية على وضعها كمستعمرة ، وقد سار التطور التالى محاذيا لمثيله فى جميع

البلدان الافريقية الاخرى الخاضعة للإدارة الفرنسية ، وهكذا حصلت
غينيا مثل المناطق الاخرى التى يضمها نطاق غربى افريقية على الاستقلال
الدائى الداخلى عن طريق المعاهدة المعقودة فى عام ١٩٥٧ . والآن تحدد
مصر الفينيين ، وكان المتسبب فى ذلك شابا وطنيا يدعى سيكوتورى
هذا الذى أصبح أول رئيس للدولة المستقلة .

فمن هذا الرجل الذى تقدم الجبهة امام ديجول ؟ انه ماركسى
زعيم سابق لنقابات العمال فى مقتبل العمر ، رجل مجنون بالثقة فى نفسه
وبالفيرة والحماس والارادة القوية ، حصل على أعلى الألقاب ، وهو لقب
زيلى ومعناه « الفيل » أو « سيد غينيا الأول » .

تثقيف بالمراسلة

ينتسب سيكوتورى الى قبيلة مالينيك الاسرة المحاربة المشهورة،
ولد فى التاسع من يناير عام ١٩٢٢ فى فاراناه وكان جده محاربا متقاعدا
يدعى المامى سامورى تورى الذى حارب حتى نهاية القرن التاسع عشر
ضد الفرنسيين حتى أسروه ، أما والداه فكانا من الفلاحين البسطاء
وله ستة اخوة ، وقد التحق سيكوتورى بمدرسة المستعمرة التى تعتبر
مدرسة شعبية فرنسية ، وسرعان ما أصبح مشغوبا بالتردد على المكتبات
والاطلاع على ما فيها من كتب بمجرد معرفته للقراءة ، وانكب على قراءة
دائرة المعارف لتحصيل المعلومات فى شتى نواحي المعرفة ، وقد اكتسب
نضج المرحلة الدراسية الوسطى بالدراسة عن طريق الممارسة كما قال
هو نفسه ذلك . والمعروف أن عائلته كلها من المسلمين .

وفى عام ١٩٤٠ كان قومسيونجيا فى شركة الزنوج الفرنسية ، ثم
موظفا بالبريد ، ثم نقابيا . واختلف كثيرا عن الآخرين بسبب نشاطه
الواسع ، وقد حصل على لقب « الفيل » . وأولى كلماته بعد أن انتخب
رئيسا هى قوله :

« يجب أن يعمل الافريقيون كثيرا جدا ، لأن القوى البشرية العاملة
هى رأس المال الوحيد للبلاد غير المتطورة » .

ولم يكن مستريحا للأوضاع القائمة حوله ، ويقال : انه رجل
لا يعرف لين العريكة ، ولا الاستقرار ، وطموحه لا يقنع بما يصل اليه .

وفى عام ١٩٤٥ كان سكرتيرا عاما لنقابات عمال التليفونات
والتلغرافات والبريد ، ثم سكرتيرا عاما لنقابات موظفى الخزائن، ومنذ

عام ١٩٥٠ وهو يشغل المركز نفسه في نقابة الاتحاد العام للعمال . وقد أنشأ هذا المركز الاتحاد العام لعمال افريقية السودان في يناير عام ١٩٥٧ في كوتونو ، ذلك الاتحاد الذي ذابت فيه جميع النقابات المختلفة .

وقد كانت النقابات الفرنسية تقع في ذلك الوقت تحت وطأة النفوذ الشيوعي ، فبدأ الشيوعيون بالاهتمام بتورى متأثرين بعبقريته الفذة اذ كان يستطيع القاء خطب رائعة بالفرنسية كما يلقيها أيضا «بالمالينيك» «والسيوسو» لغة البلاد الأصلية ، وقد سافر الى أوربا ودرس الحركة النقابية الشيوعية في بولندا وتشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفيتي ، واكتشف أشياء جديدة عاد بعدها الى وطنه ماركسيا مؤمنا ، وأسس أولى النقابات في غينيا ، وكان قد نظم في عام ١٩٥٣ أحد الإضرابات الفعالة ، فنشأت عبارة مرتبطة بأيام الكفاح وهي أن سيكوتورى يستطيع أن « يقتل بالكلام » وبقيت هذه العبارة تسمع في غينيا بعد ذلك كثيرا .

وفي عام ١٩٤٦ في باماكو عاصمة السودان الفرنسي كان قد أنشئ حزب الجمعية الافريقية الديمقراطية ، وقد تعاون كل من هوفويت ، ويغنى في انشاء هذه المنظمة السرية التي كانت تعمل في الاصل مع الشيوعيين وان كانت قد انفصلت عنهم أخيرا .

وقد بدأ نجم تورى في الصعود سياسيا مع حزب الجمعية الديمقراطية الافريقية . وبعد أن أصبح في عام ١٩٥٣ قنصلا اقليميا في بيللا أصبح في نوفمبر عام ١٩٥٥ عمدة مدينة «كوناكرى» عاصمة غينيا .

وفي عام ١٩٥٦ صار ممثلا لغينيا في الجمعية الوطنية الفرنسية وفي هذا الوقت انفصل عن « هوفويت ويغنى » ونظم حزب الجمعية الوطنية الافريقية في غينيا على أسس ماركسية ، وكان عدد أعضاء حزبه « الحزب الديمقراطي الغيني » ٧٠٠ ألف عضو ، وأصبح تورى الزعيم السياسي لغينيا .

وعندما أعلن القانون المحلي في عام ١٩٥٧ انتخاب نائبا لرئيس الجمعية التنفيذية ، وأصبح في الوقت نفسه قنصلا عاما لغربي افريقية الفرنسية ، وانفصل بعد ذلك مؤقتا عن الماركسيين الذين هم على اتصال بموسكو ، وقد رأى سيكوتورى في الاستقلال الذاتي الداخلى خطوة تقدمية ، اذ تمكن غينيا عن طريقه من مواصلة تقدمها . وقد تطلع الى القانون على أنه حل انتقالي .

وأخيرا وصل سيكوتورى الى حد الصدام مع دييجول ، فانتهزت دول الكتلة الشرقية ذلك وأرسلت وفودها الثقافية والاقتصادية ،

وعقدت المعاهدات فأنشأت غينيا مكتباً خاصاً للتجارة الخارجية مع دول الكتلة الشرقية .

وقد انتهر رئيس وزراء غانا على وجه الخصوص هذه الفرصة فقدم الدكتور نيكروما قرضاً إلى غينيا في حدود عشرة ملايين من الجنيهات ، وكونت حكومتا غانا وغينيا اتحاداً أعلن في بلاغ مشترك يقول : « اننا تطبيقاً لنظام الثلاث عشرة مستعمرة الأمريكية التي اتحدت بعد نيلها الاستقلال في شكل اتحاد تطور أخيراً إلى ما يسمى بالولايات المتحدة الأمريكية قد توصلنا نحن رئيسي وزارتي غانا وغينيا باسم حكومتينا بتفويض كامل من مواطنينا إلى جعل دولتنا كنواة لاتحاد دول غربى افريقية » .

وقد أثار هذا الاتحاد موجة كبيرة من التساؤل : فالفرنسيون اشتعلوا غضباً من هذا الاستفزاز السافر القادم من غينيا ، أما الانجليز فقد ارتضوا سريعاً بهذا الارتباط الحكيم ، فقد أعلن نيكروما وثائق التصديق في أثناء مؤتمر الشعوب الافريقية الكبير في أكرا في ديسمبر عام ١٩٥٨ وتلقى التهنئة والاستحسان من مندوبى الشعوب الافريقية الا أن البعض ظل صامتاً لا يستطيع التكهّن بما يمكن أن يكون وراء ذلك : فنكروما يريد أن يكون زعيماً لافريقية المتحدة على حين أعلن رئيس وزراء السنغال « أن حقوق غانا لا تهمه ، ومن جهة أخرى لم يرغب النيجيريون والليبيريون معرفة شيء عن اتحاد «تورى» «نيكروما» .

المشاكل العنصرية هي مشاكل التربية

قابلت تورى قبل سنوات في أثناء اقامتى في كوناكرى في الجمعية الوطنية ولكنه لم ينل اعجابى الذى ناله توم مبيوا عندما رأته لأول مرة ، فقد كنت متوتراً بعيداً عن تلقى الانطباع الذى يمكن أن يتركه فى نفسى كرئيس لبلاده ، وعندما بدأت رحلتى الافريقية العاشرة كانت غينيا قد أصبحت مستقلة ، وسمعت انباء سيئة عن الحالة وكان الحديث يدور حول القبض على الأوربيين اثر ثورة ضد جميع البيض ، ولم يكن هذا كله مشجعاً على السفر الى هذا البلد ، ولكنى على الرغم من ذلك تجرأت وكنت من أوائل الأوربيين الذين زاروا غينيا المستقلة .

واظهرت الرغبة فى الحديث مع الرئيس ، وسرعان ما اجيب طلبى فى عصر أحد الايام اثر وصولى الى الفندق ، وتمت المقابلة الساعة ١٦ر٣٠ من اليوم نفسه حيث افصح لى عن أنه لا بد من عقد اجتماع

لمجلس الوزراء مما دعاني الى التساؤل : هل لديه الوقت للحديث ؟
وقد رد الرئيس سيكوتوري على ذلك بقوله : انه قد حرر نفسه لمدة
ساعة فادر فيها مبنى مجلس الوزراء لكيلا يضطر الى تأجيل لقائنا
كما قال ، وقد ذكرت هذه الحادثة لانها اظهرت لى ان هذا الرجل شخص
نموذجي برقم ما يقال عنه : « انه معروف بكرامته العميقة للبيض فضلا
عن مزاجه العصبي ، وقد عرفت فيما بعد ان هذا كله غير صحيح ، فهو
رجل مؤدب طبيعي عطوف .

وبالنظر الى الحوادث التي حدثت في الأسابيع الأخيرة كان من
الغريب الحديث عن المشاكل العنصرية ، وقد استفهمت : هل يتبع
سياسة ضد البيض والاسس العنصرية ؟ وكان رده ان اوقفني عند
مرحلة استفهامي نفسها قبيل انعقاد مجلس الوزراء ليسمعني محاضرة
خاصة حول المشاكل العنصرية .

قال لى : ان الانسان في الوطن لا يعرف اى احكام عنصرية ،
فالاطفال على سبيل المثال لا يعرفونها ذلك ان المشاكل العنصرية مشاكل
تعليمية تربوية . وقد تعلم الافريقيون من الاوربيين ، والسؤال الآن
هو : هل من المجدى ان يفكر الافريقيون الا بروح عنصرية بعد ان
قاسوا ذلك تحت نير الاحتلال والاستعمار ؟ اقول : انه لا ينبغي
للاوربيين ان يظنوا ذلك ، فقد اعلنت لهم ان من يفكر او يتعامل عنصريا
في بلادى فانه يقامر بشخصه ، ان لكل عنصريته كما ان له عقيدته ،
هذا ما لا يهمنى في مجمله ، انما الذى يهمنى هو الانسان بكيانه مهما كان
لون بشرته . وان هذا هو المثل الذى اريد ان اعطيه في غينيا وذلك
بترحيبي بكل ابيض في اى منصب كترحيبي باى رجل اسود . ان بلادى
تحتاج الى اناس ذوى نيات طيبة بصفة خاصة لاننا حصلنا على
الاستقلال على الورق فقط ، وقد وصلنا الى تحقيقه ولذلك فاننا لم
نحتفل باستقلالنا مؤقتا حتى الآن ، الامر الذى سنفعله فيما بعد ،
اننى لا اعلم هل تعرف شيئا عما دعوت اليه مواطنى في يوم الاستقلال؟
لقد كان ما دعوت اليه الآن هو اننا قد بدأنا طريقا شاقا طويلا للعمل .

غينيا تتطلع الى الشرق

حين استقلت غينيا ورحل الفرنسيون عنها حافظ الغرب على
البقاء بحجة الرغبة في التضامن وذلك لانه يعلم انه اذا غاب فان الشرق
يستطيع ان يصبح صاحب اليد العليا ، ولدينا مثال حى على ذلك :

فلقد اراد تورى الحصول على السلاح للبوليس من امريكا لى

يستطيع المحافظة على النظام والسلام فتردد الأمريكيون شهورا طويلا دون أن يتكرموا حتى بالرد على ما طلب ، وأخيرا وصلت سفينة بولندية محملة بالأسلحة والذخائر التشيكوسلوفاكية !

وليس هناك من شك في أن دول الكتلة الشرقية تنتظر أن تحصل في غينيا على مراكز أعمال ، ففي الأسابيع الأولى لوجود هذه الدولة الفتية قدمت وفود من روسيا والصين وجميع بلاد الكتلة الشرقية الستالينية مثل تشيكوسلوفاكيا وبولندا ورومانيا وهنغاريا ، وفجأة عقد سيكوتوري معاهدات ثقافية مع ألمانيا الشرقية ومع تشيكوسلوفاكيا ، وأخيرا مع الاتحاد السوفيتي ، وقد سألته عن الغاية من ذلك فأجاب : لقد قدمت لي هذه المعاهدات ودرستها وصدقت عليها ، والآن حصلنا على المساعدة العلمية التي نحن في أشد الحاجة إليها وأصبح في استطاعتنا إرسال طلاب العلم من بلادنا الى الخارج .

وهنا أتساءل عن دور توري بين الساسة الأفريقيين الذين يتجهون الى الشرق وما غاية الاتحاد السوفيتي الذي أعطاه قرضا بلغ ١٤٠ مليون روبل كمساعدة عاجلة ؟

يقال : ان الحكومة السوفيتية تعتقد أنه من الممكن أن تصبح غانا دولة نموذجية لاتحاد افريقية المستقل في رداء الشخصية الشيوعية ، ويبدو أن الكرملين يأمل ألا تسمح هذه الدولة النموذجية بإقامة أية قواعد عسكرية غربية ، وأن تظل على الحياد عسكريا .

هذا وقد نوه توري مرات عدة باعترافات تلميحية بالماركسية ويشار الى أيديولوجيته بالتراجعية فهو قد وصل أيديولوجيا الى المرتبة الثانية بعد تيتو على الأقل وفي غينيا يشار الى الاسس الماركسية في كلمات أو ردوس مسائل أو عناوين هي :

توري القاضي على الاستعمار المتطرف ، نظام الحزب الواحد النظام الهرمي للجان التنفيذية في البلاد كلها ، انضمام واندماج النقابات كلها في الحزب الذي سيدعم أسلوبها التطهيري ، فكرة التخطيط التي تسير في نطاق مشروع السنوات الثلاث الذي تنفذه الحكومة للسماح بتطوير الاقتصاد الغيني .

هذا ، وفي أثناء الإقامة في مراكش قال توري : لسنا شيوعيين ولكنه يستشهد غالبا بالمركزية الديمقراطية الماركسية « فكل مواطن صالح للزعامة » ونحن نريد أن نصنع التاريخ لا أن نكون موجهين من التاريخ . وبهذه الوسيلة نصل الى الأفضل من المصادر الاقتصادية والانسانية لمصلحة الشعب .

وخينما يشير الى الاستثمارات الاجنبية نجده قد طور الافكار
التيتوية « المنتسبة الى تيتو » فيقول :

« من هذه اللحظة فصاعدا حيث حددنا الشروط التي يمكن ان
توجد الاستثمارات الأجنبية على أساسها في غينيا ستظل اهدافنا كما
هي دون تغيير » .

وقد انشأ سيكوتورى وكالة حكومية للاستيراد والتصدير بدلا
من التجارة الرأسمالية السابقة . هذا بالإضافة الى ان اكبر مؤسسة
اقتصادية في غينيا وهي شركة البوكسيت والألومنيوم تعمل اليوم مثلما
كانت الحال سابقا تحت اشراف مهندسين فرنسيين وفقا لاسس
رأسمالية خالصة ، ولكن تمكن المكتب السياسى في كوناكرى من الوصول
مع الشركة الى تسوية تدفع الشركة بمقتضاها ضريبة على تصدير
البوكسيت .

ولكل هذا أطلق على سيكوتورى لقب تيتو الافريقى ، وذلك لانه
يشبه كثيرا ما رشحال يوغوسلافيا ، فهو لايعترف بستانين كاله ولا
بخروشوف كتنى وابعد من ذلك فانه ثبت ان تورى مثل تيتو الذى يخشى
البلقانية فقد طالب تورى بانشاء اتحاد افريقى ، وعند زيارته لموسكو
قال :

« أننا لا نعترف بشرق او بغرب بل نفهم ان هناك استعماريين »

وقد رحبت الحكومة السوفييتية بهذا الاتجاه الحياذى ولهذا
احتفى به في موسكو احتفاء عاصفا ، وتورى يتجه بتفكيره نحو المساعدة
الدبلوماسية والمادية والمعنوية من الاتحاد السوفييتى ، وقد سعى في
الحث على الحصول على مساعدات متصلة بأن اشار الى غينيا كمركز
لنضال جميع شعوب افريقية . فقد قال للرئيس فورشيلوف : ان غينيا
بلد صغير ولكننا رفعنا راية الحرية عالية دون ان يعترينا اى خوف .

هذا وبعد ان طور تورى المغامرة الى نجاح اعترف معظم دول العالم
باستقلال بلاده سريعا وقد حصلت غينيا على فوائد جمة تحت زعامته
منها الاتحاد مع غانا ، وفي هذا الصدد يمكن القول بأن من الجائز ان
يكون تكتروما قد وجه سيكوتورى في هذه الاثناء الى الرأسمالية وهذا
لا ينافي الاعتقاد بأن تورى يفكر في ان يصبح الرجل الاول للدول الافريقية
الاشتراكية على حين ان من العارفين من يعتقد ان الاتحاد السوفييتى
لا يهتم كثيرا بتقديم مساعدته لانشاء اول دولة اشتراكية هنا لأن البلاد
صغيرة ، هذا بالإضافة الى ان الشخص الذى يحتاج الى مساعداتهم
هو فليكس رولاند مومى زعيم المعارضة في الكمبيرون الذى كون حكومته

في المنفى، ومهما يكن من الامر فانه من الممكن تأييد سيكوتورى طالما ينهج منهج مارشال تيتو .

رأس جسر للاشتراكية في غربى افريقية

غالبا ما تتضارب الآراء حول اتجاه غينيا الشيوعى حتى اننا لايمكن أن نأخذه مأخذ الجد ، وآية ذلك هى حوادث أوائل عام ١٩٦٠ ، فقد انفصلت غينيا عن فرنسا وأنشأت لها عملتها الخاصة وشكت غينيا حكومة بون الى الامم المتحدة لامدادها الرئيس دييجول بالمال والجنود والمهندسين من أجل تنفيذ مؤامراته الافريقية التى تتمثل فى صناعة القنابل الذرية والفرقة الاجنبية ، وأخيرا فان غينيا تفاوضت مع بعثة باتكوف على حين أنكر سيكوتورى ذلك وهو الذى لم ينكر انه لم يقم يوما باتصالات دبلوماسية مع باتكوف .

هذا وقد قام تورى بالمفاوضات بنفسه مع خروشوف فى موسكو بعد أن زار واشنطن وبون ولندن ، وقد عرضت عليه موسكو وبكين الخبراء وفى هذه الاثناء اشتدت حدة الأزمة الاقتصادية فى غينيا الامر الذى جعل سيكوتورى يعلن موافقته على المقترحات غير المشروطة المقدمة اليه من الشرق .

ولذا فان المرء كثيرا ما يلتقى الآن بعدد من الخبراء الشيوعيين من جميع دول الكتلة الشرقية فى كوناكرى ، أولئك الذين يعملون فى مناطق خاصة ولكنهم يعملون فى الوقت نفسه كعملاء سياسيين ، فلم يسلم أى قطاع منهم ! .

فروسيا لا تساعد فى تنفيذ المشروعات الصناعية المختلفة فحسب وانما تقوم ببناء استاد رياضى ضخم فى كوناكرى ، على حين يقوم مدربون مجريون بتدريب الفرق الرياضية الغينية .

ويقوم الصينيون بتطوير التعاونيات الزراعية الى الكوميونات الصينية بالاضافة الى ان الاخصائيين الروس يعاونون فى ذلك وينشئون كلخوزات على النمط السوفيتى

وبين صفوف الجيش مجموعة من الضباط التشيكيين يعملون على تنظيمه على حين يتدرب ضباط الصف الفنيون فى تشيكوسلوفاكيا .

هذا ، وقد ارسل الاتحاد السوفيتى واحدا من أعرق خبراءه فى الشؤون الشرقية كسفير الى كوناكرى وهو : دانيال س. سنولود

الرئيس الحالى لقسم الشرق الأدنى فى وزارة الخارجية فى موسكو ،
وهو المشهور بنجاحه فى بناء قلاع الأعمال الشيوعية .

وقد اغرقت جميع بلدان المعسكر الشرقى غينيا بالمواد الدعائية من
كتب وكتيبات ومجلات وأفلام ، وبالإضافة الى كل ذلك سمح بالتعليم
السياسى طبقا للنظام الروسى فى المدارس فيثقف الطلاب سياسيا بالتعاليم
المعروفة ، ومن أمثلتها ان الجمهورية الشعبية الديمقراطية الالمانية هى
الديمقراطية الحقيقية المحبة للسلام ، اما حكومة يون فتمثل الفاشية
الجديدة والاستعمار فى ثوبه الحديث .

مراحل التطور الثلاث

فى نوفمبر عام ١٩٥٥ خطب الرئيس تورى فى لندن فى المعهد
الملكى للشئون الدولية فقال :

« ان بلدنا بلد متطور ، وقد اجتاز ثلاث فترات واضحة المعالم :
الفترة الاولى كانت فترة ما قبل الاحتلال تلك التى تفسخنا فيها
اقتصاديا ، بفعل طائفة كانت لها معاملاتها الخاصة وتصورها الخاص
للتنظيم الاقتصادى ، وكذلك فلسفتها الخاصة كما ان لها طابعها
الحضارى المميز ، ولكن الامر المهم فى هذا كان حضارتنا المميزة .

وفى اثناء المرحلة الثانية تبودلت الصلات عن طريق وصول الاجنبى
وكانت فى بادىء الامر ذات طابع اقتصادى ، ثم اجتماعى ثم ثقافى
وسياسى ، وقد قوطعت وتغيرت عادات حياتنا الاصلية فى هذه الفترة
من جراء الاتصال بالحضارات الاخرى وفى احيان ادت المرحلة الاولى
الى تنمية الفردية ، وفى احيان اخرى اصبح الفرد ديناميكيا ، وعلى أية
حال فقد تغيرت الحياة وازدثت من سيرها العسائى على كل النواحي .
ففى عصر اجدادنا كانت تحكم البلاد الانقسامات القبلية واللغوية
والجنسية ، وحين أصبحت البلاد الافريقية مستعمرات لم تحترم
الانقسامات الطبيعية حدودها طويلا ، كما كانت سابقا على سبيل المثال
فى السنغال والسودان .

فقد سكنت هذه البلاد الاجناس نفسها وقد كانت لهم الحضارة
إنفصا وملامحها المميزة هى حضارة القارة الافريقية كلها ، ولكن
المستعمرين كانت لهم اساليبهم الخاصة : فأول التغيرات التى نفذوها
كان الخاص بالحدود الذى اعتبر مساعدة سلبية ، والثانى هو ارتباط
الاقتصاد الافريقى بالاقتصاد العالمى الذى كان ذا طبيعة ديناميكية ،

الأمر الذي أحدث تغييرا كبيرا ، فقد عمل على توسيع الأسواق وخلق فرصا اجتماعية أكثر . ولولا ذلك ما استطاع التطور الاجتماعى أن يكون ناجحا جدا لأن القاعدة الطبيعية كانت تنقص الشعب ، فالمنظمات الاجتماعية خلقت فى الوقت نفسه مشاكل جديدة ، وقد ربطنا التعليم بالحضارات الجديدة فقد تشرب عدد معين منا بحضارات البلاد الأخرى، الأمر الذى كان من نتيجته الانشقاق الحضارى لأفريقية ، وهنا أسأل : هل لى أن أسوق مثلا شخصا ؟ اننى أشعر شخصا بالسرور مع أصدقائى الفرنسيين أكثر من أخى الأكبر الذى لم يلتحق بالمدرسة اطلاقا . إذن فالاحتلال يهتم بتوافر امكانية التقسيم بالنسبة لصفوة أفريقية صغيرة ، ولكن ذلك يكون على حساب الانشقاق العميق بيننا.

وكثيرا ما نشاهد التقدم المادى فى شتى الميادين ولكن سعادة الإنسان لا تتعلق بالأشياء المادية ، فقد ينشأ من التطور المتناسق عناصر روحية ومادية ولكن الاخطار تبدو بظهور فراغ معنوى ونحن الذين نوجده فى بيوتنا أكثر من أى مكان آخر ، هذه هى المشاركة السلبية للاحتلال ، أما التطور الذى كان مغرما بالحقوق فى مناطق ما قبل الاحتلال فقد أصبح الآن متميعا ، لقد مرت العصور المختلفة فى أفريقية دون تناسق وطبقا لقوانين مختلفة ، ففى إحدى فترات الترابط الحربى والإدارى والثقافى استعملت قوانين واحدة للبلاد كلها ، ولذا فقد أخذ المرء يسعى الى إيقاظ الشعور الإيجابى بالانتماء الى مجتمع كبير مثل العائلة أو القبيلة ، ولكن هذا أدى الى نتائج سلبية أيضا ، ذلك أن النظام الموحد لم يكن صالحا بل أثار أزمات شديدة .

وفى خضم هذه الحال أفاد بعض الأفريقيين من امكانيات التطور الجديدة ، ولذلك نجدهم قد رحبوا بالتكيف أولا ، لأنه أعطى الحرية فى تشييد آفاق جديدة وكان الهدف الأصلى هو المساواة بين الحكام والمحكومين ، وبرغم ذلك فقد وجد الأفريقيون عند انتخابهم على سبيل المثال ، فى الجمعية التشريعية أن مشاكلهم أبعد ما تكون عن الحل ، وتلا ذلك اشكالات أخرى عندما أسست الحركة النقابية واتحادات الطلبة ومنظمات جبهة الكفاح ، المنظمات الثقافية والأحزاب السياسية ، تلك التى وضعت الأساس للشخصية الأفريقية .

ثم تلت كل ذلك فترة ثالثة عرفنا فيها أن الطابع الذاتى لشخصيتنا ليس كافيا ، فقد كان لابد أن نبحث عن أشكال جماعية لاتحادنا لأنفسنا ونحن أفراد لن نستطيع أن نصتلى الى هدف التعبير عن الشخصية الأفريقية ، وهذه الفترة هى أهم المراحل جميعا ، ولكنها أيضا أصعب مرحلة يمكن أن توصف ، فالأفريقيون يعتقدون أن المرحلة الديناميكية

للاحتلال أعطت افريقيا حقائق ايجابية للعمل ، ونحن من جانبنا نريد المحافظة على العمل الايجابي للاحتلال والاتصالات المتزايدة والفرص الكثيرة للتبادل .

وعلاوة على ذلك فنحن نريد أن نحدد أعمال الاحتلال السلبية .
فنحن نؤمن أن افريقية تمتلك امكانيات النمو الاقتصادي ، وتؤمن أن الاستقلال يشكل عاملا للمشاركة في المكانة وتؤمن أيضا أن الاستقلال لا يمكن أن يجلب لنا الجنة على الارض .

نحن نعلم أنه يجب علينا أن تكون وحدة ، وما الاستقلال إلا وسيلة ، لذلك فأننا واقعيون نريد كسب فهم الشعوب الاخرى وتقوية تعاوننا معها لاعادة التوازن .

ان الانسان يجب أن يحقق نفسه كجوهر انساني وعندما لا نستطيع أن نهىء لانفسنا الظروف الملائمة لنا فأننا يجب أن نهيئها لأولئك الذين سيأتون بعدنا . ان هذه هي القسوة الحقيقية الدافعة للقومية الافريقية ، ويمكن « للأوروبيين » أن يقوموا بمحاربة العدمية لأنهم قد تغلبوا على هذه المرحلة أما نحن فلا ، وهذه هي مأساة وضعنا ونحن نريد القوانين التي تعبر عن ارادة شعبنا تلك القوانين التي لم توجد حتى الآن ، ان أى نظام وضعى مهما بلغ من الجودة لا يمكن أن يكون ذا قيمة كبيرة شأن ذلك الذى يهيئه الشخص لنفسه والا فقد ضاعت كرامة الانسان .

الاعتراف بنقابات العمال

كثيرا ما يصرح تورى « أن غينيا تواجه عدة مشاكل : فالبلاد تتكون من قبائل كثيرة ، تتحدث بنحو عشرين لغة مختلفة تقريبا ، وهذه احدى المشكلات التي لا بد من حلها ، وأنه ليس من المفيد التفاوض عن حقيقة الانقسامات الداخلية التي من الطبيعى أن يترتب عليها وجود معارضة ولكن فى سنين ثلاث أو خمس يتعود الشعب كل شىء جديد ، فالغينيون يرغبون فى تحمل مسئولية حياتهم الخاصة ، وليس من شك فى ان المرء يمكن أن يوجه النصيح المرشد الى أخيه دائما ، ولكنه سيفضل أن يصلح أخطائه بنفسه ، وهذه السيكولوجية الافريقية هي السبب المستمر فى ظهور الوطنيين من شباب الافريقيين الذين يبحثون عن العدالة والمساواة ويسعون للوصول اليها .

يقول تورى : « يجوز أن أعطى مثلا لما أقصد : ان صاحب العمل

مثلا يمكن ان يقرر اعطاء اجر يقدر بألف فرنك حتى لو كان يعلم ان الحد المقرر للأجر يبلغ خمسمائة فرنك . ولا شك أن كل عامل سيكون سعيدا بالحصول على اجر مضاعف ، ولكن اذا قام بين عاملين نوع من عدم المساواة فسيختل الترابط بين الجماعات كلها نتيجة للتفرقة في المعاملة ، وصاحب العمل لا يفهم هذه المشكلة الانسانية ولا يرى اكثر من انه ضاعف اجر عامل ما على حين ان الافريقى يهتم بالمساواة ، فنحن نطالب في الوقت الحاضر بالمساواة في الحقوق والمعاملة لانها تعنى بالنسبة الينا تقوية الروح المعنوية .

ان لنا الاهداف نفسها في غينيا كلها ، ونحن نؤمن بالنقابات ولكننا راينا ان الأعمال النقابية ليست كافية وحدها ، بل يجب ان نستخدم النقابات كسلاح سياسى واقتصادى معا لان هذين السلاحين يخدمان الهدف الذى نرمى اليه نفسه .

يجب اذن أن ننظم أعمالا سياسية مشتركة بوساطة النقابات وتلك من أولى المشاكل المشتركة وخاصة أن المشاكل الفردية قد تعددت مؤخرا : ففي الماضى كنا منقسمين ، يخضع بعضنا للنقابات التى ذابت فى اتحاد النقابات العمالية العالمية ، والبعض الآخر انضم الى اتحاد النقابات الحرة . وقد انتسبت أنا شخصا الى اتحاد العمال العام الذى انضم الى اتحاد النقابات العمالية العالمية ، أما الآن فنحن نريد حركة نقابية عمالية افريقية متحدة ، لا تتطلع الى الفوارق العنصرية ، حركة هدفها الرئيسى الحصول على الاستقلال وهدفها الاخير العمل لمصلحة العمال .

وستلاحظون اننى اسمى الهدف السياسى « الهدف الاول » واننا نريد الوصول اليه عن طريق النقابات العمالية . وهذا هو طابع نفسيتنا الحالية فقد أصبحت جميع النقابات الآن سياسية ، والكل يعمل من أجل الاستقلال فى نوجولاند وفى المناطق التى كانت تابعة لغربى افريقية الفرنسية . وقد ضمنا مجموعة من نقابات المناطق الانجليزية التى كانت ضمن الاتحاد الدولى لنقابات العمال الحرة ، ولكن قد تقرر فى المؤتمر الاخير للاتحاد العام لعمال افريقية السوداء أن نتضامن مبدئيا ، كما أصبح زعيم نقابات العمال فى غينيا نائبا للرئيس . هذا وقد قررت بعض النقابات التونسية والمراكشية فى كوناكرى ان يكونوا اتحادا معنا . ونحن لانرغب فى ان تكون هذه منظمة سلبية ، بل نريد أن تشارك ايجابيا فى تطوير بلادنا ، ونرى الا نستغل المنازعات الايدلوجية لاننا نحتاج الى برنامج مادي تناضل من أجله ، وقد وضعنا برنامجنا بالتعاون مع نقابات العالم جمعاء ولم تقفل الباب ، فكل نقابة يمكنها

أن ترسل ممثلينها الي غينيا لمناقشة المشاكل معنا ، ويكون من الافضل لو استطاعوا تقديم المساعدة لنا .

ان اوروبا اليوم مشغولة بموضوع السوق المشتركة وهى ترغب فى عقد صلات مع افريقية وقد عارضنا ذلك فنحن نضع اليوم مخططا لسوق صغيرة ، ويجب ان توسع سوقنا الحرة هذه ، واننا فى ذلك لانوجه أعمالنا ضد أحد ، ولكننا نفضل الاتفاقات المعقولة ، ونعتقد أنه من الافضل ان نقول ذلك واننا شعب متأخر ، ولكنه فى طريق التطور ، ونحن مسئولون عن أعمالنا ، ونرى ان تكون لمصلحة هدفنا ، فنحن نطمح فى ان نخلق وعيا جديدا ، فحين اقترعنا ضد دستور ديجول كان ذلك على أساس نظرتنا الجديدة التى تطورت وأكسبتنا الثقة فى مستقبلنا .

ان بلادا أخرى تقدر الحرية ولكنها لا تملك الامكانيات التى لدينا .

القضاء على العادات القديمة المعارضة

وفى لندن توجه الرئيس سيكوتورى الى العالم قائلا : هاهى ذى أمثلة من أعمالنا منذ حصلنا على الاستقلال ، فقد تحررنا من العادات القديمة فى قرانا التى استغلها رؤساء القبائل لمصلحتهم الخاصة من قبل . ولم يكن الناس أحرارا فآثرنا الشعب ضد رؤساء القبائل من أجل مصلحته وأنشأنا نظام المجالس المنتخبة ، وبذلك أصلحنا القرية ، وقد حدد ثلث مقاعد القرية للنساء وهناك كثير من القرى تتولى منصب العمدة فيها النساء .

وكذلك أنشأنا مجالس المناطق ويختار أعضاؤها عن طريق الانتخاب الكلى ومن يبلغ الحادية والعشرين من العمر يتمتع بحق الانتخابات عندنا ، هذا وتضم المنطقة فى العادة ما بين مائتين وثلثمائة ويخص الفلاحين ستة مقاعد من كل عشرة حتى ان كل مجلس به أربعون مقعدا فيه أربعة وعشرون فلاحا . وليس للمثقف ميزة عن غير المثقف .

وقبل الاستقلال كان فى غينيا احزاب أما اليوم فجهة قومية تمثل حزبا واحدا هو الحزب الديمقراطى الغينى ، وأولئك الذين يلقبوننى بدكتاتور لأن لدينا حزبا واحدا وليس لدينا معارضة فذلك لأنهم لا يفهمون ما نحاول عمله ، ان الحزب ليس هدفا بل وسيلة للوصول الى الهدف وهو الحرية الانسانية .

وقد وجهت اليها انتقادات كثيرة من الخارج ، وقيل عن نظامنا انه ليس قادرا على العمل ، ولكنه يعمل كما انه ديمقراطي ايضا ، فالكل متساوون في القرية ، والغالبية هي التي تتخذ القرارات ، وهذا ما يعث الثقة في نفوسنا ، كما انه ليس للنايبيين امتيازات خاصة ونحن نناقش جميع المشاكل ، حتى يستطيع الكل ان يشعر بانه ينطوي تحت لواء هذه الامة الجديدة ، ان غينيا توحدنا جميعا .

ومنذ اعلان الاستقلال لم توجد أية قضايا سياسية على الرغم من وجود معارضة داخل نطاق الحزب لا خارجه ، ولقد تخيرنا هذا النوع من المعارضة حتى يكون فلاحونا وعمالنا اناسا عمليين يهتمون بالمشاكل المادية ، ونحن في ذلك لا نناقش الماركسية ، اننا اذا اردنا ان نشيد مدرسة او قنطرة نسأل أولا : اين يجب انشؤها ؟ ثم نسأل عن النتائج المترتبة على انشائها بعد ذلك .

ودستورنا ينص على الحرية الكاملة التي تسمح بوجود احزاب المعارضة ، فالحرية مكفولة لوجود معارضة ، الا أن نسبة ٩١٪ من الشعب صوتت لمصلحة الحزب الديمقراطي الغيني ، على حين حصلت المعارضة خارج الحزب على ٥٪ من الاصوات فقط ، وأخيرا قررت الانضمام الى حزبنا وهذا يعنى الوفاق .

وبالإضافة الى ذلك فقد حصل اثنان من زعماء المعارضة على مراكز قيادية ، والحق أن المعارضة يمكنها أن تعبر عن رأيها داخل نطاق الحزب أفضل من خارجه .

وبالنسبة للتطور الاقتصادي الذي هو أهم مشاكلنا فنحن نشجع الاستثمارات ، وخططنا تقوم على الدعوة لمؤتمر من جميع المنظمات في غينيا لعرض المشروعات الجديدة ونتائجها على الوفود : ففي سنة خفطنا ضريبة الرؤوس الى النصف ، ولكن الاجماع القومي قدمكننا أن نحقق الكثير أيضا في السنة الماضية برغم أن الانقسام كان لا يزال ممكنا ، فقد أصبحت كل قرية تشكل قطاعا مستقلا ، مسئولاً عن مصالحه ، وللقرية أن تقرر بناء مدرسة أو صيدلية الخ ، وهذا يعنى اتساعا في الميزانية القومية ولأننا نمتلك من الأيدي العاملة عددا وافرا فقد نفذ العمل في شهرين أو ثلاثة ، وانشأنا ثمانية آلاف كم من الشوارع وخمسمائة مدرسة ومئات من الصيدليات وعددا من القناطر .

واذا قررت قرية انشاء شارع يستدعى انشاؤه بعض الممتلكات ، فان على مجتمع القرية اعادة بنائه في المكان المناسب ، واذا احترقته

بعض الممتلكات ، وهذا سهل الحدوث لأن منازلنا مبنية من القش ،
تعمل القرية كلها في إعادة البناء بالمشاركة .

« ان هدفنا الرئيسى انسانى . »

الشخصية الافريقية

ان جميع رجال الساعة فى افريقية يتجهون دون تردد الى الشخصية
الافريقية ، وبمعنى أدنى الى اظهار الشخصية الافريقية الخاصة . وقد
تحدثت فى هذا الشأن مع البون ديوب « محرر صحيفة افريقيا اليوم »
فى باريس ومنظم المؤتمر الدولى للكتاب والفنانين الزنوج . ومما تجدر
الاشارة اليه ان النابهين فى باريس يتتبعون تصريحات سيكوتورى بامعان
وانتباه وقد قال (ألبون ديوب) :

« ان حضارتنا يجب أن تعطى أكثر من مجرد الاثارة ، ويجب أن
نحدد طريقنا ، وقد أظهرت التجربة اننا نستطيع حل مشاكلنا كل مرة
اذا المنابها عن طريق افكار افريقية خالصة » .

وقال الرئيس تورى فى هذا الصدد : « ان مضمون مفاهيم
الاستقلال والوحدة التى تكرر فى مفاهيمها بالنسبة للافريقيين هى
ما يأتى : التفسير السليم الواضح للمعلومات التاريخية والتى تعنى
الحرية والسلام والتقدم ، وهذا تعارض طبيعى ، اذ يعتبر الاتحاد
الجامع للأوربيين والافريقيين زيفا فى نظر بعض السياسة القلائل الذين
يناثون فكرة الاتحاد ويتشبثون بفكرة « أن افريقية لن تصل الى
وحدتها » .

« وقد صرح ديالوا أيدويلا « الممثل الدبلوماسى لغينيا فى غانا قائلاً:
بالنسبة لجواريبي هذا الاستعمار الجديد كان فى الامكان قيام منظمة
الشعوب الفرنسية ، وكان وجود الكنفو البلجيكي ، أمراً ممكنًا كذلك ،
وفى نظرهم كانت انجولا تشبه البرتغال كما أن افريقية تكمل أوروبا فقد
قال تورى : « ان هذا القول المجافى للحقائق الجغرافية والحضارية
والاقتصادية والعنصرية يصور لنا الى أى حد كانت الحال مخجلة .
فالتعارض كان عزيزاً عندما لم يكن معترفاً بإمكانية وجود الشخصية
الافريقية ، تطبيقاً لنظرية التفكير العنصرى التى ارتكزت على ممارسة
ضغط الاحتلال ضغطاً متصلاً على افريقية » (وقال تورى) :

« ان طريقنا على العكس من الطرق المختلفة التى اقترحت فى

للماضى منبعثة من شعور الكبرياء أو تفوق النوع . اننا نلتبس الطريق الافريقى الذى يعيد بناء الشخصية الافريقية والذى يضع بناء القارة على ايدى ابنائها فى خدمة الانسانية جمعاء ، ان اهداف القطاعات المختلفة تتكامل ، وان هذه الوحدة الحقيقية تؤدي الى مظامح التطور التى ترتبط بجميع مظاهر التكيف ، وهنا يجب الانصراف الى التفكير فى بعض الارقام العددية . فمن ٨٠٪ من مجموع شعوب الارض ، بصرف النظر عن الاتحاد السوفيتى ، استخرجت افريقية وحدها فى عام ١٩٥٠ ما يعادل ٥٤٪ من الذهب و ٤٦٪ من الكروم و ٦٠٪ من المنجنيز ، وفى عام ١٩٥٤ جلب الكنفو البلجيكى السابق وحده ٦٠٪ من ماس العالم .

هذه هي الامكانيات لتطور افريقية ، ولذا فنحن نقول : ان افريقية فى حاجة الى الحرية لكى تستفيد شعوبها من نتاج الكنفو .

ان مفهوم التقدم ينأى عن معناه الانسانى عندما يحد بمبادئ الطبقة والامة والجنس ، وقد فشل الاحتلال والاستعمار فى استغلال واضطهاد الشعوب المستعمرة لانهما بالرغم من انهما كانا يملكان وسائل تحسين ظروف المعيشة لتلك الشعوب ، عاشا فى انانية واستغلال ولا غير ذلك .

ان فرص افريقيا بالنسبة للمستقبل تتركز فى أنها قد حافظت على الفضائل الانسانية والمميزات الاجتماعية صافية عن طريق شقائها اللانهائى ، هذه الفضائل والمميزات التى تتفق مع ما تتطلبه الحياة الصحيحة من مطالب ظلت مهمة منكورة من المستعمر المستغل برغم سنة التطور الانسانى الهائل .

وانه لمن العزيز السؤال عن النظام السياسى الذى تحتاج افريقية اليه للوصول الى الهدف ، وذلك لانه تقوم بين افريقية وبين الدول الاوربية الحديثة اختلافات اساسية مادية واخلاقية ، ولأن الافتراضات شىء والانظمة شىء آخر ، ان الانظمة تختلف عن الافتراضات بلا شك ، فقبل أن تقرر افريقية النظام السياسى الذى تحتاج اليه يجب أن تصل أولا الى مرحلة تطور مادية مشابه لذلك الذى وصلت اليه الدول المتطورة ، والطريق الوحيد الممكن لذلك هو طريق التعبئة الثورية لجميع مصادر المعونة الى جانب الوسائل والامكانيات التى تمتلكها افريقية نفسها .

واننى آمل أن تصل دول افريقية فى خلال السنين العشر القادمة الى الاستقلال غير المشروط ، والهدف الرئيسى لسياسة الحياد الايجابى هو ايجاد التوافق بين الجماعات المختلفة فى العالم كله ، فلا يكون انقسام فى البلاد الى شرقية وغربية .

وما لا يمكن غض النظر عنه هو أن سيكوتورى قد فعل كل هذا
كى يعمق الاتصالات مع الشرق على وجه الخصوص .

التضامن الآسيوى الافريقى

منذ اليوم الحادى عشر حتى الخامس عشر من ابريل عقد فى
كوناكرى مؤتمر تضامن الشعوب الآسيوية الافريقية الثانى ، على حين
عقد المؤتمر الاول فى ديسمبر من عام ١٩٥٧ فى القاهرة ، وهذان المؤتمران
يعدان وحيا من روح باندونج ، وما يحدث اليوم فى آسيا وافريقية يعد
انعكاسا لنتائج مؤتمر كوناكرى ، ومن المعروف أنه قد وجدت
خلاقات ظاهرة ، فأغلب المواطنين الشباب قد رفضوا نفوذ الشرق ،
ولكنهم رحبوا اليوم بكل فرصة مواتية للقضاء على الاستعمار والاحتلال ،
وسيادة الغرب ، وقد تناقشت وفود ثمان وستين جماعة وحزبا وتقابة
افريقية آسيوية وكانت اقوى الشعوب تمثيلا هم زنوج بلدان افريقية
على حين كان الآسيويون يكونون الكتلة الهامة الثانية ، أما الكتلة الثالثة
فهى الوفود العربية ، والرابعة هى الاتحاد السوفيتى وجمهورية منغوليا
الشعبية .

وقد تسمى المؤتمر باسم جديد هو « منظمة تضامن الشعوب
الآسيوية الافريقية » وتتكون السكرتارية الدائمة من شعوب البلاد التالية
« الكمرون وغانا ، والسودان ، والعراق وسوريا ، والاتحاد السوفيتى ،
والهند والصين واندونيسيا واليابان » .

وقد عينت مصر السكرتير العام الذى يعاونه أعضاء من : الاتحاد
السوفيتى والصين ، والهند واندونيسيا واليابان والعراق . وعلاوة
على هؤلاء وفود حكومة الجزائر المؤقتة وغانا وغينيا ، وجمهورية
الكونغو ، وأوغندا ، وحكومة الكمرون المؤقتة .

اما المجلس التنفيذى فيتكون من جماعة افريقية آسيوية ، وعلى
الرغم من أن البلاد المحايدة منضمة الى المؤتمر فان النفوذ الشيوعى
صاحب الأرجحية .

واذا كنت قد اوضحت فيما كتبت ان جميع رجال الساعة فى
افريقية يريدون أن يكون لهم حق التحدث فى السياسة العالمية ، فاننى
أعنى بهذا على الوجه الخصوص أعضاء هذه المنظمة الافريقية الآسيوية ،
اذ ان العديد من التوصيات الحكيمة تظهر كيف يشعر هؤلاء بالمسئولية
تجاه افريقيا كلها . فقد طالبت البلاد الافريقية الآسيوية بمقاطعة بضائع

« جنوب أفريقية » ، وقطع العلاقات الدبلوماسية معها ، للاحتجاج من جديد على سياسة التفرقة العنصرية .

كما أوصى بالاعتراف بحكومة الجزائر المؤقتة (١) ومساعدة الوطنيين الجزائريين بالمعونات الواسعة ، وقد دمغت دول هذه المنظمة بشدة سياسة فرنسا الاستعمارية والتأييد الدبلوماسي ، والمساعدات المالية والعسكرية التي تتلقاها من الدول الاستعمارية ، كما طوّل جميع رؤساء حكومات دول الاتحاد الفرنسي بسحب جميع الجنود الذين يقاتلون في صفوف الجيش الفرنسي في الجزائر ، كما طالب المؤتمر بجلاء جميع القوات الفرنسية والبريطانية من الكمرون . وإيقاف المساعدات الأمريكية الفرنسية ، وأوصى بأنه ينبغي على الأمم المتحدة أن تنظم وتراقب حق تقرير مصير الشعوب ديمقراطيا .

وأصدر توصية أخرى برغبة شعوب المؤتمر لإنشاء جبهة تحريرية افروآسيوية مشتركة تعد المتطوعين للمساعدة في القضاء على استعمار الشعوب غير المستقلة .

ولإنشاء جبهة متضامنة كان على جميع بلدان آسيا وأفريقية أن تقاوم كل محاولة لتعبئة القارة الأفريقية . وإذا قامت فرنسا بتجارب ذرية جديدة على الأرض الأفريقية ، فانه يجب الموافقة على اتخاذ اجراءات تبدأ من المقاطعة حتى قطع العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا ، كما عدت الاتحاد الفرنسي شكلا جديدا من أشكال السيطرة الاستعمارية ومحاوله من الحكومة الفرنسية لربط البلاد المتأخرة بالقيود التي سلبت قوميتهم الحقيقية .

وقد ذكر المؤتمر دائما مبادئ باندونج العشرة وقرر أن من حق كل دولة وحدها أو بالاشتراك مع الدول الأخرى ، طبقا لميثاق الأمم المتحدة ، الدفاع عن نفسها وقد جاء في هذه التوصية :

ان استقلالنا الوطني لا يمكن أن يظل رهن المساومة ، وان حريتنا تعنى أننا نتحكم تحكم كاملا في مصادر ثرواتنا ، وامكانياتنا ، ونحن نريد أن نضع حدا للاستغلال عن طريق الاحتكار الجالب للبؤس والفقر والخضوع . ولكي نصل الى عصر جديد للأخوة والسلام ، يجب أن يقوم التضامن الافروآسيوي بدور حاسم في النضال ضد الاستعمار من أجل بناء عالم جديد .

وقد أعلن سيكوتوري كمضيف للمؤتمر أن غينيا لا تود أن تشترك

(١) كان ذلك قبل حصول الجزائر على الاستقلال بمقتضى معاهدة إيفيان سنة ١٩٦٢

بإي ثمن في تقسيم العالم ، وانها تهلف الى تعايش سلمى وحياد ايجابى .
لان حدة التوتر في العالم يمكن أن تخف عن هذا الطريق فقط ، ومن رأينا
أن زعامة شئون الشعوب الآسيوية الافريقية قدأجازت ذلك لهذه الشعوب
وحدها دون أي خطر .

ثم اضاف قائلا : ان الشخصيات المشتركة في هذا المؤتمر تمثل
عالم الجوع والبؤس وعدم الاحترام ، فقد أنكر عليهم الاستعمار حق
الانسان المشروع ونحن كممثلين لمئات الملايين من البشر نشعر بحقنا
في المطالبة بالمساهمة في حل المشاكل العالمية ، وان يكون لنا دور فعال
في القرارات التي تتعلق بالبشرية كلها .

علاقات بناءة

ان هذا الكلام جميعه صادر عن حساسية سيكوتورى هذه
الحساسية التي شملت اليوم جميع الافريقيين . ان المصالح التي اظهرها
الغرب تجاه البلاد المتطورة كانت وما زالت أولا وقبل كل شيء تجارية
وسياسية ، ولم تكن المساعدات القيمة في العادة بدافع الرغبة في
المساعدة قط . ذلك لأن الذين يساعدون غالبا ما يضعون في حسابهم
مدى ما سيعود عليهم لقاء هذه المساعدات . فالتجارة تأخذ المكان
الاول اليوم ، ولا بد هنا من انعام التفكير .

ولعل هذا ما دعا الصحيفة الاقتصادية الألمانية للتجارة لان تقول :
« ان العلاقات الانسانية اكثر اهمية من العلاقات الاقتصادية ،
وانه ينبغي أن تقدم مساعدات التنمية من أجل العلاقات الانسانية
ولكن هل يمكن أن تتجرد هذه المساعدات من الدافع التجارى ؟
ليس من شك في أن وجهة النظر هذه كانت تؤدي الى خير كثير
لو انها وضعت موضع التنفيذ من قبل .

وبالنظر الى سيكوتورى كانسان افريقى ثائر ، لا يسعنا ان ننسى
تصريحاته المثيرة التي قال فيها : انه يشعر مع اصدقائه الفرنسيين
بالارتياح اكثر من اخيه الاكبر الذي لم يلتحق بالمدرسة قط . ولذا
يجب ان ينظر الى احتجاجه ضد ديحول من هذه الزاوية ، ذلك ان سوء
فهم ديحول لتورى سيظل مثالا نموذجيا لسوء الفهم القائم بين
الاوربيين وبين الافريقيين في تاريخ افريقيا كلها .

كوا مي نكروما
باب من الفاية العذراء أصبح عيما السعبيه

اننا تؤمن بالمساواة بين جميع الأجناس ، كما تؤمن بحرية الشعوب من جميع الاجناس ايضا . وان احد المبادئ الاساسية في كفاحنا لاجياء افريقية الا نحارب ضد اى جنس او لون او عقيدة ، وانما نحارب نظاما يفرق بين الناس ويعمل على استقلال فريق منهم ، كما سنقاوم ونعارض هذا النظام في اى مكان يمكن أن يوجد فيه . اننا نخجل من موقف اى انسان يعمل ضد اخيه الانسان ، ان الواجب يحتم علينا أن نتعلم كيف نتعايش .

كوامى تكتروما

من خطاب له في منروفا

كثيرا ما يتبادر الى الذهن هذا السؤال لماذا يسمى ساحل الذهب الآن غانا (مساحتها ٢٣٨٧٣ كم وعدد سكانها ٤٧٦٣ر٠٠٠ نسمة) برغم وجود اسم شائع له اليوم هو : «مالى» ؟

ولذلك يجب أن نضع في الحسبان مقدما أن اقبطارا اخرى وهى في طريقها للتطور قد اخذت أسماء من التاريخ الافريقى بمناسبة الوعي التاريخى الجديد لدى اهل القارة من الافريقيين ، فقد مسح غزاة هذه القارة تاريخها ، هذا التاريخ الذى يعمل الافريقيون اليوم على احيائه على اساس من الحقيقة والواقع .

غانا القديمة وساحل الذهب

كانت غانا امبراطورية كبيرة في السودان الغربى ، وتعتبر عاصمتها التى تحمل الاسم نفسه مكانا تجاريا هاما على بعد بضعة مئات من الكيلو مترات الى الشمال الغربى من «تمبكتو» وقد تأسست حوالى عام ٣٠٠ بعد الميلاد . ولا يعرف شئ كثير عن هذه الدولة الزنجية . وقد حكم غانا امير يدعى « هجيرا » ومن قبل عام ٦٣٠ وبعده حكم غانا إثنان وعشرون أميرا من البيض . ثم نشبت الثورة عام ٨٠٠ م ، وبدأ حكم سلالة ملكية من الزنوج ، ظلت تحكم طوال مائتى عام ، حتى استطاع برابرة الشمال الشرقى استعادة السلطة العليا من جديد وما لبثت مجموعات كبيرة من الزنوج أن هاجرت الى المناطق الساحلية .

ويعتقد بعض المؤرخين أن الأكان في غانا الحالية هم خلف أولئك المهاجرين ، ولكن يبدو أنه من المؤكد أن الشعوب التى تسكن غانا الآن قد عاشت هنا منذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادى عندما أتى الأوروبيون الأوائل اليها ، ومن المؤكد أن المنطقة الاساسية لغانا القديمة لم تكن مرتبطة بغانا الحالية .

ويقول البروفسور ديدرش فسترمان في كتابه تاريخ افريقية : « ان اسم غانا يعتبر اليوم بالنسبة لمثقفى غربى افريقية رمزا للعظمة الافريقية الخاصة في ماضيها الخالد » على حين فسر الرئيس نكروما اسم غانا بأنه الإحياء للمستقبل ، فربما يتحقق وجود اتحاد دول غربى افريقية تحت اسم غانا : ففي الأيام السابقة للعصر المسيحى قبل أن يكون لانجلترا أى شأن بل وقبل الزمن الذى اتحد فيه شعبها توصل جدادنا الى امبراطورية كبيرة ، ولذا يجب أن نكون فخورين باسم « غانا » وأنه لشئ جميل ويسر أن نذكر ماضيها ما دام المستقبل يبنى على الحاضر فان الحاضر متصل بالماضى ، اننا لا نخجل من ماضيها ، بل على النقيض فانه ينطوى على كثير من المفاخر .

وقد نزل البيض الأوائل في ساحل الذهب تباعا : فالفرنسيون في القرن الرابع عشر والبرتغاليون في القرن الخامس عشر ، وفي نهاية القرن السادس عشر - عندما الانجليز الذين أصبحوا مستعمرين - الهولنديون على الساحل ، أولئك الذين هزموا فلول البرتغاليين في معركة بحرية أمام اكرا التى كانت عاصمة منذ وقت طويل ، كما كانت في قبضة الاحتلال الانجليزى .

وقد شيد الفرنسيون والدانمركيون والانجليز قلاعاً على هذا الساحل ، ولكن منذ عام ١٨٢١ وما بعده ظهر أن الانجليز ، وهم

اصحاب السيادة الحقيقيون على ساحل الذهب ، اخذوا يشيرون امام امراء امبراطورية اشانتى « المؤسسة فى عام ١٦٠٠ كثيرا من العقبات ، حتى انتهى بهم الامر الى دخول حروب مبع فى القرن التاسع عشر ، واخيرا اصبحت بريطانيا سيدة ساحل الذهب والاراضى التى وراءه ، ثم انشأت اول مستعمرة ذات ادارة محلية من القبائل مؤتلفة .

وقد تبين فيما بعد نجاح هذا العمل الذى تم باشتراك افراد من الشعب فى ادارة بلاده فقد احرز المجلس التشريعى لساحل الذهب اغلبيه افريقية فى عام ١٩٤٦ ، وقد شكلت فى سنة ١٩٤٩ لجنة دستورية من الافريقيين وحدهم برئاسة القاضى كاوسى « سير هنيلى كاوسى الآن » . وقد اجريت اول انتخابات فى عام ١٩٥١ على اساس هذا الدستور حيث شكلت بمقتضاه جمعية تشريعية وحدث بين جميع القبائل لأول مرة فى تاريخ البلاد .

اما اسم الرئيس الحالى « كوامى نكروما » فقد ارتبط بهذه الاجراءات فى اضييق نطاق ، واسمه كاملا ، الرئيس « اوزاجيفو » اى الانسان الكبير الذى جمع جيشا ، « وكوكودورنى » اى رجل الشجاعة ، و « كاتامنتو » اى الرجل الذى لا ينقض كلمته ، والذى يحمى الشعب ، و « كاسابريكو » اى الرجل صاحب الكلمة الحاسمة ، الذى يتحدث عن الموضوع مرة واحدة ، و « نوفينو » اى اقوى الجميع الذى يفوق الآخرين ، ان الدكتور كوامى نكروما هو محرر ومؤسس غانا !

تلميذ تبشيري نجيب

عندما ولد نكروما لم يكن هناك تنظيم دقيق لتسجيل المواليد ، ولكن نكروما يعتبر الحادى والعشرين من سبتمبر عام ١٩٠٩ يوم مولده ، هذا ولو ان المحيطين به يطلقون على عام ١٩١٢ ميلاده ، ولقد اخبرنى الدكتور كوامى نكروما بنفسه انه لا يعرف على وجه الدقة متى ولد ، ولكنه كى يخلق نظاما فى حياته فقد حدد مولده باليوم الحادى والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٩٠٩ .

وكان والده يشتغل بصياغة الذهب فى القرية الصغيرة « نكروبول » باقليم « اكسيم » فى غربى البلاد ، اما امه التى عرفتها قبيل وفاتها ، فقد كانت تاحترف التجارة ، وقبل زواج نكروما كانت هى التى تعنى بشئون منزله وهى لم تظهر قط فى المجتمعات ، وعلى وجه العموم يسمى نكروما « شروق الشمس » وقد اطلق اسم ميلاده على اطفال كثيرين

كاسم للشهرة ، وقد التحق تكروما بالمدرسة التبشيرية وهو في الثامنة من عمره ، وكان تلميذا بارزا ، ثم أرسل الى اكرا (عدد سكانها ١٧٠.٠٠٠ نسمة) لكي يصبح مدرسا في كلية اميرويلز التي كانت آنذاك قسما من كلية « اخيموتا » وقد استرعت محاضراته التجريبية ومشاركته في المناقشات أنظار زملائه الطلبة اليه .

وفي عام ١٩١٠ نجح في امتحانه النهائي كمدرس ، ثم شغل مناصب بعد ذلك ، وكان يتمتع بحب زملائه الطلبة ولاميدته لأنه كان على قسط كبير من التحمس لدينه كما شارك بنجاح في التمثيليات المسرحية . وقد تأثر في شبابه برجلين :

الأول منهما هو الدكتور (ج.أ. كويجر أجرى)

وقد كان الدكتور أجرى نائبا لمدير كلية اميرويلز ، وأول عضو افريقي للإدارة ، وأول المناضلين من أجل التعاون بين البيض والسود .

والآخر « نتامدى أزيكوى » رئيس مجلس حكومة نيجيريا الاتحادية اليوم ، والذي كان من كبار الثوار وقتئذ في ساحل الذهب ، ومحرر المقالات الصحفية والمحاضرات التي أثارت تكروما لمواصلة دراسته في الخارج ، وأحد الذين دفعوا به الى الحياة كما كان صاحب جريدة الصباح الافريقي ، وحدث عندما زار تكروما نيجيريا في عام ١٩٥٩ أن امتدح في إحدى خطبه صديقه القديم أزيكو كأول رائد من رواد القومية الافريقية .

وفي عام ١٩٣٥ سافر تكروما الى أمريكا ، ولم يكن يحسب آنذاك أنه سيضطر الى البقاء بعيدا عن وطنه اثني عشر عاما كاملة ، فقد درس في جامعة لنكولن و « بنسلفانيا » العلوم الاقتصادية والاجتماعية .

وفي عام ١٩٣٩ حصل تكروما في جامعة الزنوج على دبلوم الآداب ، ثم درس بعد ذلك اللاهوت والفلسفة بمعهد اللاهوت بلنكولن وفي جامعة بنسلفانيا ، وقد أنهى هذه الدراسة بحصوله على اجازة اللاهوت وأستاذية في العلوم التربوية ، وفي أثناء تحضيره لرسالة الدكتوراه في الفلسفة ، كتب في « بعض المسائل المنطقية » ، على حين ألقى في الوقت نفسه محاضرات كأستاذ للفلسفة ، والتاريخ العام وتاريخ الزنوج ، وعندما زار تكروما الولايات المتحدة الامريكية في عام ١٩٥١ حصل على الدكتوراه الفخرية من جامعة لنكولن ، وفي عام ١٩٥٤ أنعم عليه بميدالية السلام من الاتحاد العالمي للمحاربين القدماء وهي منظمة تضم ثمانية عشر مليونا من الجنود ، من تسع وعشرين دولة من دول العالم غير الشيوعي كأعضاء .

وقد دفع أقرباء نكروما ثمن وصوله الى تلك المرتبة الرفيعة غاليسا فقد كان لا بد له من دفع نفقات اقامته ودراسته في أمريكا ، ولذا فقد اشتغل في كثير من الحرف ، فكان مرة عاملا في ترسانة وأخرى (سفرجيا) في سفينة ساحلية ، وبهذه المناسبة قال : لقد كنت أردأ (سفرجي) لأنى كنت دائما أصاب بدوار البحر ، وكسب عيشه كواعظ في كنائس الزوج بينسلفاتيا ، أما في نيويورك فقد كان يتوق الى ان يصبح قسيسا وكذلك عضو في المجلس الكنسى .

وفي أثناء دراسته في الولايات المتحدة الأمريكية كان أحد المؤسسين لرابطة الطلاب الأفريقيين في الولايات المتحدة وكندا ، وهناك أصدر مجموعة من الكتيبات ، كما اشتغل بوصفه أول رئيس لهذا الاتحاد بمسائل الزعامة والتنظيم ، وبدأ التفكير في مسألة القومية ، وقد وطد علاقات صداقة مع الزوج الأمريكيين البارزين أمثال «باول روبسن» وفي مايو عام ١٩٤٥ ترك نكروما الولايات المتحدة ليدرس في مدرسة الاقتصاد اللندنية ، وبدأ كذلك في جاثى جراى ، كلية الحقوق الانجليزية في دراسة القانون ، وشيئا فشيئا اجتذبتة السياسة نحو تيارها .

صعود سياسى سريع

كان نكروما في الفترة ما بين عام ١٩٤٥ وعام ١٩٤٧ سكرتيرا عاما للسكرتارية القومية لغربى افريقية المنشأة للدعوة لفكرة افريقية المتحدة ، وقد أصدر مجلة اتحاد طلاب غربى افريقية ، وشغل اخيرا منصب عضو في مجلس اتحاد افريقية . وفي هذا الوقت ألف كتاب « افريقية الجديدة » الذى اثار حماسا شديدا في ساحل الذهب ، في عام ١٩٤٦ ، ولنكروما مؤلفات أخرى منها « التعليم والقومية في غرب افريقية » سنة ١٩٥٠ ، وكذلك تاريخ حياته « غانا وتاريخ حياة كوامى نكروما عام ١٩٥٧ » .

وعلى الرغم من أن نكروما كان لا يزال في انجلترا بعيدا عن بلاده فانه كان شخصية معروفة في وطنه ، فقد نوقشت كثيرا فكرة تكوين اتحاد جمهوريات غربى افريقية ، وقد قبلت رغبة ساحل الذهب في الحكم الذاتى في أثناء الحرب ، وانشأ الدكتور جوزيف بواكيو دانكوا « ولد في ٢١ من ديسمبر ١٨٩٥ في بيونس » في اقليم كواهو في غانا « على هذا الأساس في التاسع والعشرين من ديسمبر عام ١٩٤٧ حزب اتحاد ولايات ساحل العاج الذى يعتبر أول حزب قومى في ساحل الذهب ، والذي كان هدفه تهيئة جميع الوسائل الدستورية والقانونية

لوضع الاشراف ورقابة اعمال الحكومة بأسرع وقت في أيدي الشعب وايدى زعمائه ، وقبل تأسيس الحزب عهد دانكوا الى نكروما الذي كان يعمل في لندن بمركز السكرتير العام لاتحاد ولايات ساحل العاج ولم يشعر انه بذلك قرب خصما قويا .

وفي نوفمبر عام ١٩٤٧ عاد نكروما الى وطنه ، وكانت مدة اقامته في أمريكا وإنجلترا هي سنوات الكرب والوحدة والعزلة ، والفقر والعمل المضنى ، لكن هذه السنوات جميعا هي التي وهبت له القوة دون حماية من أحد لبذر بذور القومية الافريقية ، وقد ساعد نكروما دانكوا في اقامة الاتحاد وبنائه .

ولانه متحدث لبق يفهم متى يكون الخطيب حازما فقد أصبح أهم خطيب حزبي في البلاد كلها ، حتى انه سرعان ما قام برحلة في طول البلاد وعرضها حاملا معه اثاث منزله المكون من آيتين ، وزوجين من الاحدية وبعض الملابس الداخلية ، وفقا لما ذكره هو في صراحة دون تردد في مذكراته عن حياته .

كان الرجلان متباينين في مشاعرهما ، حتى انهما لم يستطعا العمل معا ، ففي بداية عام ١٩٤٩ انفصل نكروما عن دانكوا ، وفي ٢١ من يوليو أعلن تأسيس حزبه «حزب المؤتمر الشعبى» وقد اتجه هذا الحزب الجديد الى الشباب الثوريين خاصة ، على حين كان حزب المؤتمر هو حزب الطبقة المتوسطة المعتدلة .

وكان نكروما في اثناء عمله في حزب المؤتمر يفتح مدارس غانا وكتلياتها وقد قدر له الشباب هذا العمل، بالتعبير عن شكرهم، كما كان نكروما دائما داعية لامعا ، فقد أعاد الى الحياة تدريجيا كثيرا من الصحف التي كانت معطلة تماما ، وكانت باكورة تعليقاته في جريدة « ايفنج نيوز » التي كان شعارها النهوض بالشعب ، والتي مازالت حتى اليوم وبعد أكثر من اثني عشر عاما منذ انشائها أهم صوت للحزب والحكومة ، وفي انتخابات عام ١٩٥١ حصل حزب نكروما على ٣٥ مقعدا من ثمانية وثلاثين وأصبح زعيما للوطنيين الافريقيين في ساحل الذهب دون منافس .

هذا وقد وضع نكروما لحزبه مشروعا من ست نقاط :

١ - عدم المبالاة بجميع المبادئ الدستورية المعرقة للوصول الى الحكم الذاتى الكامل لرؤساء قبائل وشعب غانا .

٢ - استخدام طليعة سياسية داعية قوية لبذل الجهد للقضاء على الاضطهاد بجميع صورته بغية الوصول الى حكومة ديموقراطية

٣ - تأكيد الوحدة الكاملة لقبائل وشعب مستعمرات أشانتا ،
والأراضي الشمالية وفولتا والمحافظة عليها .

٤ - الاهتمام بشرط العمل الأفضل لمصلحة الحركة النقابية
العمالية في البلاد .

٥ - العمل على تطوير ساحل الذهب الى حياة أفضل ، فيحصل
فيه الشعب على الحق في الحياة الحرة الكريمة .

٦ - البدء فوراً وبكل الوسائل الممكنة لإنشاء غربي إفريقيا
المتحدة التي تحكم نفسها بنفسها .

وحتى هذا الوقت كان نكروما في السجن فقد أدخله نشاطه
المحوظ في صراع مع حكومة الاستعمار .

وفي عام ١٩٤٨ نفى الى الأراضي الشمالية بعد حدوث التمرد
الذي راح ضحيته تسعة وعشرون شخصا وجرح أكثر من مائتين ، مما
عاد على نكروما باتهامه بأنه « الخائن الشيوعي » .

وفي عام ١٩٤٩ طالب حزب نكروما الذي كان شعاره العمل
الإيجابي ، بالحكم الذاتي السريع ، وفي سبيل ذلك نظم مجموعة من
الاضطرابات وأعمال المقاطعة .

وفي عام ١٩٥٠ حكم على نكروما (مع رفقاء الحزب) بالسجن
ثلاثة أعوام ، ذلك لأن الحاكم العام رأى فيه زعيما محرّضا على اضطراب
عام غير قانوني .

وفي عام ١٩٥١ عندما حصل حزبه على ٩٥٪ من الأصوات أطلق
سراحه بعد اعتقال امتد أربعة عشر شهرا بناء على عفو من الحاكم العام
« السير تشارلي نوبل آردن كلارك » الذي كلفه إنشاء حكومة ،
وأصبح فيها وزيرا للأنشاء .

وفي إحدى خطب نكروما قال : « اننى آت من السجن لأدخل
البرلمان دون أن أحمل أى مشاعر بالضغينة ازاء بريطانيا » .

وفي عام ١٩٥٢ تلقى من الحاكم العام لقب رئيس وزراء ، وقد زار
بريطانيا والولايات المتحدة مرة أخرى بهذه الصفة ، طالبا مهندسين
وفنيين ومدرسين وأطباء وعلماء للمعاونة في تنفيذ برنامج التعمير
الذي يشمل اقتصاد البلاد كلها ، وأكبر مشروعاته هو مشروع نهر
فولتا الذي سيقام عليه توليد للكهرباء كقاعدة لتطور الصناعة الحديثة
فعندما استقلت غانا اقترح نكروما مشروعات للسنوات الخمس يهدف

الى تحسين الزراعة وانشاء الطرق والموانى ورفع المستوى المعيشى
للشعب ، وكثيرا ما أعلن في السنين الأخيرة :

ان هدفه الأسمى هو القضاء على الفقر والجهل والمرض، ولسوف
يقاس تقدم الشعب بمدى تحسن صحته وبعده الاطفال الذين يذهبون
الى المدارس وبعد المياه العذبة والكهرباء الى المدن والقرى ، وبمهارة
الشعب فى معالجة شؤونه الخاصة .

من الاستقلال الى الجمهورية

حدثت أهم الأحداث الكبرى فى حياة نكروما ووطنه فى العاشر من
شهر يوليو عام ١٩٥٢ : ففى هذا اليوم عرضت على الجمعية العامة
التشريعية مهمة الاستقلال التى يتحملها اليوم تحت اسم مهمة المصير ،
وفى هذا اليوم ألقى نكروما أهم خطبة فى هذا الصدد .

ومما تجدر الإشارة اليه ان نكروما يحب اقتباس تصريحاته
الشهيرة . فقد اقتبس فى بداية مهمة المصير من السياسى الانجليزى
ادموند بروك قوله : « ان من واجبنا ان نراعى فى قرارة نفسنا العناية
بالقوة الكاملة والنضج التام وهى المبادئ التى يمكن أن تأتى لنا نتيجة
انضمامنا الى الكومنولث ، مع عدم تناسى أنفسنا فنحن ، بالرغم من
كوننا ثوارا ، رجال مهذبون » .

وكذلك اقتبس نكروما من ارسطو طاليس حق الشعب فى حكم
نفسه ، كما اقتبس فى هذا الصدد قول قطب كبير من اقطاب العلوم
السياسية والاجتماعية عن مبدأ حكم الشعب لنفسه : ان هذا المبدأ
لا يمكن المساومة فيه وانه اما أن يعمل على تطبيقه كاملا واما أن يتخلى
عنه .

وفى ١٥ من يوليو عام ١٩٥٤ جرت الانتخابات العامة وحصل حزب
نكروما على اثنين وسبعين مقعدا من مجموع مقاعد البرلمان البالغ عددها
مائة واربعة مقاعد ، فعهد اليه الحاكم بوصفه زعيما للأغلبية البرلمانية
فى الجمعية الجديدة بتشكيل الحكومة الجديدة وقد عين نكروما اعضاءها
من حزبه فقط ، وبالنسبة للمعارضة فاننا سنتحدث عنها فيما بعد ،
اما الآن فنضيف كلمات قلائل عن مشكلة الاشانتى :

فكما وقف الاشانتى امام الانجليز وقفوا فى الطريق امام طموح
نكروما نحو الاصلاح ، وقد كتب البروفسور ك . ا . « بوذايا » الذى ظل
فترة طويلة زعيما للمعارضة حتى ذهب الى المنفى بهولندا فى يوليو عام

١٩٥٩ ، كتب كتابا هاما عن وضع الرئيس في نظام الاشانتى السياسى الحديث ، جاء فيه : ان ما دفعه عندما بدأ أبحاثه في كوماس عاصمة الاشانتى هو الفساد الملحوظ الذى ظهر في جميع التسويات التى أثرت في مجلس النواب عن مشاكل الادارة ، ففى جميع تلك الحالات تبودلت الرشوة ، وقد شاع هذا الى حد ان كل فرد كان يتحدث عنه علانية، واذا غضضنا النظر عن أولئك الذين كانوا على اتصال رسمى بالمجلس، فسنجد في كوماس بعض المندوبين الذين يجمعون الأموال من الأحزاب لاثارة القلاقل والمنازعات .

ومن خلال هذا الجو الملوث لم يستطع المواطنون الحصول على النصيحة من رؤساء القبائل او الشيوخ ، ولم يستطيعوا الوصول الى اية وسيلة يظهرون بها وجهة نظرهم في نقاش الاوضاع القائمة ، وربما يفصح عن حقيقة الاحوال ما ذكره أحد زارعى الكاكاو وهو غير مثقف يعيش على بعد ستين ميلا من كوماس ، فقد عبر تعبيرا واضحا عن الانتقاد العام حين قال : ان المفسدين كثيرون اليوم وهم : قوميسار الناحية ، ورئيس القبيلة والاشانتى ، وهؤلاء جميعا هم الذين يضعون القوانين لنا ، فماذا يكون رأى المثقفين ؟

وعلى اية حال فقد نجح نكروما في كسب الاشانتى الى جانبه .

وفي الليلة السابقة لميلاده السابع والأربعين استدعاه الحاكم وأخبره أن ساحل الذهب سيحصل على استقلاله في ٦ من مارس عام ١٩٥٧ . وحين نقل نكروما هذه الرسالة الى البرلمان لم ينس أن يشير الى أن البلاد ستحصل على الاستقلال في الذكرى الثالثة عشرة بعد المائة لتلك المعاهدة التى أدت الى الاستعمار السياسى لساحل الذهب .

وفي خطاب الاحتفال بيوم الاستقلال أعلن نكروما سياسة خارجية نشيطة أساسها الكرامة والسلام والصداقة ، ومنذ هذا اليوم كرس نكروما نفسه للسياسة الخارجية بصفة خاصة .

وفي يناير عام ١٩٥٧ دعا الى عقد أول مؤتمر نقابى في أكرا لجميع أفريقية . وفي يونيو عام ١٩٥٧ اشترك لأول مرة في مؤتمر رؤساء وزارات الكومنولث ، وهناك التقى مع رئيس الوزراء « بانديت نهرو » الذى زاره بعد في الهند ، وقد استقبلته الملكة اليزابيث الثانية ودوق أدنبرة في قصر بكنجهام .

وفي مارس عام ١٩٥٨ سافر الى إحدى عشرة دولة أفريقية بقصد تعميق تعاون الدول الأفريقية جنوب الصحراء على وجه الخصوص ، وبعد ذلك بشهر دعا الى أول مؤتمر لرؤساء دول أفريقية المستقلة في غانا ، هؤلاء الذين قام بزيارتهم فيما بعد ، ثم تلا ذلك زيارته للولايات

المتحدة الأمريكية حيث كان ضيفا على الرئيس ايزنهاور ، ثم ضيفا على الرئيس ديفنبيكر في كندا « وفي ديسمبر عام ١٩٥٨ افتتح نكروما مؤتمر الشعوب الافريقية الاول في «اكرا» الذي تلتها مؤتمرات مشابهة »

وفي اثناء مؤتمر الشعوب الافريقية الاول اعلن رغبة البرلمان في الاتحاد مع غينيا ، التي كانت قد انفصلت في ٢٨ من سبتمبر عام ٥٨ عن منظمة الدول الفرنسية ، وقد اعلن نكروما أن اتحاد الدول الافريقية المستقلة سيظل مفتوحا امام جميع الدول الاخرى الراغبة في الانضمام اليه .

وفي مارس عام ١٩٦٠ اعلن قرار غانا كجمهورية ، وفي الاول من يوليو عام ١٩٦٠ اعلن أنها ستظل عضوا في الكومنولث ، وفي الفترة من ١٩ الى ٢٦ من أبريل عام ١٩٦٠ جرى استفتاء شعبي مكن الشعب من اتخاذ موقف من مشروع الدستور ومن اختيار أول رئيس للجمهورية، ويتضمن الدستور الجديد المواد التالية :

١ - يكون رئيس الدولة الذي يملك السلطة الكاملة رئيسا بالانتخاب ، كما يكون في الوقت نفسه القائد الأعلى للقوات المحاربة والادارة .

٢ - يتكون التمثيل الشعبي من الجمعية الوطنية ورئيس الجمهورية ، وللرئيس حق الاعتراض على القوانين ، ويمكنه حل الجمعية

٣ - لا مكان اعادة انتخاب الرئيس في الانتخابات العامة يجب أن يكون بالاغلبية .

٤ - يعين الرئيس مجلس الوزراء الذي يشكل من البرلمانيين .

٥ - استقلال القضاة مكفول بنص الدستور .

وقد تطلع الدستور الى عهد رئيس كامل القوة ، فرئيس الجمهورية يستحوذ الآن على سلطات كاملة كانت فيما قبل موزعة بين الوزراء والحاكم العام الذي كان يستحوذ حتى الآن على سلطات هامة ، ومنها حق الفيتو الذي يمكنه من الحد من سلطة رئيس الجمهورية عندما يريد . وبعد قبول الدستور الجديد أصبح واجبا على الملكة اليزابيث أن تنزل عن لقب « ملكة غانا » هذا ، وتعتبر المواد الرئيسية حقا محدودا للجميع ولافريقية المتحدة . أي لاتحاد دول افريقية السياسي .

ونذكر بصدد الوحدة قول نكروما : ان ايماننا بالوحدة الافريقية قوى لدرجة أننا على استعداد للنزول عن جزء من سيادتنا أو عن سيادتنا كلها لمصلحة اتحاد دول افريقية حالما يتحقق هذا .

وقد قبلت اغلبية ساحقة الدستور الجديد ، فطبقا لنتيجة الاقتراع الرسمية صوت ٥٤٪ من المشتركين في الانتخابات ، وكان المؤيدون ١٦٩٢ر٠٠٩ ، والمعارضون ١٣١٣ر٩٢ . وقد انتخب نكروما كأول رئيس للجمهورية بأغلبية مشابهة . وقد تقدم حزب الاتحاد المعارض (وهو اتحاد يمثل جماعات المعارضة أنشئ في عام ١٩٥٧/ ١٩٥٨) بعريضة المعارضة الى المحكمة العليا . كما أنب داتكوا نكروما لتزوير الانتخابات وارهاب الناخبين واساءة استخدام الادارة الحكومية بواسطة حزب الحكومة .

وازاء نتيجة الاقتراع هذه انقسم الراى فى الصحافة الانجليزية ، فقد علقت صحيفة النيوز كرونيكل قائلة : « ان السيادة لرجل واحد تعد مثالا بالغ الخطورة » .

اما صحيفة « الديلى تلجراف » فقد علقت بقولها : « كان دستور غانا اداة طبيعة طيبة لبلاتو فيلسوف الملكة ، كما كان مثالا صالحا لكرمويل الافريقى » .

اما صنداى اكسبريس فقالت : « انه ستقوم فى غانا الآن تحت حكم نكروما دكتاتورية صارمة قاسية عدتها السياط » .

تحت تأثير امرأه

تزوج نكروما فى ديسمبر عام ١٩٥٧ احدى طالبات جامعة القاهرة وتدعى « فتحية حليم رزق » وزوجة نكروما تقيم فى قصر كاسنبيل المسيحى الذى شيده الدانماركيون ، والذى يبلغ عمره ثلثمائة عام فى ضاحية ارو فى العاصمة اكرا .

وقد اغضب الغانين الزواج من مصرية فى بداية الامر ، فقد كان نكروما يقول دائما حين يسأل عن وجهة نظره فى الزواج فى سنه المبكرة : انه لا يحتاج الى اية امرأة ، ذلك انه قد تزوج جميع نساء غانا ويتساءل قائلا : ألسن محبوبا من جميع نساء غانا ؟ انا أيضا أحبهن جميعا « ، ولكنه خيب آمال الشعب حين شاع نبأ عدم اختياره اية رفيقة لحياته من بنات غانا ، وقد قالت لى احدى رائدات الحركة النسائية الغانية : لماذا تزوج مصرية ، تلك السيدة التى عرفها فترة قصيرة ، او كما يدعى لم يرها من قبل بتاتا ؟

« وهنا يجب ان يتجه المرء الى ميدان قياس الشجاعة ، فنكروما ينضوى تحت لواء اولئك الافريقيين الذين طبعوا على الاستسلام وتطبعوا

يعامل التقدم ، وكلا العاملين جعلهم في نزاع ما طبعوا عليه وما تطبعوا به ، وليس من شك في أن تكروما انسان نابغة جلى الفكر حاد الذهن، فلماذا يتحدر بين آن وآخر شأن البدائيين ؟ لماذا يتحدر نحو السحر وفنون الشعوذة ؟ هل يعود هذا الى أن هناك روحين تسيطران على سلوكه فتجعل منه شخصية مزدوجة ، كما كانت حال بعض العباقر؟

ان هذا التساؤل راجع الى أنه قيل عن تكروما : انه يعمل بنصيحة ، منذ سنين طويلة قدمها اليه رجل قديس (مار ابوت) ، وملخصها هو الا ينفرد برأيه في المشاكل السياسية ، ولا في المشاكل الشخصية أيضا ، ومنذ وفاة هذا القديس دأب تكروما على أن يذهب الى قبره حيث يعن في الفكرة يستلهما الوحي من روحه ، وقدنصحه المارابوت أن يتزوج مصرية لأن افريقية في حاجة للاتصال بمصر وبالإسلام ، وقد اقترحت روح القديس امرأة معينة ، وهذه هي التي تزوجها تكروما . هذا وقد منحه ذلك القديس نصائح ممتازة أفادته جميعا من قبل !

واذا ما تحدث المرء مع بعض الغائبين في هذا الشأن فانه لا يسمع الا ان الرئيس يستلهم وصية من روح هذا القديس الذي يعتر نفسه خليفة له .

وقد نشرت الفلت بونيه « الألمانية قصة مسلية بقلم ستيفان ميلر » جاء فيها : ان « كان كان » تعتبر مدينة مقدسة عند المسلمين، اذ كان يعيش فيها الشريف « فانتا مهدي » حتى وفاته في نهاية عام ١٩٥٧، ذلك الرجل كان المارابوت الذي لم يكن في قدسيته احد في العالم الاسلامي ، وقد أعلن الأعضاء المتدينون مرارا أن « فانتا مهدي » لم يكن يقف بتاتا في طريق التقدم السياسي ، بل انه لم يتدخل في الشؤون السياسية قط ، ولذا فهو يتمتع باحترام عظيم بين صفوف الحزب الديمقراطي ، وقد أدى فانتا مهدي دورا خاصا في حياة تكروما بلا نزاع .

فعلى الرغم من أن الرئيس لم يكن مسلما في يوم ما ، فانه عندما قام في عام ١٩٤٨ برحلة قصيرة الى ساحل العاج وغينيا زار الشريف وهناك تكهن له هذا بصعوده الى رئاسة اول حكومة لساحل الذهب المستقل ، كما تكهن له بالقيام بالدور البارز في خلق افريقية الحرة .

ولقد اثر تحقيق الجزء الاول من التكهّن تأثيرا عميقا في نفس تكروما الى حد أنه سافر الى « كان كان » بعد موت فانتا مهدي ليزور قبره ، ولهذا السبب جرت مقابلات تمهيدية غير رسمية مع سيكوتوري .

الاعتراف والايمان والتعلق

بأى شيء يؤمن تكروما ؟ انه يشير الى نفسه كمسيحي لا يؤدى
سر الاعتراف ، واشتراكي ماركسي ، وهو لا يجد هنا أى تعارض بين
كلا المبدأين كما يدعى ، وقبل سنين أصدر الى أعضاء حزبه قسما
يلتزمون به كما باتى :

« انى أومن بنكروما رجل غانا وزعيمها ومؤسس مدارسها
وكلياتها ، واننى أومن بانتمائى الى حزب المؤتمر الشعبى الديناميكى ،
حزبه الوحيد ، كما اتعهد بالعمل للمستقبل واتقيا الوطن مستلهما
ما قاسيناه فى الماضى عاملا مع الشعب الذى هب من جموده ، ونشر
جناحه يريد بلوغ الشمس ، كما أومن بحق اهدافنا بولاء جديد
وبديناميكية أكثر من ذى قبل ، واجحد كل من خاتوا الرباط مع الزعيم
المحرر الذى لا يخشى السجن ، وسأعمل على نشر هذه الحقيقة التى
حان اعلانها والتى ستوضع موضع التنفيذ بأيدى الذين قاسوا او لم
يقاسوا من أجل الوصول الى امكانيات تجلب الخير للوطن .

اننى أومن بالالهام المقدس للزمن والتيار المقدس للتحرر ، وانكر
أفكار البيض ولا اعتنقها ، كما أومن بالقضاء على الاستعمار ، وباستعادة
حقوقنا كاملة ، وبحياة خالدة ، آمين .

هذا وقد نشرت صحيفة ايفننج نيوز ، التى أسسها تكروما
نفسه مقالا كله تعلق من أحد شباب غانا ، وقد اختصر المحرر هذا
التعلق ، ولكنه برغم اختصاره يعد نموذجا للكيفية التى يتطلع بها
الشباب الى تكروما كقديس حاز اعجاب الكثيرين من قطاعات عدة من
الشعب ، كما هو الأمر اليوم بالنسبة لرجال الساعة فى افريقية ،
ولا شك ان هذا النوع من التقديس للشخصيات غير العادية قد لاقى
قبولا فى غانا ، كما انه لا بد ان يكون تكروما نفسه موافقا عليه ، والا
فما ظهر مثل هذا النوع من التعلق والاطراء فى جريدته التى نشرت له
قصيدة مطلعها :

« يابن افريقية المقدس المحبوب ، يا محرر افريقية الخ »

وفى اكرا يمكن المرء ان يشتري من السوق بطاقات تظهر السيد
المسيح مع تكروما ، وفى احدى هذه البطاقات يرى كيف يسلم المسيح
تكروما مفتاح الملكوت السماوى .

هذا وقد نشرت صحيفة ايفننج نيوز على مساحة صفحة مجموعة
من الرسائل تصف ايام القديس السبعة ، على حين تظهر احدى الصور

كوامي نكروما في ساعة تمجيد المسيح ، وقد كتب تحتها : « في هذه اللحظة انتقلت كينونة الأبطال الى ميدان المعركة الافريقية ، الموتى والأحياء في افريقية ، وفي الصحيفة نفسها ظهر هذا الخبر « رأى هندي ، يعيش في اكراف في إحدى الرؤى الباطنية ، نكروما يمشي على صفحة الماء » .

هذا وقد سأل الصحفي الانجليزي « انتوني ليوني » وزير الاستعلامات الغاني تشارلي دي جراف ديكسون : « هل هو موافق على نشر مثل هذه الاخبار ؟ » فأجاب بأنه لا يرى أى خطأ في ذلك النشر ، بل ويسعده أن تقرأ صحيفة الايفنج نيوز في غانا كلها مشتملة على مثل هذه الاخبار .

محادثة كريستيان بورج

اننى اعرف نكروما شخصيا منذ سنوات طويلة ، فهو دبلوماسي قدير له أسلوب مدهش أثرت فيه الغاية العذراء التي جاء منها وهو فتي ، فجعل من حياته حياة اسطورية ، ومن المعروف أنه في أوروبا وأمريكا وآسيا شخصيات كهذه انتقلت من الفقر والبؤس وبيع الجرائد الى تشييد المصانع وتحولت من شباب فلاحين الى رؤساء دول ، ولكن كان أغلب هذه الشخصيات ينحصر أثرها في بلادها فقط ، تدعمها وتحيط بها الشعبية الاقليمية ، أما نكروما فكان على عكس هؤلاء ، فرجال الساعة في افريقية كان لا بد لهم من تلقى تعليمهم في الخارج حيث لمسوا بأنفسهم التفرقة في المعاملة كالحال في إنجلترا وأمريكا ، بين الملونين وبين البيض مما اكسبه قوة وحيوية وطنية ، واصبح مثالا لمواطنيه الافريقيين الذين يشبهون به في طريق تطورهم والذين يستحقون اعجابا اكبر مما يستحقه الاوروبيون والامريكيون .

وفي أثناء مقابلي له بخلال اقامتي الأخيرة في اكراف دعاني لزيارته في مقره الجديد في ذلك القصر الذي كان مقرا للحاكم الانجليزي ، وقد فسر هذا الانتقال الى قصر الاقطاع كريستيان بورج « بأنه تقليد استعماري » ، وقد اقام لنفسه تمثالا برونزيا ، كما وافق على تسمية الشوارع والمنشآت باسمه ، وان توضع صورته بدلا من صورة الملكة اليزابث الثانية على طابع البريد .

وقد بدت لي تلك القلعة اجمل واكثر زينة وبهاء من ذي قبل ، فأمام الأبواب وقف جنود سود في ازياء ذات ألوان مزخرفة ، وما يراونى

حتى قاموا بأداء التحية واصطحبني ضابط مؤدب الى الجناح الذي يسكنه رئيس الوزراء ، ومن هذا القصر أمكنني أن ألقى نظرة واضحة على إكرا وعلى ساحل أشجار الفلفل ، وقد ذكرت وأنا في وقفتي تلك كيف أن أغلب تجار العبيد قد أدار تجارتهم وبدأها من هذا القصر وأنه من المؤكد أن نكروما عندما يفكر في ذلك ينتابه شعور بالفخر لأن من بين هؤلاء العبيد من أصبحوا سادة في بلادهم الآن .

وقد تحدثت مع سكرتيرته الانجليزية الأنسة أريكو باول وفي الوقت المحدد تماما فتسح لي باب حجرة مكتبه ، فاستقبلني نكروما في حلة بيضاء فوقها عباءة غانا البيضاء المخططة بالأزرق ، وتخذنا مكانا على إحدى الأرائك ، وكان واضحا أنه صار أقوى كثيرا مما رأيته آخر مرة كما بدا أكثر حيوية ونشاطا .

وقد أخذ يتحدث ممتدحا القصر المؤثث طبقا لتوصياته وخاصة حجرة مكتبه ، ثم قال : « ألا تعلم أن المرء يحتاج الى البساطة التامة ؟ ولكن خبرني : هل يجب أن أسكن على مستوى أقل من مستوى الحاكم العام السابق أو رؤساء حكومات البلاد المتحررة ؟ على أية حال أنا أؤيد المساواة وأعمل من أجلها » .

ثم تطرق بنا الحديث الى مؤتمر الشعوب الافريقية الذي جاء نتيجة استهلاله وسألته : هل كان مسرورا لكل شيء دار في هذا المؤتمر ؟ فقال : « انه جد مسرور ، وهذه أول مرة في التاريخ تتلاقى فيها وفود من جميع الشعوب الافريقية تقريبا يتحدث بعضهم مع بعض في مودة ، لقد تعارفنا وقمنا باتصالات مباشرة فبدون الاتصالات الشخصية لن نصل الى الولايات المتحدة الافريقية » وسألته : « أما زلت تعلم بذلك دائما كما كنت شابا في الكلية ؟ »

فأجاب نكروما : « ليس لي حلم سواه وسأحققه والاتحاد مع غينيا المستقلة هو البداية لذلك ، وسوف تنضم بلاد أخرى إلينا ، انني أعلم انكم كأوروبيين تشعرون أن اتحاد افريقية موجه ضد أوروبا ، ولكن أقول لكم : انكم لستم في حاجة الى الخوف منه فهو طريقنا لكي نستطيع تأكيد وجودنا ، ذلك أننا نحن الدول الافريقية الصغيرة لا نستطيع أن نقف فرادى ، نحن في حاجة الى الاتحاد ، وهذا الاتحاد ليس موجهها ضد أي فرد في العالم » .

وفي هذه الايام نفسها كان نكروما قد التقى مع زعماء الدول الاسلامية وأصدر تصريحات مشتركة معهم .

وسألته : هل يخشى النفوذ القوي لاحدى الدول الاسلامية ؟

فقال : لا ، اننى لا اخشى الاسلام فنحن الافريقيين ندين بعقائد مختلفة ، وعلى سبيل المثال نحن فى غانا مسيحيون وسيظل بلدنا بلدا مسيحيا على الدوام .

فقلت : جاء أن الرئيس « جمال عبد الناصر » رئيس الجمهورية العربية المتحدة قد شكّا لكم طالبا قطع علاقتكم مع اسرائيل ؟
فهز نكروما كتفيه وابتسم قائلا : اننى لا أعلم شيئا عن ذلك ، اننى أسير فى طريقى .

وقلت : والاستعمار الاحمر ؟ لقد سمعت سيادتكم تتحدثون رسميا لأول مرة فى اكرا ، وقد رأيت أنك منحاز الى الشيوعية بوضوح ، وكذا رأيت ذلك فى خطابك التاريخى بمناسبة يوم الأمم المتحدة . وعلاوة على ذلك تؤكد معارضتك أنك لست ماركسيا فحسب ، بل أنك على اتصال طيب بموسكو أيضا ، وليس هناك مجال لانكار أثر جورج ياندمور أحد مستشاريك فى السياسة الخارجية والمنظم الرئيسى لهذا المؤتمر لانه متأثر بالشيوعية ، وقد جاء أنك نفسك قد دعوت الحبر العالمى بالشئون الافريقية البروفسور بوتكين من موسكو ، هذا الذى جاء الى هذا المؤتمر والذى أتى الى غانا بعد ذلك فى السنوات الاخيرة مرات كثيرة ، ومارس عمله هنا عمليا ودعائيا ، هذا بالإضافة الى أنك قد أعلنت فى اثناء رحلة موسكو ان الرئيس السوفيتى خروشوف قد قبل الدعوة لزيارة غانا .

وكان واضحا لى أن نكروما غير راض عن جميع ما ذكرت بالتفصيل ، ولكنى برغم ذلك انتظرت رد فعل يصدر عنه ، فكانت اجابته :

اننا نرفض أى استعمار ، وبالأكثر نرفضه اذا جاء من الستار الحديدى ، اننا سنقاومه من أى مكان يأتى ، وانى أؤكد أنه من المسلم به عندى أنه يجب أن تقف فى وجهه حين يأتى من أوروبا ، لقد كان شعارنا واحدا فى هذا المؤتمر وفى كل الأوقات وهو : « افريقيا للافريقيين » ، لذلك ينبغى أن تحقق افريقية مصرها على صعيد افريقى ، وانى بلما أتطلع الى افريقية كمشروع أت من آسيا شأنها اذا نظرت اليها كمشروع أت من أوروبا ، انها ليست هذا ولا ذاك ، ان افريقية قارة بنفسها لنفسها ، وان للافريقيين شخصيتهم الخاصة ، وعلى الجميع أن يرفعوا أيديهم عن قارتنا جميعا ، فان افريقيا للافريقيين .

قال هذا فى حماس ظاهر أعقبه صمت « واخذت عيناي تجولان فى حجرة مكتبه تتوقف على القطع الفنية وعلى الصور المهداة اليه من

الشخصيات المشهورة في العالم اجمع ، وعلى التنسيق الرفيع للزهور ،
واخيرا على كتبه ، فلتبع نظراتي وفجأة اخذني من يدي وقال :
« اتعتقدون في الغرب انني اسير الى هدف غير معلوم ؟ واردف يقول :
حقا انني سياسي ورجل دولة ، ولكنني اشعر بأن الخطر الأول يكمن في
انني معلم ومرب بل اني اول مرب لشعبي ، هذا الشعب الذي يستحق
مصريا آخر ، ولقد عشت من اجل تحقيق هذا الغرض ، وسأظل أعمل
من أجله » .

فقلت له : « انني أحب شعبك » ثم قلت : يكفي أن يشعر
الاجنبي بالسرور في غانا ، .

لقد حدث بالتأكيد تغيير فكري عميق منذ زيارتي الأخيرة ،
فالتيارات المعارضة للاوربيين قد انتشرت بين صفوف بطانته الخاصة
بل لقد ظهرت وتحددت ملامحها ففي الساعات الاخيرة من اقامتي في
اكرا ، تلقيت ما يؤكد ان العنصرية قد تطورت في اتجاهها ضدنا هنا
نحن البيض ، ولم يؤكد هذا رجال المعارضة وحدهم ولكن الحالة
العامة تنطق بأن العداء ضد الاوربيين قد اشتد اليوم عن ذي قبل ،
وقد اجابني نكروما حينما وجهت اليه سؤالا في هذا الصدد قائلا :

« طالما كنت انا على قيد الحياة فلن توجد لدينا أية تفرقة عنصرية
ذلك لانني مصاب بعمى الألوان ، والذي اهتم به فقط هو الناس وحدهم ،
اما لون بشرتهم فهذا شيء لا يهمني ، على الرغم من أن الناس يبادلونني
بشيء آخر »

ثم اضاف بهدوء وصوت منخفض جامد : وعلى أية حال فقد
وصل الحد بالناس من جميع الأجناس الى المقاومة الجماعية لأوهام
العنصرية ، لقد ظل المبدأ « رقم واحد » لدى هو « انني اومن بكرامة
الانسان وبالانسان كيفما كان لونه .

نضال مرير مع المعارضة

عندما التقيت بنكروما في اكرا لم يفتر احترامى له ، ولكن المرء
لايستطيع هذا الاحترام في كل مجال ، فقد تعقبت النقد الموجه اليه
بوضوح وعلى أية حال فان من الخطورة بمكان الانصياع للمعارضة في
غانا اليوم مهما كانت أهمية ارتباطك بها .

لقد قال الرئيس ايزنهاور عن الروس : « التزمنا أن نتعامل مع

الناس الذين يقومون بأعمال واساليب غير مفهومة بالنسبة لنا » .
والعبارة نفسها يمكن المرء أن يوجهها الى كثير من الافريقيين ، فقد كتب
نكروما في تاريخ حياته (غانا) : « اننى مقتنع دائما بأن الحكومة الجديدة
التي تأتى بعد أية ثورة سياسية ينبغي أن تستخدم العنف دون هوادة
في إبعاد جميع الزعماء القدامى من الإدارة المدنية وأن تسارع بالاستيلاء
على السلطة فقد علمتني تجاربي الخاصة أن أية حكومة ثورية اذا توانت
عن ذلك فإنها تفامر بكيانها وتمهد لانتهيارها »

وقد كتب حول حزب المؤتمر الذى أصبح سكرتيرا عاما له في عام
١٩٤٧ يقول : « ان زعماء أحزاب المعارضة قد وقعوا دائما في
منازعات بعضهم مع بعض بسبب الزعامة العليا ، وهذا هو السبب
الرئيسي الذى دعا الى قيام كثير من الأحزاب في البلاد ، ولكن بالنظر الى
عجزها عن الوقوف متفرقة ضد المؤتمر الشعبى المنظم فقد اجتمعت
كلمتها على العمل معا ولكنها سرعان ما أحست بالعجز عن الاعتراف
بزعامة واحدة ، وبذلك أصبح الاتحاد أصعب بكثير ، ولقد أصيبت
مناطق أخرى مستعمرة بهذا المرض ، فالصفوة الناشئة من الطبقة
الوسطى لم تستطع أن تأمل بدون القوى الضاربة للجماهير غير المثقفة ،
القضاء على قوى الاستعمار الا عن طريق شعب متحد ينتظم في حزب
سياسى منظم يقوده زعيم واحد

ومنذ هذا الوقت قاد نكروما نضالا مريرا اشعله حزبه ضد بقايا
المعارضة حتى انه عندما كان يناضل من أجل الاستقلال ذهب هذه
المعارضة انى حد ان طالبت الحكومة الانجليزية في أحد البيانات بعدم
التصديق على منح الاستقلال لبلاد لانها لم تنضج بعد للديمقراطية
البرلمانية . وقد قاوم ك . ا . بوزيا الزعيم الرسمى للمعارضة آنذاك
نكروما وحزبه في لندن ، هذا على حين أوضح نكروما في مذكرات حياته
اتجاه هذا الزعيم المعارض الذى قال :

اننا نحتاج دائما الى البريطانيين في ساحل الذهب فان رسالتكم
هنا لم تتم ، واحيانا كنت أتعجب لماذا انتم تسرعون لنقض أيديكم
وتحريرنا ولكن بوزيا أوضح لى في هذا الصدد عكس البيان ، فقد قال :
انه كان يتفاوض في لندن على أساس اتحاد ساحل الذهب مع بريطانيا
وعلى قائمة أخرى من الحقوق .

وقد هرب دكتور بوزيا (ولد ١٩١٣) في صيف عام ١٩٥٩ مع
عائلته عبر إنجلترا الى هولندا ، وهناك حصل في معهد الدراسات
الاجتماعية في مدينة الداى على وظيفة أستاذ للدراسات الاجتماعية
بالاضافة الى لقائه محاضرات في جامعة ليدن في تاريخ الحضارات

البداية ودراسة الانسان . وحال وصول البروفسور بوزيا الى اوربا
صرح بأن الحكومة في غانا تبغى القضاء على المعارضة ، وانه قد هرب
لينجو بحياته وحياة أسرته فقط ، وقد اخبرنى أن تكروما قد منع
جميع احزاب الاقليات من ممارسة نشاطها منذ يوم الاستقلال وأن
حوالى مائة من رجال المعارضة يقيمون في السجن على حين تقاسى
عائلاتهم أزمة شديدة : ، فالاطفال قد تركوا المدارس لعدم توافر المال
لدى زعماء المعارضة مثلهم في ذلك مثل الاحزاب ، وانه ليس هناك أى
أمل يرتجى من الديمقراطية في غانا ، فقد هدم تكروما القاعدة لذلك .

ومازال يقيم في غانا رئيس الحزب الاتحادي كما تطلق عليه احزاب
المعارضة اليوم دكتور دانكوا الذى يشار اليه على أنه ممثل للساسة
الفانيين ، ودانكوا يعمل مدعيا عاما ، وله اسم لامع كمدرس في الكليات
وكفيلسوف وكان بعد الحرب الزعيم الوطنى الوحيد في ساحل الذهب
ولكن تكروما قبض عليه فى عام ١٩٥٨ ولم ينس دانكوا قط أن تكروما
ترك حزب المؤتمر وأنشأ حزبا خاصا به : ففى عام ١٩٣٠ حين سافر
تكروما الى امريكا ، أصبح ندانكوا نفوذ سياسى قوى في ساحل الذهب،
فأنشأ في عام ١٩٣١ صحيفة وست افريكا تايمز التى أصبحت فيما بعد
تايمز اوف وست افريكا ، وغالبا ما كان يتفاوض في لندن من أجل
استقلال البلاد قبل ظهور تكروما ، وفي عام ١٩٤٩ كان عضوا في لجنة
الدستور التى أعدت العدة لتغيرات الدستورية ، وعندئذ انفصل تكروما
عن دانكوا المولود في سنة ١٨٩٦ ، والذى كان يمثل الجيل القديم لزعماء
غانا الذين تعلموا في انجلترا .

وعلى الرغم من التسهيلات الدعائية التى كانت لدى دانكوا وحزبه
والتي كانت في مصلحة تكروما وحزبه الحكومى فشل التصويت على
الدستور الجديد بالنسبة له ، فقد حصل على أصوات كثيرة معاكسة
لتلك التى حصل عليها تكروما في اكرا ، ولكن المجلس التنفيذى لحزب
دانكوا الاتحادي وقف موقف المعارضة القوية ضد الدستور الجديد
الذى اقترحه ونفذه تكروما ، فقد كان استبداديا وأوتوقراطيا ،
والمشروع كما قيل ، لايمنج أفريقية بصفة عامة ، ولا غانا بصفة خاصة
أى شرف لأنه كان أكثر سوءا من الدستور الاستعماري المجحف الذى
يرجع الى القرن التاسع عشر : فالمشروع لايشتمل على ضمانات كافية
لاحترام الحريات ، والتصريح الشخصى الذى القاه الرئيس حول
القوانين الأساسية التى اعطاها عند تولية سلطات منصبه ، لم يكن الا
تعويضا ضئيلا لهذه الضمانات .

غانا تملك جيشا خاصا

عندما وصل رئيس الوزراء البريطانى ماكميلان الى مطار اكرا فى رحلته الافريقية فى عام ١٩٦٠ شهد العرض العسكرى فامتدحه ، وقد صرح له وزير الداخلية الغانى بأن هؤلاء الجنود على استعداد للعمل فى كل وقت ، وأن نكروما دائب على زيادة عدد هذا الجيش الصغير الذى أنشأه ، اذ يتطلع الى غانا الكثير كما أن اهل الراى من الانجليز ووزارة المالية يتطلعون الى التطور المستمر فى غانا فى عناية واهتمام .

ويمكن أن نتعرف قدر هذا الجيش من تصريحات دكتور هوفوت بيويوس رئيس وزراء ساحل العاج ، وكذا رئيس توجو المستقلة سولفاتو الومبيو :

فى نهاية عام ١٩٥٩ كان جيش نكروما مكونا من فرقة من الجنود وثلاث وحدات مسلحة بالدبابات من أحدث طراز .

وفى عام ١٩٦٠ أراد نكروما تكوين ثلاث فرق كاملة مدربين من الانجليز برغم تحذير البعض له من العواقب ، فانه بالنظر الى كونه يريد تقدما فنيا مستمرا هذا حذو كل من الهند وباكستان بذكاء ، فهما مازالتا تستخدمان المدربين الانجليز ، ويبلغ عدد أعضاء البعثة العسكرية الغانية اليوم مائتى ضابط وصف ضابط ، وقد رسم نكروما مخططا لفصلهم بالتدريج بمجرد انتهاء مهامهم .

هذا ويرغب نكروما فى انشاء كلية عسكرية خاصة ببلاده حيث يمكن أن يتدرب فيها جنود وضباط البلاد الصديقة المجاورة مثل بيجيريا وسيراليون ، ويعمل الضباط البريطانيون مؤقتا فى بحرية غانا التى تتكون من قاربين استطلاعيين ويخت ، وستشترى غانا سفنا اخرى مستقبلا .

هذا ويملك السلاح الجوى الغانى فى الوقت الحالى بعضا من طائرات التدريب ، والمدربون من الهنود ، وسوف يتوسع سلاح الطيران الغانى تدريجيا حتى يصل مع انقوات العسكرية الأخرى فى غانا الى مرتبة تفخر بها البلاد ، وهناك تعارض فى النظر الى هذا التوسع العسكرى ، يمكن أن يؤدى فى يوم ما دورا آخر ، اذ من الملاحظ أن نكروما يحض الدول المستقلة الأخرى على أن تنشئ جيوشا خاصة بها، على حين يرى أصدقاء حزب نكروما أن الجيش ما هو الا مكمل لوحدات البوليس المدربة تدريباً قويا وجيدا .

وفى هذا الصدد تقول المعارضة : أن جيش نكروما يستخدم فى تدعيم نظام الحزب الواحد وفى تدعيم سلطته الشخصية ، وكذلك

يعترض اتباع نكروما على انشاء جيش قوى مدعين أن القوة المسلحة يمكن أن تكون مصدرا للمتاعب والاضطراب ، ولكن نكروما يجيب عن كل ذلك قائلا « ان بلدا مثل هذا يستخدم قواته الخاصة في الهجوم كما يستخدمها في الدفاع ، ولذا فهي لن تكون مصدرا للمتاعب » .

وتعتبر غانا حتى الآن الحليف العسكري الوحيد لغينيا وتهتم بالمعونة العسكرية المتبادلة ، الا ان جيش نكروما لا يمتلك حاليا قوة ضاربة حاسمة كما لا يتحمل عبئا في تغيير التسليح العسكري للدول الافريقية وهذا يوحى بالضعف والقصور في جميع القطاعات الأخرى ، وبرغم هذا فالذي لوحظ في انتقدير هو : أن يحتفظ نكروما بالكلمة العليا في زعامة افريقية ، فعندما نشبت الاضطرابات في الكونغو وضع نكروما قواته تحت تصرف الحكومة الجديدة فورا .

أربع خطوات للعمل

قال نكروما في تحية العام الجديد كما أعلنت دائما قبل وصول غانا الى وضعها المستقل الحالي « انه لن يكون لغانا المستقلة أية أهمية اذا لم ترتبط بحركة التحرر الشاملة في افريقية وهذا هو المبدأ الذي لن نتخلى او نتزحزح عنه قبل الوصول الى الهدف النهائي والقضاء على الآثار البالية للقارة الافريقية ، ونحن لانحاول اخفاء هدفنا هذا بل نعلنه على العالم اجمع في صراحة تامة » .

وقد ساق نكروما في خطبته الافتتاحية للمؤتمر الأول الشعوب الافريقية برنامجا بداه بهذا القول :

تذكروا دائما أن عليكم أربع خطوات للعمل :

- ١ - الحصول على الحرية والاستقلال .
- ٢ - تدعيم هذه الحرية وهذا الاستقلال .
- ٣ - انشاء وحدات وتكتلات بين الدول الافريقية المتحررة .
- ٤ - اعادة البناء الاقتصادي والاجتماعي لافريقية .

ويجب علينا أن نؤكد هنا عدم تجاهلنا للجانب الأخلاقي والانساني في اصلاحنا ، ولا نريد أن ينحصر اهتمامنا في هذا الجانب وحده بل نتجاوزه الى الاهتمام باحتياجات الانسان وتيسير مواد معيشته ، اذ اننا نريد مجتمعا يعطى الانسان الفرصة للنمو ، مجتمعا يمكننا أن نرى فيه القدرات الانسانية الخلاقة عاملة منتجة ، فتظهر بوادر النبوغ والمواهب بين افراد شعبنا ، وتصبح الفكرة المأخوذة من عجز الافريقيين.

عن الارتقاء والتقدم غير ذات موضوع وما يقال عن أننا أهل أفريقية لم نشارك في الحضارة قط مرده الاستعمار الذي لم يرد إلا استعبادنا واستغلال ما في هذه القارة الأفريقية من ثروات ضخمة ، ولكننا سنتعاون عندما نستعيد حرياتنا جميعا من أجل النهوض بالشخصية الأفريقية وإظهار دورها الكامل في المعرفة والحضارة الإنسانية .

وحتى انيـوم لا يزال جزء كبير من الأفريقيين يعيش في ظل العبودية والاستعباد فقد تعاقبت أجيال كثيرة قضت على المشاعر الروحية والفكرية لديه ، فكيف يمكن أمثال هؤلاء العبيد الذين سلبهم الاستعمار كل حقوق الإنسان حتى التعبير الحر أن يكونوا علماء وخبراء في الفنون والعلوم ؟ إن الطبقات الأرستقراطية التي ليست بحاجة للكفاح من أجل اللقمة هي التي أتت بالثقافات والحضارات في العصور القديمة ، فقد مكنتهم عصبيتهم وإمكاناتهم المادية من أن يكرسوا أنفسهم لهذه الجوانب من الطموح الإنساني ، وأنني أؤكد أنه بمجرد أن تستقل أفريقية وتحرر فإننا سنشهد ازدهارا للفكر الإنساني في قارتنا ، إن الشخصية الأفريقية سوف تجد فرصة التعبير الحر في ظل الحرية الحقيقية وتقديم المشاركة الفعالة في عالم الحضارة والمدنية .

ومن الموضوعات المحيية لنكروما تلك التي يتحدث فيها عن الصحراء كقنطرة بين الدول ، وذلك منذ أن تحدث عنها أول مرة في أثناء انعقاد مؤتمر الدول المستقلة (أبريل عام ١٩٥٨) قائلا :

« إن الصحراء لم تعد تفصانا اليوم كما كانت الحال من قبل ، ونقد كان يحلو للدول الاستعمارية السابقة الحديث كثيرا عن تأكيد هذا الانفصال فكانت هناك أفريقية الغربية ، وأفريقية السودان ، وأفريقية الإسلامية ، وأفريقية البحر المتوسط ، وأفريقية الاستوائية ، وهذه كلها كانت تقسيمات وتشتيتات تهدف إلى بث الفرقة بيننا ، ولكننا في هذا المؤتمر في أكرأ لانهم كثيرا بهذه المسميات والأوصاف المعتمدة على الأهواء التي قصد بها التفرقة بين أبناء القارة ، إن الصحراء تعتبر اليوم قنطرة موحدة لنا ، فنحن كتلة واحدة رباطها وعلاقاتها شخصيتنا الأفريقية المتحدة . فالحقيقة أننا نكون نحن الأمم الأفريقية المتحدة والآسيوية مجموعة كبيرة ممثلة تمثيلا شاملا في الأمم المتحدة ، وأن أهدافنا ومبادئنا المشتركة التي انصهرت في بوتقة الشخصية الأفريقية تسمح لنا بأن تؤدي دورا إيجابيا في المستقبل يعمل من أجل قضايا السلام ومن أجل تحرير أفريقية غير المستقلة والدفاع عن استقلالنا القومي حتى نفخر بالسيادة الكاملة على أراضينا .

هل ستقبر الديمقراطية ؟

لقد أكد اللورد بيفربروك أنه توجد اليوم بلاد غير متطورة منحت هدية الاستقلال مثلما يهدى المرء لعبة للطفل ، ولا يقصد بهذه العبارة دولة كغانا ، فقد تطورت هذه البلاد سريعا فان منح الثقة لنكروما لا نستطيع نكرانه أو نكران الاحترام لهذا السياسي الماهر الذى يحكم الدولة ، فقد سمعت فى غانا هذه العبارة :

« ان الرجل الأبيض يستطيع ان يعمل لكل شيء فى افريقية اليوم الا الحكم ، والرجل الأسود لا يعمل أى شيء الا بالحكم ، أى عندما يكون مالكا لزام بلاده » .

حقا ان القوة محدودة ، والحال فى غانا كالحال فى افريقية كلها تقريبا يبتعد كثيرا عن الديمقراطية ، والدكتاتوريون فى تزايد مستمر حتى ان الافريقيين كثيرا ما يتساءلون : هل كانوا لا يحلمون بأن يكونوا وزراء فى هذا التطور ؟ فالمستولون الافريقيون يعتبرون الديمقراطية طبقا للنظام الانجليزى عنصرا اجنبيا يجب الا يدخل فى افريقية ، وكثيرا ما قالوا كذلك : ان الاستعمار قد أيقظ روح المعارضة فى الشعوب المقهورة حتى ان الدكتور « طنين بوم » قد وضع بحثا عن أسباب هزيمة الديمقراطيات فى بلدان أمريكا اللاتينية وأسباب الاختلاف الأساسى بين البنائين الاجتماعيين فى كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية ، وكذلك فى أمريكا الجنوبية ، كما أشار فى هذا البحث الى المستويات المقارنة فى افريقية .

وقد كتبت التايمز اللندنية

فى تعليق لها قائلة : بينما يعتبر الفرد أصغر خلية اجتماعية لها كيائها فان المجتمع الغربى يعتبر المناطق الريفية أصغر خلية فى مجتمعه ، وإذا ما اتجه المرء على سبيل المثال الى الانتخابات الغربية الجديدة التى تقوم على أساس احتياجات المجتمع الذاتية فسيجد ان المجتمع الذى يقوم على التكتل سيفسد فورا وسيقوم فيه بلا شك صراع مشابه لما قد يقوم اليوم فى افريقية ، فقد نما البناء الاجتماعى من أفراد دون نظر للعصبية بصورة متزايدة حتى ان مفهوم القبيلة والعائلة كوحدة مستقلة قد فقد معناه الحيوى فى المراكز الصناعية على وجه الخصوص ، ذلك ان الناخبين غالبا ما يساعدون رجلا للوصول الى السلطة ، وهو الرجل الذى يحظى باختيارهم لمركزه الهام بالنسبة لهم فى المجالس الخاصة وبرغم ذلك فالقوى الحقيقية تظل دائما فى أيدي السلطات

التقليدية ، ومن ثم ينشأ صراع بين الحكومة المركزية الديمقراطية-المنتخبة ، وبين المجتمعات القروية الموجودة منذ وقت طويل .

ومثل هذا الصراع يمكن ملاحظته في غانا فحزب نكروما الحاكم صاحب الاغلبية يريد ان يمثل نظام الغرب الديمقراطي على حين ان المعارضة التي تريد تمثيل الاقليمية تقول : انه من المؤكد ان الرئيس نكروما يريد تحقيق النظم الديمقراطية ولكنه قد قبر الديمقراطية بنفسه وانه بدا يقاسى من وجود صفوة صغيرة في بلاده شأن الأمر في أغلب بلدان افريقية .

فالدولة الديمقراطية تتطلب الكثير من مواطنيها على حين ان ثمة اقلية من الافريقيين تعرف ما تتطلبه ، فعندما انشأ نكروما بعد عودته الى بلاده اول كلية غانية دعا الشباب قائلا : (فكروا وادرسوا برغبة اكيدة ومثابرة وتعلموا بجد ، فاننا في حاجة كبيرة اليوم الى مفكرين ، مفكرين دارسين ذوي عقول راجحة وافكار عملية نحن نريد رجالا عاملين من ذوي الهمم الكبيرة ، والا فماذا يفيد علمكم اذا كنتم لاتساعدون بلادكم وتساهمون في الأخذ بيدها ساعة الشدة ؟ .

ان بلاد غانا تقف اليوم على مفترق طريقين للحكم هما :

« طريق السلطة الشخصية وطريق الفوضى » ولقد احتاجت كل من أمريكا وأوروبا الى وقت كبير وتوضيحات جمة للتخلص من الوقوع في أى منهما والاقتراب من طريق الديمقراطية .

وعلى أية حال فقد احتل الرئيس نكروما مكانة ممتازة بين رجال الساعة في افريقية فعندما منح في عام ١٩٥١ درجة الدكتوراه الفخرية من جامعته القديمة لنكولن ، قال كما قرر في تاريخ حياته : « ان الشيء الحاسم لا يتمثل في الوصول الى الذروة التي تسبقها المرء بغضب وانما في الهوة التي أتى المرء منها » .

ومن الواضح انه قد تطور من شاب من أعماق الغابة الى زعيم بارز في افريقية اليوم ، وانه مطالب بالمحافظة على مصير البشر وقد قال : اننى طاقة كاملة يحتاج المرء الى جذبها كل صباح فلا تحتاج طيلة النهار الى غذاء أو نوم واذا افلت منى القلم فاننى أستعيده ببساطة .

وفي زيارة رسمية لتنجيريا أعلن مايمكن أن يعد عبارة مرشدة في حياته فقال : انه من الأفضل أن يدير المرء شئونه الخاصة في حرية وسواء كانت هذه الادارة حسنة أو سيئة فنتائجها عائدة اليه ، ولكنها مهما بلغت من السوء في ظل الحرية فهي أفضل ولا شك من أن تكون حسنة في ظل العبودية .

ان هذه الكلمة يمكن تطبيقها على جميع رجال الساعة في افريقية .

یوٹیوس نیویری
مدرسے بصبح زعیم دولہ

من الآن فصاعدا يجب أن يكون واجبنا الأكبر أن
نناضل ضد أعداء شعبنا الثلاثة : الفقر والجهل والمرض ،
ولكى نريخ المعسكرة ونصل الى تحقيق هذا الواجب
يلزمنا أن نكون شعبا متحدا

« يوليوس نيريرى »

« من خطبة له بعد اعلان الدستور »

سافرت بين دار السلام وجزيرة زنجبار ذهابا وايابا وفى أثناء السفر
فقدت حقيبة أوراق تحتوى مستندات قيمة ، وقد حزنت لفقدائها غاية
الحزن وكلفت أناسا كثيرين البحث عنها واعادتها فور العثور عليها ، ولكن
جهودهم ضاعت أدراج الرياح .

وفى فندق « افريقية الجديدة » الذى كان معروفا فيما مضى باسم
فندق « البلاط القيصرى » (كايذرهوف) تقدم الى رجل افريقى عجوز
قائلا : انه ، وان كان لا يعرف شيئا عن حقيبة أوراقى ، يريد أن يسير
برفقتى لحديث يود الافضاء به الى .

وفى حوض بيكن بدار السلام طريق للتنزه يسير فيه آلاف الناس
من الافريقيين والآسيويين والأوربيين كل مساء لاستنشاق هواء البحر
المنعش فيتنزهون ويثرثرون وربما يعقد البعض منهم صفقات تجارية أو
يتعارفون ويرتبطون بصداقات جميلة ، لذلك كنت أخرج للتنزه بعد
وجبة العشاء دائما وكان من الأنسب أن يكون لى مرافق فى هذه الليلة .
وقد سمع الرجل العجوز من بواب الفندق بفقد حقيبتى ، هذا بالإضافة

الى علمه بأنى جئت من ألمانيا وأشتغل بتأليف الكتب مما كان له أهمية أكبر لديه .

وفى أثناء حديثنا علمت أنه كان يعمل عازفا فى فرقة البوليس الموسيقية الألمانية وقبل اندلاع الحرب العالمية الأولى بقليل زار مع فرقته الموسيقية برلين القيصرية وعندما كان دون العشرين رأى الكثير وناث له مغامرات عاطفية مستورة . وكانت النساء يتجنبنه هو ورفاقه كما ادعى ، وكنت أرد عليه ادعاءاته فى شىء من التحفظ فقال : انه حينما رجع الى تنجانيقا كانت النسوة البيض قد رحلن وما أن سمعت هذا حتى تملكنى الضحك وقلت : انه لشىء يدعو الى الرضا أن تكون مسرورا بذكرياتك . فأجاب قائلا : لم يكن هذا أهم شىء ، ولكن ما عجبت له حتى اليوم هو أن النسوة البيض يتجنبن الافريقيين فهل تستطيع أنت تعليل السبب ، على اعتبارك كاتباً ومؤلفاً ؟ ولكنى لم أعطه رداً شافياً .

وقد سمعت من هذا الافريقى العجوز مرة أخرى أنه لا يحمل فى نفسه أية ضغينة للألمان ، بل على العكس أحبه وأعجب بهم ، كما لا يحمل حقداً للانجليز الذين قضوا على السيادة الألمانية ، ثم قال معقبا : وبالتأكيد لا أود أن أقول أنا اننى أحبه أو أعجب بهم فالانسان لا يستطيع أن يحب الا مرة واحدة وانه احترام الانجليز دائماً ، ولكن بالتأكيد مع بعض التحفظ ، لقد استولوا على ما بناه الألمان الذين كان يجب أن يستمروا ، وعلى كل ان ما حدث لم يكن ضروريا ، كان فى استطاعة الألمان أن يبقوا طالما كانوا بعيدين عنهم ، ثم التفت الى قائلا : هذا كل ما كنت أريد أن أقوله لك ، حفظك الله ، قال هذا ، ثم اختفى فى الظلام .

منذ الاستعمار الألمانى حتى الاستقلال

أتمت تنجانيقا (مساحتها ٩٣٩ر٣٦١ كم) فى خلال سبعين عاما مرحلتين حاسمتين من مراحل التطور ، وهى تقف الآن فى بداية المرحلة الثالثة ، وقد كانت تنجانيقا فى الأصل هى الاقليم الرئيسى لشرقى افريقية الذى يستعمره الألمان ، وفى عام ١٨٨٤ عقد كارال بيزرز معاهدات عدة مع رؤساء القبائل ، ولذلك كسب اقليم كبيرة لألمانيا القيصرية ، اذ فى عام ١٨٨٥ أسس بيزرز شركة افريقية الألمانية التى تسلمت خطاب ضمان من القيصر .

وفى عام ١٨٩٠ انضمت أقاليم أخرى الى تنجانيقا ، وبدأت الادارة الاستعمارية فى عام ١٨٩١ حتى قسمت مناطق شرقى افريقية الألمانية طبقا لمعاهدة فرساي ، ثم عهلت عصبة الأمم بوصاية كل من مملكتى

« رواندي » الى بلجيكا وعهدت بوصاية جميع المديرات الأخرى الى انجلترا وأطلق عليها وحدها اسم « تنجانيقا » .

وبعد ايجاد الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ حملت على عاتقها حقوق الوصاية على هذه الممالك وقد رأت تنجانيقا على مر التاريخ أن تدخل في اتحادات مع كل من كينيا وأوغندا ، ولكن ثمة خلاف جوهري بينها وبين كينيا . فنسبة الثمانية والتسعين في المائة من السكان الأفريقيين المحليين تضم ٩٨٣٢٠٠ نسمة من قبائل البانتو و ٧٥٠٠٠ تاجر من آسيا يعيشون في العاصمة دار السلام ، ومن ٢٤٠٠٠ أوربي يعيش أربعة آلاف نسمة منهم كمواطنين دائمين في تنجانيقا نصفهم من الانجليز ، وعلى هذا ليس ثمة وجود لمشكلة الاستيطان ، كما هو الأمر في كينيا أو في الجزائر إذ يدرك هؤلاء المستوطنون أن من مصلحتهم أن يتفقوا مع الأفريقيين وأن يدور كل جهادهم حول هذا الهدف ، ولذا وثق فيهم الزعيم الوطني يوليوس نيريري ، الذي يعده اليوم كثير من الانجليز من أقدر الساسة والزعماء الأفريقيين .

وحين ترى طريق حياته وتراقب التغيرات القانونية الوليدة في تنجانيقا التي قادت الدولة الى طريق الاستقلال ستعرف أنه قد وقعت هنا بعض الاحتكاكات أو الثورات بعكس ما حدث في البلاد الأخرى ، والى نيريري يعود الفضل في هذه الحقيقة السارة ، هذا الرجل الذي بدأ صغيرا والذي سرعان ما ظهرت مطالبه من الانجليز ، ولكن هدوءه ولطفه كانا سببا في الكثير من الخير للدولة ، وربما أثر ذلك في صديقه الصغير « توم مويوا » حتى انه قد انتهج موقفا معتدلا في أثناء الاجتماع اللندني الكينوي .

مجرى حياة مدرس

يعتبر يوليوس نيريري شخصية عظيمة جمعت بين دماء الخلق والرقه وهو ابن نيريري بوريتير ، رئيس الزاناكي إحدى القبائل الصغيرة في تنجانيقا التي تضم مائة وثلاث عشرة قبيلة . وحتى الوقت الحاضر وزعت هذه القبيلة على ثمانية رؤساء كبار ، ومن طريف ما يذكر أن الأخ غير الشقيق ليوليوس هذا قد انضم الى الرئيس فانزاجي نيريري ، وحالما تسلم الألمان مقاليد الحكم عاش الوالد الذي كان رئيسا من قبل حتى أنجب ٢٦ طفلا .

وقد ولد يوليوس في عام ١٩١٨ وعندما بلغ الثانية عشرة جاء الى جوتياما حيث التحق بمدرسة موروما ، ومنذ عام ١٩٣٤ وهو يعتنق

المسيحية ولكنه قبل عام ١٩٤٣ كان كاثوليكيًا رومانيا عندما كان عمره
آن ذاك خمسة وعشرين عاما .

وبعد المدرسة الأولية التي قضى بها ثلاث سنوات بدلا من أربع
بمناسبة سرعة تحصيله ذهب الى تابورا حيث التحق بالمدرسة الثانوية في
الاقليم الرئيسى .

ومنذ عام ١٩٤٣ حتى عام ١٩٤٥ التحق بجامعة ماكيري في كامبالا
التي تعد مركز اقتصاد أوغندا ، وهي الجامعة الوحيدة التي في المنطقة بين
مصر « وجنوب افريقية » والتي مازالت حتى الآن المدرسة العليا الوحيدة في
الشرقى افريقية . وبعد أن حصل يوليوس نيريرى على دبلوم التدريس ترك
جامعة ماكيري وعاد الى تابورا ، حيث اشتغل مدرسا في مدرسة سانت
مارى الارسالية .

ومنذ عام ١٩٤٩ التحق بجامعة أدنبرة « باسكتلندا » حيث درس
بكل اهتمام « تاريخ واقتصاديات الأمة » ثم ترك الجامعة أستاذا للفنون
وعاد الى تنجانيقا في أكتوبر سنة ١٩٥٢ ، ومن ثم عاد الى وظيفته كمدرس
في مدرسة سانت فرانسيس في بوجو بدار السلام ، الا أنه كرس حياته
في الوقت نفسه للسياسة وفي هذا الصدد قال نيريرى : انى سرت على
هدى من ضميرى .

وفي دار السلام العاصمة اتخذ له مسكنا وتزوج فتاة من قبيلة
أخرى ، قاصدا بذلك ان يبرهن على تحضره فلم يجعل الأفضلية لبنات
قبيلته .

ولقد كان نيريرى وطنيا عسكريا على مستوى دولى ، وقد توصل الى
ذلك بنفسه من قبل فانضم الى المعارضة وقد اكتسب التقدير والاحترام
لسعة اطلاعه واستقامته واخلاصه فى معاملاته مع الجميع حتى الحكومة .
وقد قام نيريرى باتصالات مع اتحاد افريقية التنجانيقى الذى أسسه
الموظفون الانجليز فى الأصل كاتحاد اجتماعى للافريقين ، وفى عام ١٨٥٣
أصبح رئيسا لهذا الاتحاد ، وقد سن له دستورا جديدا ووفق عليه فى
يوليو من عام ١٩٥٤ ، وفى الوقت نفسه أطلق على الاتحاد الاسم الجديد
« الاتحاد الوطنى الافريقى التنجانيقى » . وقد كان نيريرى زعيما
للمعارضة كلها بصفته عضوا ممثلا فى المجلس التشريعى .

وفى عام ١٩٥٤ زارت احدى بعثات الأمم المتحدة أحد أقاليم
تنجانيقا ودعت يوليوس نيريرى رئيس الاتحاد الوطنى الافريقى التنجانيقى
فى فبراير عام ١٩٥٥ لزيارة نيويورك . وفى الأمم المتحدة ألقى خطابا عن
آمال الشعب ترك أثرا عميقا فى نفوس المجتمعين كافة ، وبعد عودة

نيريرى الى تنجانيقا قام برحلة استغرقت شهرا جاب فيها البلاد حيث
ألقى خطبا نارية ضد سياسة القبائل الانفصالية ، ودعا الى الوعي القومى
التنجانيقى .

وفى نوفمبر من عام ١٩٥٦ ذهب مرة ثانية الى نيويورك وتحدث فى
هذه المرة أمام اللجنة الرباعية للجمعية العامة للأمم المتحدة ، واعترف فى
حماس بالديمقراطية مطالبا فى قوة واصرار بالاستقلال السريع لبلاده ،
وفى عام ١٩٥٧ عين عضوا فى المجلس التشريعى وأصبح فى عام ١٩٥٩
عضوا منتخبا ، وفى الأول من يوليو عام ١٩٥٨ تولى الوزراء غير الرسميين
مناصبهم ، هؤلاء الوزراء الذين قاموا بتحمل أعباء الحكومة والذين اختيروا
من بين الثلاثين عضوا المنتخبين وكانوا ثلاثة من الافريقين وواحدا آسيوية
وواحدا أوربيا . ولم يتول نيريرى أى منصب وزارى ، ولكنه كان يتحدث
قائلا : انه سيتولى منصب رئيس الوزراء دون غيره من المناصب الوزارية ،
وحيث يتحكم وحده فى جميع الأحداث السياسية .

تغييرات دستورية حاسمة

فى ١٥ من ديسمبر عام ١٩٥٩ أعلن حاكم تنجانيقا سير ريتشارد
كورنبول .

» التغييرات الدستورية الجوهرية . وذلك فى بيان له أمام المجلس
التشريعى فى دار السلام ، وهذه التغييرات تعنى أنه سيصبح المجلس
التشريعى خلال سنة مكونا من الأغلبية الافريقية المنتخبة .

وقد أعلن الحاكم ثلاث نقاط هامة هى :

أولا : إعادة تكوين مجلس الوزراء عن طريق انتخابات عامة فى
سبتمبر عام ١٩٦٠ ، وسيكون عدد الوزراء المنتخبين من بين صفوف أهل
البلاد الأصليين أكثر من عدد الوزراء الذين اختيروا من المستوطنين .

ثانيا : - تكون الغالبية العظمى فى المجلس التشريعى من الأعضاء
المنتخبين .

ثالثا : - توسيع نطاق حق الانتخاب فى عملية الانتخابات العامة .

ثم أعلن الحاكم أن تفاصيل التكوين الجديد لمجلس الوزراء قد تحددت
على اثر المحادثات التى جرت فى لندن فى مطلع عام ١٩٦٠ وذلك بالنسبة
لممثلى الشعب المنتخبين لا المعينين .

وواصل الحاكم حديثه قائلا : ان المجلس التشريعى على أساس

الاقتراحات الجديدة سيتكون من واحد وسبعين عضوا منتخبا ، من مقاعدهم خمسون مقعدا حاليا لمرشحي جميع الأجناس ، واحد عشر مقعدا للآسيويين وعشرة مقاعد للأوروبيين بالإضافة الى عدد قليل من المقاعد يحجز للأعضاء المعينين .

ويتكون المجلس التشريعي حاليا من ثلاثين عضوا منتخبا وكذلك عشرة أعضاء من الأفريقيين وعشرة من الأوروبيين وعشرة من الآسيويين .

وفي موضوع حق الانتخاب كانت وجهة وزير المستعمرات جون موكلويد تتلخص في أنه من الممكن أن يؤدي التوسع الملحوظ للتأهيل لممارسة حق الانتخاب الى نتائج باهرة لوأنه نفذ بطرق أخرى ، كما اقترح تقرير «راماج» المعلن في ١٥ من ديسمبر عام ١٩٥٩ والذي وضعتة لجنة تحت رئاسة سير ريتشارد راماج نفسه ، وقد كونت هذه اللجنة بعد الانتخابات الأخيرة لبحث موضوع التمثيل في المجلس التنفيذي والتعديلات الممكنة لحق الانتخاب .

وأخيرا أعلن الحاكم أنه لابد للمنتخب عند اجراء الانتخابات العامة التالية من أن يثبت الأهلية الضرورية التي من بينها السن التي تمكن من القدرة على ممارسة الانتخابات ومحل الإقامة في ظل حماية الاقليم وأن يستطيع قراءة وكتابة اللغة الانجليزية أو السواحلية ، وأن يكون له دخل سنوي لا يقل عن ٧٥ جنيه استرليني وأن تكون له وظيفة في الحاضر أو الماضي معترف بها .

وكان من أثر اعلان الحاكم أن سامت الامور كما قدر لها من قبل فقد حصل الملايين التسعة من الأفريقيين على أكثرية واضحة في المجلس التشريعي لأول مرة ، كما وقف الاربعة والعشرون الفا من الأوروبيين والخمسون ألفا من الآسيويين بعضهم ضد بعض في المجلس . وقد شغل الأفريقيون جميع المقاعد وتكونت المعارضة من خمسة من الأفريقيين على حين وقف كل عضو أوروبي ضد كل عضو آسيوي ، وكان يمكن المرء أن يرى بوضوح أن هذا التقدم السريع في تنجانيقا كان مثار الحسد من جانب كل من كينيا وأوغندا ، ولكن العلاقات بين الأجناس المختلفة كانت هنا على أتم وفاق مثلها في ذلك مثل البلاد المجاورة .

وفي يونيو من سنة ١٩٦٠ عبر مجلس الوصاية للأمم المتحدة عن رضاه التام لان تنجانيقا قد دخلت في المراحل السياسية الأخيرة الممهدة الى الاستقلال .

لو لم أكن أفريقيا

ألف يوليوس نيريري كتابا صغيرا عنوانه «أسوار الديمقراطية» .

وغالبا ما نقل عن هذا الكتاب بعض زملائه مثل توم مبوبا وقد حاول أستاذ التاريخ أن يصنع التاريخ بنفسه وأن يعطى من خلال ثنايا كتابه تحليلا للشخص غير الأفريقى «لو لم أكن أفريقيا» ولولا ما عسى من الأسباب القوية لتعزيد الرغبة الأفريقية فى الاستقلال لحكمت اقتناعا بما أوضحه أن هذه الأرض يجب أن تحكم دون شك وفقا لإرادة الأفريقيين .

ونحن لانستطيع عمل أى شئ لعرقلة هذه الإرادة والأفريقيون أنفسهم يعرفون ذلك . ولهذا كان واجبنا العمل على تحاشي إيجاد العراقيل أو خلق الصعوبات وليتم التطوير إلى الأحسن وبوصفى غير أفريقى فأنى أسائل نفسى : لماذا أخشى أهل أفريقية ؟ هل لأن الأفريقى لا يخشانى أو لأنه ليس بحاجة إلينا .

أننى فى الحق لأخاف الأفريقى أكثر مما يخافنى هو أننى أعرف أن الأفريقى يقاتل ضد الخضوع والاستعباد أو ضد أى شئ لا ترتضيه نفسه وأنا أحاول أن أتبين ملامح هذا الشئ الذى يفضلهُ الأفريقى صاحب السلطة والذى سيضطهدنى فى بادئ الأمر ، أننى استطعت أن أستنتج أننى أخاف عدم الاستقرار الذى يخيم كالضباب فيعوق الرؤية ويخفى معالم الأشياء ، واستطعت أيضا أن أستنتج أن الجزء الأكبر من مخاوفى حقيقى ، ولكن ربما كنت أنا الأوربى السبب المباشر .

الحاجة إلى البيض فى كل الأحوال

كما يشعر المرء فى كل مكان فى أفريقية يشعر كذلك فى تنجانيقا بالحاجة إلى الرجال والنساء من أهلها الذين يستطيعون القيام بجميع أعمال البريد التى مازال البيض يسيطرون عليها حتى الآن ، فالمرء يستطيع أن يحصى ١٣٠٠ موظف بريطانى فى الكادر العالى و ١٥٠٠ موظف فى الكادر المتوسط يقابلهم حتى الآن ٣٠٠ موظف أفريقى من كلتا المجموعتين .

ونيريري يرى أن يتعاون مع الموظفين الانجليز ولكن بشروط مختلفة عن ذى قبل ، وفى هذا الصدد أخذ نيريري عن نهرو ، كما قام بكفالة ضمانات من أجل المستقبل وأخطاره متشابهة فى الغالب مع السياسة التى

تعد بلده للاستقلال والتي أحرزت بلاده بها تقدما عن ذي قبل . وفى هذا الصدد يقول :

ستحتاج تنجانيقا الى خدمات الموظفين الانجليز فترة طويلة من الوقت وقد اتبع الاستعمار فى غربى افريقية منذ البداية سياسة واضحة وكون بعض الوقت خدمة وظيفية محلية ولكن سارت الامور فجأة بسرعة جعلت السكان يحسون احساسا قويا بحاجتهم الضرورية الى التدريب .

وفى الحق أنه أصبح من الضرورى توافر فترة زمنية طويلة يستطيع الموظف فيها مزاولة التدريب ، أما قبل الآن فلم يكن له أية قيمة ، فبالرغم من أن نسبة التحول الى الافريقية قد تقدمت بخطوات واسعة فان هذا لم يكف نظرا للتهديد غير الجاد لتحمل مسئولية النظام . أما فيما يختص بمشكلة التعويض فأننى أرجو أن يظل جميع الموظفين المتطوعين حيث هم وسيتلقون من الدولة غير المستقلة تنجانيقا مرتبات وضمانات كما هو جار الآن . وأما بالنسبة لأولئك الذين لا يرغبون فى البقاء فلا يمكن أن تكفل لهم الدولة أى ضمانات «كالعاش وغيره» .

الحقوق المدنية

لقد أخذ توم مبيويا يدعو سنوات طوالا لبرنامج الذى يتلخص فى أن يكون لكل راشد حق الانتخاب ولكل ناخب صوت ، ولكن الانجليز فى كينيا لم يفكروا فى تنفيذ رغبات توم مبيويا ، أما فى تنجانيقا فان حقوق الافريقين المدنية لم تكن قد انتظمت بعد ، وذلك أنه من غير المتفق عليه على الدوام أن تتمتع طبقة متميزة بحق الانتخابات ، ولقد أسر نيريرى فى حديث الى الحاكم السير ريتشارد ترينبول فى المجلس التشريعى فى دار السلام بوجهة نظره ردا على مايسمعه المرء غالبا من البيض من أنه ليس من المفيد فى الأدغال وفى الغابة العذراء منح الحقوق المدنية للسكان قال :

ان كفاحنا انما هو كفاح من أجل حقوق الانسان ، هكذا كان وسيكون دائما ، اننا نكافح بوحى من المبدأ المنادى بعلم تدخل أى بلد فى شئون بلد آخر ضد رغبة شعبه . اننا نكافح ضد أقلية ضئيلة اتخذت لنفسها مركز السيادة على أغلبية غير راضية . ان معارضتنا للحقائق الغربية المجحفة قد قامت على أناس أننا جميعا متساوون فى الحقوق والواجبات وعلى أساس المساواة بين جميع المواطنين فى الحقوق والواجبات ، واليوم فى العالم بلاد جعلت الحقوق المدنية ترتبط بلون الانسان ، وبعض هذه البلاد قد جعلت من التقسيم اللونى علما يدرسونه ، لقد نأيتم بالعلم وسخرتموه الى التفرقة بين الناس تبعا للون جلدهم ، معتقدين أنكم قد

اهتمتيم الى أن اللون يمكن أن يكون قاعدة للتشغيل الاجتماعي ، ونحن هنا في تنجانيقا نؤمن بأن الانسان هو الجوهر المجدى الكفيل بألا يجعل من اللون دليلا على حقوقه المدنية .

سيدي ، ثمة بلاد أخرى قد ربطت الحقوق المدنية بملكية الانسان وثقافته ، وقد قسم حق الانتخاب الذى سينتخب على أساسه فى تنجانيقا الى هذه الطبقات ، ونحن من جهتنا نقاوم حق الانتخاب على هذه الصورة فان المثقفين ياسيدي ، ليسوا وطنيين ومتحررين ومكتملين أو محترمين أكثر من غير المثقفين ، فانهم يعرفون أنهم لم يتسببوا فى بلاء أقل دائما ، ولا يمكن أن يقول المرء أنهم أقل جريرة فى مصائب وآلام البشرية وان عملهم قد جعلهم قضاة وأحياء أفضل على أفراد الانسان . وأما عن الميزتين :

الممتلكات والثقافة فان الاولى تحمل ادعاء تافها فى أنها قد جعلت من مالکها عضوا فى المجتمع .

سيدي ، اذا كان التعليم فى الجامعة أو رزمة من الاوراق النقدية شيئا هاما أمام القانون حتى يجيز لرجل الحصول على حقوقه المدنية فان القانون الذى ينطق بالعدل سيدل فى وضوح على افتقاره الى العدالة .

الست ترى ياسيدي أن من الاوضاع المقلوبة كلية جعل الثقافة العادية أو الدخل السنوى الذى قوامه خمسة وسبعون جنيها مؤهلا ضروريا لحق الانتخاب ؟ لماذا ينبغي لرجل نال قسطا من الثقافة أن يصبح مواطنا أفضل فى هذا البلد من جاره الذى مازال أميا ؟ وهل الاختلاف بين خمسة وسبعين وأربعة وسبعين جنيها فى السنة كبير الى حد يمكن معه أن يقرر الفارق الكلى بين الحقوق المدنية وبين الطبقة الاولى والطبقة الثانية ؟

كلا ياسيدي ، ان هذه المؤهلات الشكلية مضحكة حقا ، ولا يمكن أى أحد أن يقر عدالتها !

لا خوف

لقد قرب التغيير الدستورى فى ديسمبر عام ١٩٥٩ تنجانيقا من هدف الحكم الذاتى الكامل ولقد كانت تنجانيقا فى أول الامر حكومة مسئولة اعتبرت مرحلة أولى للحكم الذاتى ، وهى التى مازال الحكم البريطانى يتمتع فيها بحق الفيتو ، ولكن تنجانيقا ستحصل على الحكم

الذاتى الكامل فى وقت قريب جدا ثم قال : ان الحكم الذاتى بالنسبة لى يضارع فى أهميته الاستقلال الكامل .

ويجب أن نذكر أن فى تنجانيقا كثيرا من الافريقيين والأوربيين والآسيويين ، ولذا يجب على المرء أن يتعلم التفكير كتنجانيقا ، فالشعار السائد هو وحدتنا التى نعتبرها أفضل أسلحتنا وأكثرها مضاء .

أما الذى أتت به فوارق الجنس اللونية فانه يتجه الى العناية بالآ تصبح الحقوق المدنية والحقوق الشخصية للأفراد حقوقا للجماعات العنصرية اذ يجب أن تلغى الامتيازات الاقتصادية الشخصية التى تنشأ عن التبعية العنصرية .

ولكن ماذا عن الديمقراطية ؟

يقول نيريرى : ان شكل الحكم الديمقراطى مناسب للظروف الافريقية بالطبع ، أما بالنسبة لى فان الديمقراطية تعنى مميزات هامة تتمثل فى الحرية الشخصية والحرية تتضمن اماكن توجيه النقد للحكومة وامكانية تغيير الحكومة دون اغتيال .

وعندما يصبح نيريرى رئيسا للحكومة المسئولة فانه يريد نظرا لكونه مدرسا سابقا أن يتكفل بتوحيد النظام المدرسى لان المدارس ظلت حتى الآن منفصلة تبعا للأجناس المختلفة وعلاوة على ذلك يريد أن يفيد من الثروات الطبيعية للبلاد كما يريد تصنيع تنجانيقا .

وقد حذره أحدهم بالآ يتعجل فى أى اجراء فانه مازال هناك وقت طويل أمام الحكم الذاتى ويخشى أن يأتى مبكرا مما قد يؤدى بالبلاد الى كارثة وكانت اجابة نيريرى قوله :

انه يعلم أن المصاعب تبدأ فورا عندما يتولى الحكم فضلا عن أنه لايعرف خبايا القدر ، وشعاره الآن هو الحرية والعمل ، ثم يقول : اننا سنتخلص من جميع مشاكلنا شأن ماتفعله البلاد الافريقية الاخرى ، وسأهتم بأن يتم تسلم الحكم وديا ، بوسائل سلمية فان العنف ليس مفيدا ، وهو يكلف الكثير ، وعلى أية حال ، أتساءل : هل هناك من يثبت أننى لاأستطيع المحافظة على القانون ؟ لقد تعلمت الكثير من نتائج عدم محافظة الأوربيين على القانون .

ولست بحاجة الى أن أذكر القارىء بما قاله لى ذلك الرجل العجوز الذى بحث عنى فى الفندق بدار السلام .

تم الكتاب

فهرس

الموضوع	صفحة
المقدمة	٣
رجال جدد فى عالم جديد	١١
جمال عبد الناصر	
ضابط سلاح الفرسان يصنع تاريخ العالم	٢٣
الحبيب بورقيبة	
رئيس ومفسر ومقرر	٤١
هياسلاسى الاول	
فى أول خطاب له الى شعبه عام ١٩٣٠	٥٥
محمد الخامس	
ملك بين الاقطاع والديمقراطية	٧٢
توم مبويا	
زعيم نقابى شاب يستغل فرصته	٨٩
ادريس الاول	
أمير سنوسى يصير ملكا	١٠٧
ابراهيم عبود	
الفيلد مارشال يدبر انقلابا عسكريا	١١٧
سيكوتورى	
الوطنى الافريقى الغيور	١٢٩
كوامى نكروما	
شاب من الغابة العذراء أصبح زعيما لشعبه	١٥٣
يوليوس نيريرى	
مدرس يصبح زعيم دولة	١٧٩

تصويب

صفحة	سطر	خطا	صواب
٣	٤	الأطراف التي	الأطراف جعلت منها القارة التي
٥	١٨	برتولي	برتولومي
٦	٩	هونتوتن	هونتوتن
٦	١١	سنة ١٨٧٥	سنة ١٧٨٥
٨	١٠	لا ييج	لا ييسج
٨	١٣	شفايتز	شفايتسر
١٨	٣	شغيتز	شفايتسر
٢٥	١٧	فارغة	صارخة
٢٦	٢٥	يصطفون	ويصطفون
٢٩	٧	عشرة	عشر
٢٩	٢٩	ولكن	ولكن
٣٨	٢٩	الغريب	الغريب
٤٧	٢٣	للبروجوازين	للبرجوازين
٤٨	٢٨	وكانت الشهور	وكانت الأيام
٦٤	١٣	لامبراطور	الإمبراطوري
٦٤	٢٩	منهم	منهم
٧٥	٤	الايدولوجية	الايدولوجية
٨٤	٢١	الشرقي	الشرق
٩٢	١٥	شخصيته	شخصيته
١٠٩	١٧	منتهى	منتهى
١١٢	٣١	أكيدا	أكيدا
١١٩	١٨	استبد	استبدل
١٢٦	٢٦	واستقرار	استقرار
١٥٣	٢	رعيما	زعيما

هيئة قناة السويس

مناقصة عامة

بين مقاولي القطاع العام والخاص

تطرح هيئة قناة السويس في مناقصة عامة عملية هدم وازالة توكسيات الجزيرة رقم ١ مكرر بميناء بورسعيد وتطلب الشروط والرسومات بالحضور شخصيا الى مقر الهيئة بالاسماعيلية (التخطيط والابحاث) وذلك نظير دفع مبلغ ٥ جنيهات وتقدم العطاءات باسم السيد / رئيس هيئة قناة السويس (التخطيط والابحاث) في ميعاد اقصاه الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم الاربعاء ٥ يونيو ١٩٦٣ مصحوبة بالتأمين الابتدائي المحدد بالشروط ولن يلتفت الى اى عطاء يقدم بعد هذا الموعد او غير مصحوب بالتأمين المطلوب .

هيئة قناة السويس

تعلن هيئة قناة السويس (ادارة الاشغال) عن طرح أعمال الصيانة والتشغيل المبينة فيما يلي ويمكن الحصول على نسخة من مستندات كل عملية بتقديم طلب على عرضحال تمغة فئة خمسين مليما الى ادارة الاشغال (مكتب المناقصات والعقود) بالاسماعيلية وذلك مقابل دفع مبلغ جنيه مصرى واحد مضافا اليه مبلغ مائة مليم فى حالة طلب المستندات بالبريد .

١ - عملية استخراج وشحن رمال خشنة وناعمة من محاجر الهيئة بالاسماعيلية - جلسة ١٩٦٣/٥/٢٧ - قيمة التأمين الابتدائى خمسون جنيها مصرى .

٢ - عملية كسح خزانات التحليل بمباني الهيئة بالاسماعيلية - جلسة ١٩٦٣/٥/٢٩ - قيمة التأمين الابتدائى خمسون جنيها مصرى .

٣ - عملية اصلاح وصيانة أجهزة البوتاجاز والافران ملك الهيئة وذلك فى منطقة بور توفيق فقط - جلسة ١٩٦٣/٥/٢٢ - قيمة التأمين الابتدائى خمسون جنيها مصرى .

٤ - تنفيذ أعمال مختلفة بداخل المنطقة الجمركية لميناء بورسعيد - جلسة ١٩٦٣/٦/٣ - قيمة التأمين الابتدائى خمسمائة جنيه مصرى .

٥ - عملية التاكسيات والجسور والاضفاف وخطوط المياه بمنطقة بورسعيد فقط - جلسة ١٩٦٣/٦/٤ - قيمة التأمين الابتدائى خمسمائة جنيه مصرى .

٦ - صيانة طرق وأرصفة الهيئة ببور سعيد والاسماعيلية وبور توفيق - جلسة ١٩٦٣/٦/٥ - قيمة التأمين الابتدائى ألف جنيه مصرى عن كل منطقة من المناطق الثلاث . وتقدم العطاءات مصحوبة بالتأمين الابتدائى داخل مظروفين يختم الداخلى منهما بالشمع الاحمر ويذكر به اسم العملية وتاريخ فتح المظاريف ويعتون المظروف الخارجى بأسم السيد / رئيس هيئة قناة السويس (ادارة الاشغال) بالاسماعيلية ولن يلتفت الى العطاءات التى تصل بعد الساعة الثانية عشرة من ظهر اليوم المحدد لفتح المظاريف أو العطاءات التى ترد بدون تأدية التأمين الابتدائى .



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عتيق - رومكو الفتح

٤١٠١٤ / ٤٠٧٥٣ } مليون
٤٠٨١٤ / ٤٠٥٨٨ }

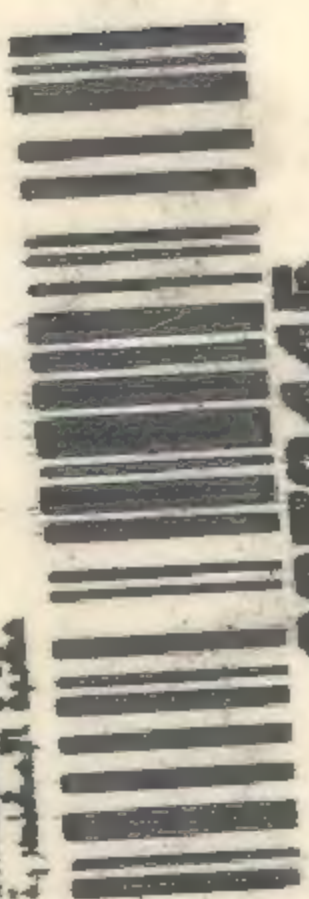
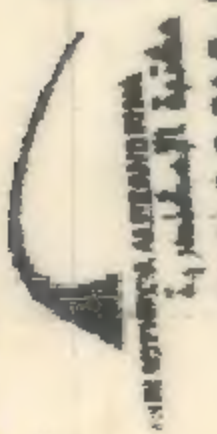


مطابع الدار القومية

١٥٧ شارع عبّيد - روض الفرج

تليفون } ٢٠٧٥٣ - ٤١٠١٢
٤٠٨١٤ - ٤٠٥٨١

Bibliotheca Alexandrina



0272445